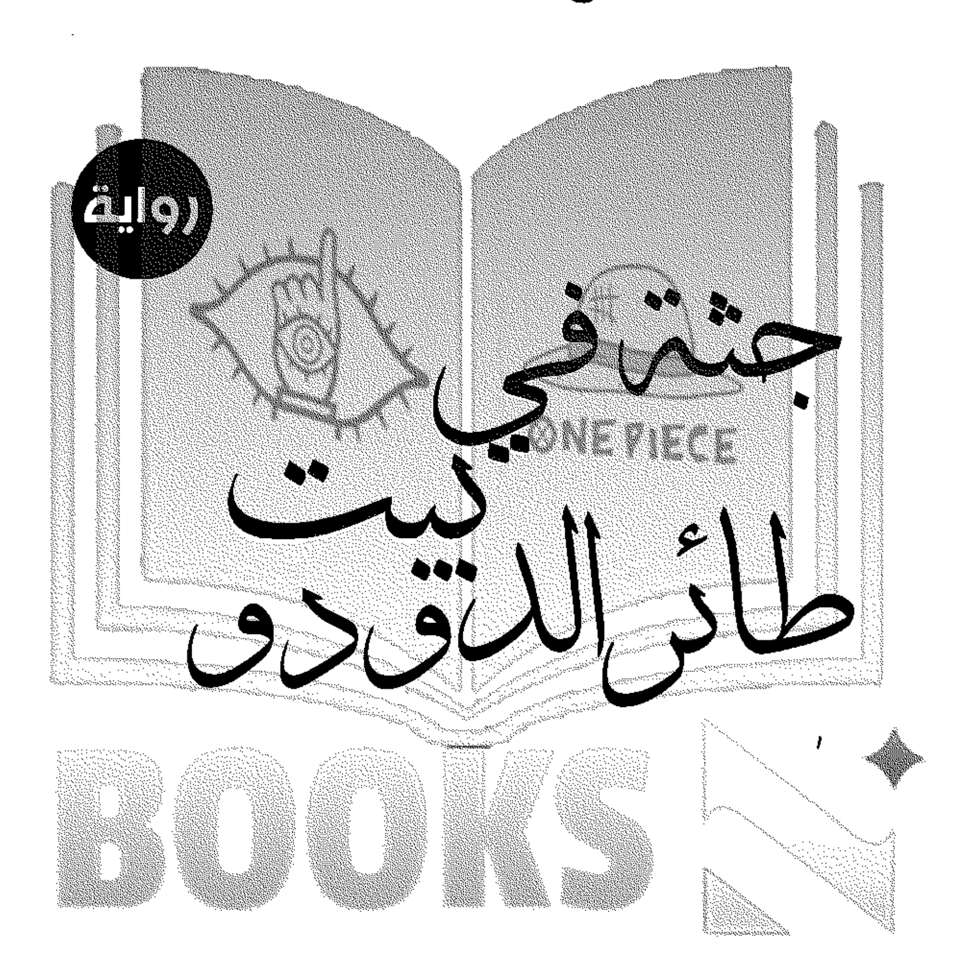

منى سلامة
جثة في بيت
طائر الدودو
رواية
عصير الكتب

منى سلامة



جثة في بيت طائر الدودو

عصير الكتب



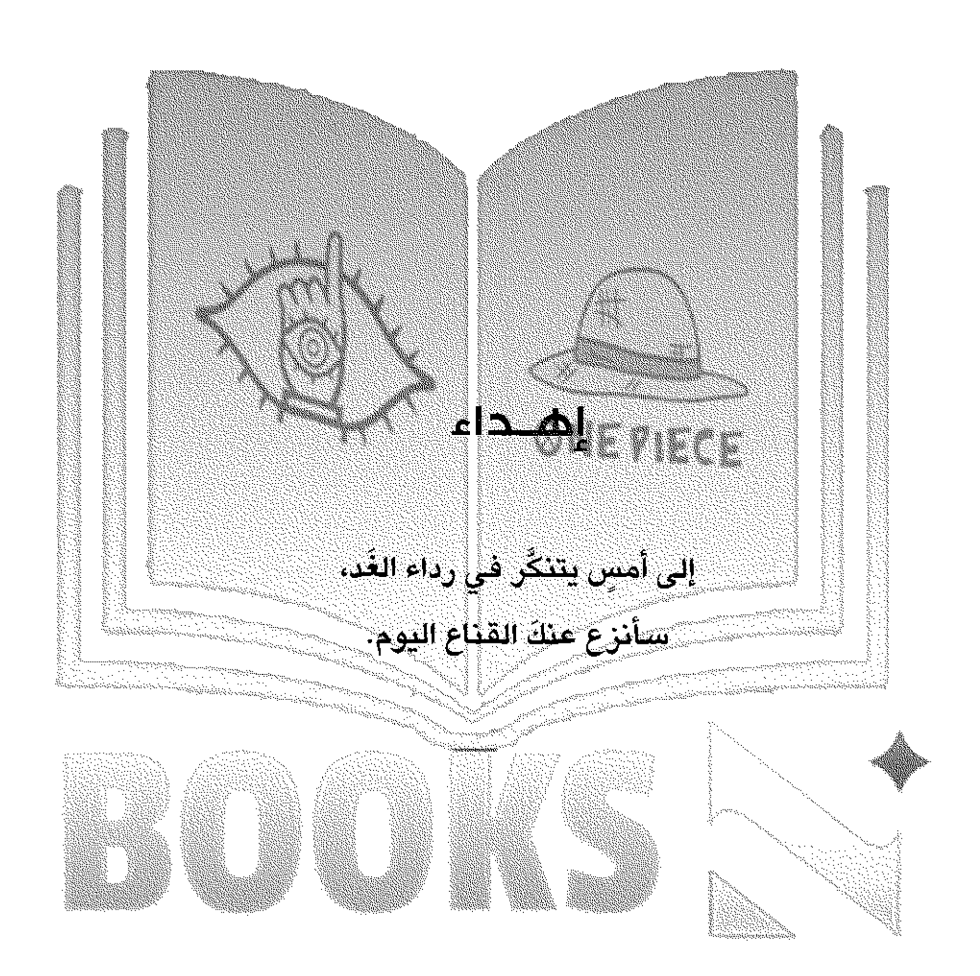
اعتــراف

أي تشابه بينك وبين شخوص الرواية

مُتعمَّد مع تَبييت النيّة لذلك.

ذات شتاء مررنا أنا وأنت من الطريق ذاته،

تركت أثرًا التقطه قلمي.



إهــداء

إلى أمسٍ يتنكَّر في رداء الغَد،

سأنزع عنكَ القناع اليوم.

1

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

دعني في البداية أوضِّحُ لكَ إلى أي مدى صارت الأمور سيئة؛ عثرتُ على جثة في فراشي!

ليس هذا أبهج شيء يُمكن لرجل ستِّيني مثلي أن يستيقظ من نومه عَشيّةً ليراه، أعلم ذلك، كما أنه لم يكن استيقاظًا عاديًّا؛ انتفض جسدي كأن تيّارًا كهربائيًّا سرَى في كل خلاياه، سابحًا في السيتوبلازم، ومُتخبِّطًا في النواة والميتوكوندريا، أو كأن لسان برق امتدَّ من السماء مُخترقًا جدران غرفة نومي، ضاربًا جسدي بمنتهى القسوة، وذلك في تمام السادسة مساءً؛ عرفتُ الوقت من عدد الدقات التي بلغتْ مسامعي، والتي صدرتْ عن الساعة العتيقة المُعلّقة فوق المدفأة في الصالة. لكنه أيضًا ليس الأمر الأسوأ! لا أسوأ من الاستيقاظ بجوار جُثّة سوى الخروج من البيت ورؤية وجوه المارّة في الشارع، وتحمُّل كل هراءاتهم وسخافاتهم ودناءاتهم وأمراضهم الجسدية والنفسية والعقلية، وحمدًا لله أنني لا أفعل.

لماذا؟ لأنهم أموات بالطبع، من يحب معاشرة الأموات؟! لم أخبر أحدًا غيركَ بهذا الاكتشاف، وليكُن هذا هو السرُّ الأول بيننا. الناس في الخارج أموات تسير على قدمين، أموات عاجزة عن الرقاد تحت التراب؛ لأنهم

لم يعثروا على من يحبهم بما يكفي إلى درجة أن يُكرمهم بالدفن. موت إكلينيكي، وكأنهم يقفون على الصراط بين الحياة والموت، يحملون أرواحًا باهتة شفافة لا تراها ولا تسمعها ولا تشمها، وعندما يفقدونها تبدأ أجسادهم في التحلُّل، وعندئذ يجدون من يدفنهم، لا حبًّا ولا إكرامًا، وإنما لأسباب تتعلق بالرائحة التي تصدر عن الجثث المتحللة؛ لذلك أصبحتُ كائنًا رخويًّا يلتصق بالبيت وأرضه وجدرانه -وقريبًا بسقفه- يكره مجرد فكرة الخروج من البيت ومواجهة جحافل البشر وتعقيداتهم الحياتيّة.

كيف عرفتُ أن الشخص الراقد بجواري جثة فقدت روحها الباهتة، وبدأتْ في التحلل، وأنه ليس من ذلك النوع الذي ما زال بإمكانه أن يسير على قدمين؟

سؤال ساذج! الجثث التي تبدأ في التحلل تبدو كالجثث التي تبدأ في التحلل، ظننتُ هذا واضحًا! لماذا تبدو عبارة بسيطة مثل: «عثرتُ على جثة في فراشي» عصيَّة على الفهم وقابلة للتشكيك؟! إن لم تُصدق أنها جثة فبإمكانكَ أن تُحركها بنفسك، تفحَص نبضها، تقوم بالإسعافات الأولية، وتمنحها قُبلة حياة إن أحببتَ، أما أنا فلن أفعل، هي جثة وانتهى الأمر. كل ما أستطيع فعله -ولنُرجئ الشُكر لاحقًا- أن أُلقي عليه مئزري لأستر به جسده؛ إذ إنه منبطح على بطنه، نعم، إنها جثة لرجل، ظننتُ هذا واضحًا!

الغريب أنني أتذكر جيدًا استحمامي صباحًا، وأني قبل أن أدسَّ جسدي في الفراش ارتديتُ منامتي الرمادية التي ابتعْتُها قبل أعوام من بائع جائل طرق باب بيتي وأصرَّ على أنها التصميم ذاته الذي يرتديه ولي العهد تشارلز خلال نومه -دعْكَ من أسئلة لا طائل منها مثل: كيف عرف هذا الرجل الذي لا يساوي خمسة قروش ما يرتديه ولي العهد في

نومه؟! لم أبتغْها لأنني صدقته؛ بل لأنه كان يُصدِّق ما يقوله كأشدّ ما يكون الإيمان. كاذب يُصدق كذبته، ما أبرعه!- والآن لا أجد فوق جسدي لا «بيجاما» تشارلز، ولا حتى أسمال شحّاذي السيدة، لا شيء على الإطلاق.

أرتدي منامتي الرماديّة سريعًا كأن الشرطة ستُداهم غرفة نومي في الحال، ثم أتذكر أنني في البلد الذي لا يتعرَّف على الجريمة إن حدثتْ أمام عيونه الجاحظة. فاطمأن قلبي. أقف مُتطلعًا إلى ظَهر الجثة في نفور صارخ؛ لماذا لا يموت الناس في أسِرَّتهم الخاصة، وفي غرف نومهم، بجوار أقاربهم أو أحبّائهم؟! لماذا يموت هذا الرجل الوقح ويتحلل جسده في بيت غريب -واللعنة على ذلك- في فراشي أنا بالذات؟! أضاقتْ به العوالم الواسعة باتساع كواكب ومجرّات؟! صارت الجثث عديمة الأخلاق هذه الأيام.

كل ما أتذكره من أطراف كابوس عجيب رأيته قبل أن أستيقظ كالمصعوق، هجومًا ضاريًا حول بيتي، جيشًا عتيدًا يتجهَّز لقتلي ونسْف بيتي، يحمل أسلحة لم أرَها من قبل كأنها قادمة من عصور غابرة، جيشًا من خِراف ذات صوف أبيض! نعم، خِراف بيضاء متكورة على نفسها كأنها كرة قدم، تتحرك في نظام مدروس بدقة فائقة، ما أسخفه من كابوس! حتى الكوابيس لم تعد تحترم العقل الذي تُنسج داخله. ورغم سخافة الكابوس، إلا إنني لم أستطع منع نفسي من حَفره على الجدران كديدني كلما صادفني كابوس في أرض الأحلام، هواية غريبة! لكن لا أستطيع منع نفسي من حفر الكوابيس على جدران غرفة نومي مستخدمًا حجرًا صغيرًا مميزًا سأحدثك عنه لاحقًا.

امتلأتْ جدران غرفة نومي بكوابيس عديدة، لكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها كابوسًا به جيش من الخِراف البيضاء المتكورة كأنها كرة قدم، وتتجهز لاقتحام بيتي. تُرى هل هو كابوس حقًّا، أم نبوءة؟

***

والآن لأرتب أفكاري.

لا يُمكنني حمل جثة الرجل حتى وإن كان يبدو نحيلًا أكثر من أعمدة الإنارة في الشارع؛ فقد تمكَّنتُ من رؤية عظام كتفيه وظهره البارزة بمساعدة ضوء أصفر هزيل آتٍ من «وناسة» صغيرة بجوار الخزانة. وحتى إن جررته على الأرض إلى أين أتوجه به؟ ليس إلى المطبخ بالطبع! لا أستطيع أن أحذو حذو الزوجات اللاتي يقطِّعن رجالهن بالساطور، ويتخلَّصن من أشلائهم في أكياس القمامة السوداء، إذ إن هذا الزمن قد ولَّى واندثر، الآن أصبحن يستخدمن طُرُقًا أشد فتكًا، وأكثر نظافة دون الوقوع تحت طائل المُساءلة القانونيّة مثل: طعام مملوء بالكوليسترول، وجرعات عالية من السموم البيضاء الثلاثة: السكر والملح والدقيق. وكأنه لا يكفيني أن أستيقظ بجوار جثة، فأقوم بتقطيعها مثل دجاجة مسلوقة! فضلًا عن أنني لا أملك ساطورًا في البيت.

ولن أستطيع كذلك أن أسير على درب زوجة السلطان الكونغولي «لو هو جامبو» -التي وضعتْ زوجها في ماء مغلي ثم أكلته حيًا- لأمور لها علاقة بالذائقة كما تعرف.

وأيضًا لن أتمكن من دفنه في الحديقة الأماميّة لمنزلي ذي الطابقين، ليس لأن الحديقة كناية عن أمتار قليلة من الحشائش المدهوسة يُطوِّقها سور لا يكفي ارتفاعه لصد العيون المتلصِّصة من شرفات البنايات من حولي؛ بل لأنني لن أخرج من هذا البيت حتى وإن كان ذلك من أجل دفن

جثة، حتى وإن كان اتقاء رؤية سِحنة «عشماوي» وهو يلف حبله الغليظ حول رقبتي.

الاتصال بالشرطة؟ ما هذا الاقتراح السخيف! الشرطة تعني: عشرات البيادات التي تدهس سجّادتي العجمية في الصالة، والتي أخبرني نفس البائع الجائل -وبإيمان كبير كدَيدَنه- أنها كانت تفترش غرفة عُرابي قبل أن يُنفى خارج البلاد، هل تعرف كم دفعتُ ثمنًا لهذه السجادة؟! فضلًا عن قانون الجرائم رقم واحد، المعروف على مستوى العوالم العلويّة والسفليّة: من يعثر على جثة هو مرشح مثالي ليكون قاتِلها الزنديق. سترغب الشرطة في إخراجي من بيتي واقتيادي إلى القسم، وعندئذ سأُخرِج بندقية «أريساكا 99» التي يحلو للبعض أن يدعوها بـــ «الصامدة حتى النهاية»، والتي أحتفظ بها في مكان آمِن خلف لوحة الموناليزا في الصالة -هذا سِرُّنا الثاني، إياكَ أن تخبر به أحدًا- ثم أقتلهم جميعًا، وأُبقي على الرصاصة الأخيرة لرأسي. أو قد لا أفعل؛ إذ إن بعد إطلاق النار من هذه البندقية التي استخدَمها الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية تَحدُث قوة ارتداديّة كبيرة جدًّا -والعُهدة على اليابانيين- قد تدفع برجل في لياقتي الهزيلة صوب الجدار؛ فأموت مُهشَّم الرأس دون حاجة إلى بعثرة محتويات جسدي في الأرجاء. إذًا اقتراح الاتصال بالشرطة لن يجعلني أخسر حياتي فحسب، بل السجّادة العجمية كذلك؛ سينسكب فوقها عشرات اللترات من الدماء الساخنة لرجال الشرطة، وستتغير معالمها.

ليتَ الجثث تتبخَّر مثل الماء الذي أعدَّته زوجة السلطان لسلق زوجها، لكنها -ويا للخيبة- لا تفعل. عندما تخرج الروح حاملة السِرّ الربَّاني لماذا لا تتفتت أجسادنا إلى ذرات، ثم تطير في سرب لتُشكِّل سحابة؟ ربما لأن ذلك لو حدث لاستمطرتِ السماء قيحًا وصديدًا ونجاسة! الإنسان

هو العدو اللدود لهذا الكوكب، كأنه ما أتى إلى العالم إلا ليُدمِّره، وما جاوَر الطبيعة إلا ليُفسدها.

أرى أن الحل الأمثل هو أن أترك الجثة كما هي، أغلق باب غرفة النوم، أسُدُّ عتبتها بالشراشف كي لا تتسرب الرائحة المنتنة للصالة، ثم أترك الطبيعة تأخذ مجراها. نعم، هذا الحل مثالي، رائع أنتَ يا «لوط»! كم من الوقت تحتاجه جثة كي تتحلَّل؟ لو أردتُ أن أكون واقعيًا لقلتُ أن جثث النساء لا تتحلل، وإنما يتآكلها الغضب؛ غضب مكبوت حبسه رجال مقهورون في صدورهم، يتحرَّر لحظة الموت المقدسة التي لا تستطيع المرأة أن تقهرها. هل رأيتَ رجلًا يبكي امرأته التي دفنها للتو؟ حسنًا، إنه لا يسكب دموعه حزنًا، بل يُحرر وحش الغضب من داخله كي يدفنه مع امرأته في قبر واحد، فيُقدمها له على طبق من تُراب لتكون عشاءه ليلًا. لكن الناس لا تحب الواقعيّة، يريدون المساواة في كل شيء. حسنًا، من حق المرأة أن تتحلل بعد الموت ويأكلها دود الأرض كما هو حق للرجل تمامًا، فلتحيا المساواة في الدود.

فَلْنَرَ الآن، بما أن الجثة ترقد فوق فراشي -ذكِّرني أن أحرقه في النهاية- في الهواء الطلق، وليست مدفونة تحت التراب مثل أي جثة خرجتْ من صُلب آدم، إذًا فمعدَّل تحلُّلِها سيكون أسرع بثمان مرات. لا بد أن درجة حرارة الجسد انخفضت الآن -إياكَ أن تطلب مني أن أقترب لأتأكد- الوجه شاحب -إياكَ أن تطلب مني أن أديره لأعلى- ولا بد أن الرائحة المميزة للجثث المتحللة قد بدأت في الإحاطة بجسده -إياك أن تطلب مني أن أتشممه- هذه الرائحة اللعينة كلما قويَت اجتذبت الذباب، وسيبدأ في وضع بُيوضِه بكمِّيات كبيرة في فتحات الجسم وطيّات الجلد.

سيخلو النصف السفلي من الدماء نتيجة لتوقف الدورة الدموية، ستتشنَّج الأطراف، وتتحول الجثة إلى لوح خشبي مُتيبِّس، وعندئذ

ستبدأ المتعة كلها! سيهضم الجسم نفسه ذاتيًّا، وكأن الجسد تحول إلى يد العدالة فينتقم بنفسه من نفسه! ثم تمر الجثة عبر مراحل مقززة من اللون الأخضر، وتوحُّش البكتيريا، وتعتيم القرنية، وسقوط مُقلة العين، ثم الانتفاخ والغازات كريهة الرائحة. تختفي الملامح، وتسقط الأظافر، والشعر، ويظهر الدود منتشيًا في كل أنحاء الجسد، وقد جهَّز طاولة العشاء والشموع من أجل مأدبة مُعتَبَرة يأتي فيها على العضلات، ويُبقي على العظام لعجزه عن التهامها. ثم -ويا للروعة- تتسابق الديدان كي تأكل بعضها بعضًا بعد نفاد الطعام، هل يُذكِّرك هذا بشيء ما؟ يُذكرني أنا بأشياء، لكنني لن أتحدث عنها الآن.

أما العظام فإنها مثل الحاكم الذي لا يفنى حتى وإن مات الجميع، يتربَّع على عرشه لسنوات تطول، يحكُم الضعف والذل والقهر والماء والعفن. السنوات الطوال لا بد لها من نهاية، فيفنى العظم، ويتحول إلى تراب -المادة ذاتها التي منها خُلِق- إلا عظمة لا تفنى ولا تتبدد اسمها «عَجْبُ الذَّنَبِ»، ينبعث منها الإنسان مرة أخرى يوم القيامة، هكذا سمعتُ الشيخ يقول في إذاعة القرآن الكريم مُستدلًّا بحديث شريف: «كل ابن آدمَ تأكُلُه الأرضُ، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ؛ منه خُلِق وفيه يُركَّب».

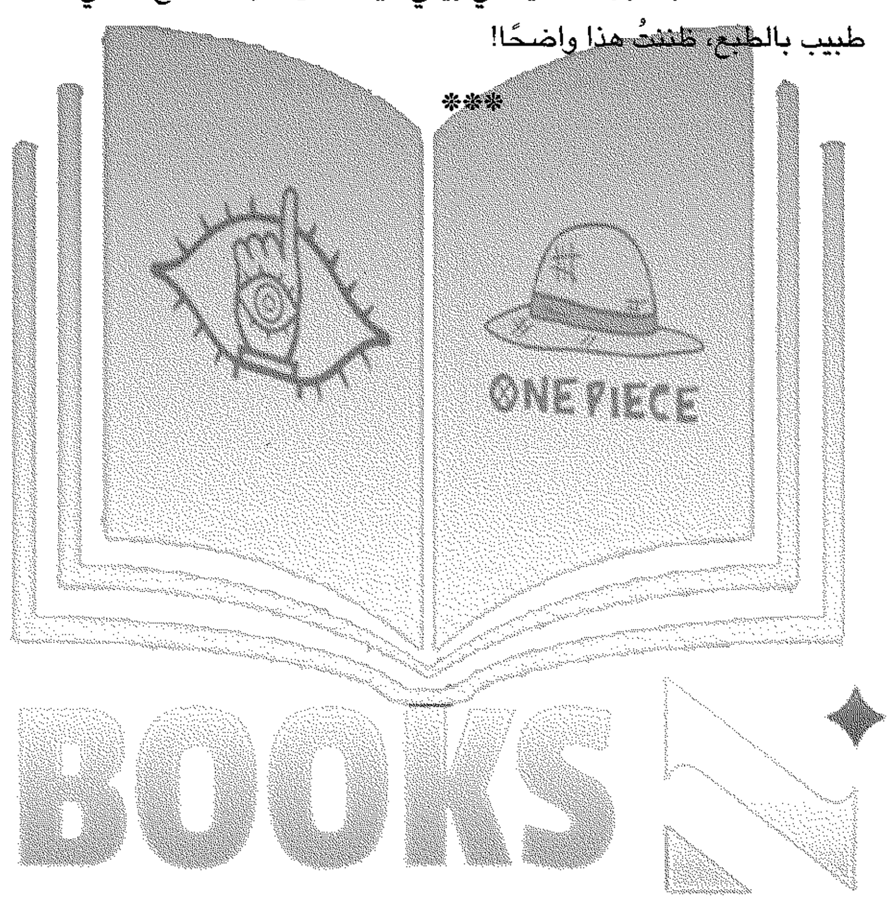
هنا لاحتْ لي فكرة لا بأس بها، لماذا لا أحفظ الجثة بالفورمالدهايد؟ هكذا سأقلل من الروائح والغازات التي قد تصل للحواس الشَّمِّيّة لجيراني؛ خاصة جارتي الحيزبون -في البناية المقابلة- التي تشبه الرئة! رئة يُمنى مُتضخمة؛ تستطيع أن تشم حذاء زوجها على بُعد شوارع وحارات وميادين، فتفتح النافذة، وتطُل منها بسحنتها المعْوَجّة لاستقباله باللعنات.

لو كان عندي في دولاب مطبخي ملح النطرون، قطران، ثمار العرعر، نبات البري، صمغ مُستخرَج من شجر السنط، راتنج من فصيلة

المخروطيات، وبصل؛ لَحَنَّطتُها كما فعل أجدادنا القدماء، لكن كما ترى، ليس من السهل الحصول على البصل بسعر معقول هذه الأيام.

لماذا أحتفظ بالفورمالدهايد في بيتي؟ يا له من سؤال ساذج؛ لأنني طبيب بالطبع، ظننتُ هذا واضحًا!

***



2

طبيب مخ وأعصاب، هكذا تقول الشهادات الكبيرة -بثلاث لغات- التي تلتف حول لوحة الموناليزا في نصف دائرة؛ تمويهًا أُخفي به حقيقة البندقيّة اليابانية المدسوسة سرًّا خلف رأس الفتاة، مُتستِّرة ببراءة عينيها. وما لا تقوله الشهادات أنني طلَّقتُ الطب منذ سنوات طوال طلقة بائنة لا رجعة فيها، بل طلّقتُ الحياة كلها، كل ما هو خارج جدران بيتي لا يساوي عندي جَناح بعوضة.

الشهادات على الجدار تسترعي الانتباه، وتصرف النظر عن اللوحة والبندقية التي أخفيها خلفها، انتباه مَن وأنا لا يزورني أحد؟! بالطبع الحانوتي الذي سيأتي إلى بيتي ليدفنني بعد أن أموت وتتسرب الغازات من النوافذ المغلقة دومًا، فتُزعج جارتي الحيزبون التي تُطعم زوجها اللعنات على الإفطار كل صباح؛ حتمًا ستطلب الشرطة وتشتكي لهم من الرائحة الكريهة، سيغلق أمين الشرطة المحترم الخط في وجهها؛ فلديه أمور أهمّ تُشغله، مثل: مُناكفة رجل ملتاع جاء ليشتكي ضياع محفظته، نهر امرأة جاءت تبكي لاستيلاء زوجها على شقة الزوجية التي تربّي فيها صغارها، وضرب قفا رجل مُتلذذًا بسلب كرامته، أشياء مهمة كما ترى، وهنا ستجد جارتي أخيرًا الحجة التي كانت تنتظرها منذ ملايين السنين لتقتحم بيتي عنوة.

أعلم أن هذه الحيزبون التي تشبه رئةً يُمنى مُتضخمة، ولها شارب يبدو عن قُرب كشارب صرصور تنتظر الفرصة كي تدخل بيتي مُستكشفة، تحسَب نفسها «أمريكو فيسبوتشي» وأنها ستتعرَّف في بيتي على قارة جديدة تتكرم عليها بمنحها اسمها، كما منح هو اسمه لـــ «أمريكا».

أين رأيتَ شاربها عن قُرب؟! سؤال خبيث، سأجيبكَ عنه، لكن لا تتذاكَ عليَّ مرة أخرى، رأيته عشرات المرات عندما كانت تحوم حول بيتي مثل عسَّاس يستطلع الأخبار، تتخيَّر ستار الليل لتستتر به. لا يفضحها سوى تربُّصي بها وبحركتها الثقيلة وخطواتها التي تلطم الأرض فتصرخ تحت وطأة خُفِّها، وصوت تنفُّسها الذي يُشبه شهيقًا وزفيرًا يصدران من رئةٍ يُمنى متضخمة. أتتبَّع حركتها، ثم أفتح النافذة فجأة، فنتلاقى وجهًا لوجه، أتعمد في تلك اللحظة -وبطريقة صبيانية على غرار ضرب قفا زميل ثم الفرار- أن أفتح عينَيَّ بأقصى اتساع تملكه حدقتاي، فتبدوان بارزتين كأنهما ستسقطان من محجريهما، ومع شعري الأبيض الأشعث، ووجهي بارز العظام أبدو كجثةٍ فارّة من الكفن.

أبتسم، فتتبدَّى أسناني الحمراء الملطَّخة بـ «مربى الطماطم» التي أتفنن في إعدادها، تحسبه جارتي الحيزبون دمًا: تتسع عيناها فزعًا، ويقف شعر شاربها هولًا، تُطلق صرخة تكتمها بيدها الغليظة، ثم تعدو مُبتعدة بجسد مُترهل، تدهس في طريقها حشائش الأرض وحشراتها وكائناتها الحيّة الدقيقة، دون سداد دِيَة القتل.

لُعبة مُسلِّية، قاسية قليلًا! لكن المرأة تستحق، لا بأس بالألعاب المسلية؛ فأنا رجل لم أغادر بيتي منذ... لا أذكر حقًّا، بدا لي منذ الأزل.

***

لا أريد لأحد أن يعثر على البندقية اليابانية بعد موتي، فعشرات الأخبار قد تُلفَّق عني وتنتشر بلمح البصر في أرجاء البلاد: جندي ياباني هارِب من الحرب العالمية الثانية عُثر عليه ميتًا وقد كان يعد خطة مُحكمة لإشعال حرب عالمية ثالثة. أو: رجل مجنون في عُمر مومياء تَخفَّى في بيت من طابقين في حي صغير يتوسط اللامكان. أو: طبيب متوحش اعتاد اصطياد ضحاياه من الطرقات ليُجري عليهم تجارب مُحرَّمة يبصق عليها القانون. الأخبار الكاذبة ستُطوِّق عنقي بعد موتي: رجُل لا يخرج من بيته بالطابق الأول، والمكون من أربع حجرات، في غرفة نومه يتوسط الفراش جثة لرجل غريب لا يعرفه، بينما في الغرفة الثانية يحتفظ بأدوات وأجهزة جراحة كاملة، وفي الثالثة نزع البلاط، وهيَّأ الأرض لزراعة محصول من الطماطم دموية اللون يصنع منه «المربى» الشهيّة، وأما الرابعة فغرفة مُحرَّم دخولها، مُحكمة الغلق، لا يَفتح بابها المُصفَّح إلا ستة وستون قفلًا لكل منها رقم سرّي خاص.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك بندقية يابانية من مُخلَّفات الحرب العالمية الثانية ترقد خلف لوحة مُقلَّدة تقليدًا ساذجًا للموناليزا، فيكون مجموع كل ذلك يساوي -في نظر الحَمقى- مؤامرة مُحكَمة.

***

لا بد أن القمر قد اعتلى عرش السماء، لا فارق بين صباح ومساء، خريف وربيع؛ الستائر الرمادية الداكنة مُسدلة على مدار العام.

أنتبهُ الآن إلى تفصيلة أخرى عن الجثة، الرجل أبيض الشعر أشعَثه، كأن جبلًا ثلجيًّا سقط على رأسه واستطالت نُتَف الثلج منه؛ بإمكاني إذًا أن أُقدِّر أن عمره يقارب الستين أو السبعين أو الثمانين؛ لا أحد يبدو في عمره الحقيقي هذه الأيام، جلده مُرقَّط ببقع صغيرة بنِّيّة، مثل سمكة سلمون بالغة.

أدنو من الفراش الآن، وعلى الضوء الأصفر الباهت القادم من الصالة؛ ألمَح وحمَة حمراء على شكل قلب تعلو قفاه، أتخيل تعرُّضَه لعشرات العبارات المُتنمرة من أجل وحمته المُضحكة التي هي أشبه بأوشام النساء، لم يبقَ إلا أن يَخرُج منها سهم وحرفان.

أدور حول الفراش ببطء، أحسِب لكل خطوة حسابها، لا لستُ خائفًا من جثة، إنما أتقزز من اقتحام الآخرين لعزلتي، ودخول غرفتي، والتحلل في فراشي دون استئذان. وهنا باغتني سؤال تعجبت كيف لم يخطر على بالي من قبل! من أين أتت هذه الجثة اللعينة؟ لم تسقط من السقف، ولم ترشحها الجدران، وبالتأكيد لم تدخل من الباب أو النوافذ، لماذا؟ لأنها مغلقة بإحكام مثل منافذ سجن العقرب.

أتوجه إلى باب غرفة النوم المغلق من الداخل، أتأكد أن ستة الأقفال مغلقة كما تركتها قبل نومي، حسنًا، الأقفال متينة لم يفُضّها إنسٌ ولا جان؛ لم تدخل تلك الجثة بيتي على قدميها، وحتى وإن حملها مجرم ما فوق كتفه ثم ألقاها فوق فراشي، فلا مكان يدخل منه باستثناء بالوعة الحمام، ولا أظن أن جسدًا بشريًّا تسعُهُ بالوعة صَرف، من أين أتى إذًا؟!

أدنو منه خطوة أخرى، تصفع أنفي رائحة الجثث التي ستجتذب الذباب إليه بينما هو لا يقوى على هَشٍّ واحدة. سيستأسِد الذباب على الجسد الضعيف، السلوك ذاته الذي يسلكه الناس في حالة تعرِّي ضعيف في الطرقات، في البيت، في العمل، بعد أن بلِيَتْ أسمال قوته تحت قيظ الدنيا، يتتبعون رائحته، ويتكالبون عليه، كل منهم يريد أكبر قطعة من هذا الضعيف لنفسه؛ إذا تعرَّتْ سَوءة ضعفكَ، تأكَّد أن تُغطي الرائحة بعطر زيتي ثقيل، لا تقُل إنني لم أنصحكَ.

أدنو خطوة أخرى، الآن أقفُ بجوار جذعه تمامًا، خطوة واحدة وسأقف قبالة وجهه، وسأتمكن حينئذ من أن أتبيَّن ملامحه قبل أن تنتفخ ويلتهمها الدود. وهنا خطرت لي فكرة؛ لماذا لا أقوم بسحبه داخل بانيو الحمّام، ثم أسكب فوقه مادة كاوية قادرة على إذابة جلده وشحمه ولحمه، وعندئذ لن يتبقى سوى العظام التي بإمكاني أن أُعِدَّ منها مقعدًا للاسترخاء! بالطبع لن أسترخي فوقه، قد أضعه بجوار الباب هدية من أجل الحانوتي الذي سيأتي ليدفنني بعد موتي، لن أكون حاضرًا لأنقُد الرجل أُجرَته، فلأُهده مقعدًا من العظام إذًا، هذا أقل شيء أفعله من أجل الرجل كي يُكرِم دفني.

ما هذا الأنف الأفطس؟ والوجه المُجعَّد تجعُّد إصبع منقوع في الماء ثلاثة أيام؟ أما الشفتان فحدِّث ولا حرج؛ فم كبير له بوّابتان داكنتان جافّتان لإهماله شرب الماء، وعظام وجهه بارزة كأن الدنيا مضغته واستحلبَتْ خيره ثم بصقته فوق فراشي، لا أتوقع أفضل من ذلك من جثة، لكن! مهلًا، ثمة شيء يتحرك خلفي!

ألتفتُ فجأة فيقابلني ظلي فوق الجدار المُتخم بنقش كوابيسي، صرتُ الآن مثل قطط الطرقات التي تفزعها حركة بشرية وغير بشرية، حتى حركة ظلي فوق الجدار قادرة على إفزاعي، أين ثباتك الانفعالي يا «لوط»؟ بدلًا من الالتفات مرة أخرى صوب الفراش ها أنا أستدير لأواجه ظلي على الجدار، أتخيل أنني أنظر في مرآة -لا أملك في البيت أي مرايا- أتأمل نحافة جسدي، وشعري الأبيض الهَائش، أتلمَّس بإصبعي وحمة حمراء مُضحكة على شكل قلب أعلى قفاي، وبشرة منقَّطة ببقع صغيرة شاحبة مثل سمكة سلمون بالغة. أمرِّر أناملي فوق أنفي الأفطس، ووجهي المُجعَّد تجعُّد إصبع منقوع في الماء ثلاثة أيام، وفمي

الكبير ذي البوابتين الداكنتين الجافتين لإهمالي شرب الماء، ثم أنتهي أخيرًا عند عظام وجهي البارزة كأن الدنيا مضغتني واستحلبَتْ خيري ثم بصقتني. يقف شعر جسدي فزعًا، أستدير في حدة إلى الجثة التي تعتلي فراشي، أُقرِّب وجهي من وجهه، وعيني من عينه، هذا الرجل أنا! أو بتعبير أكثر دقة، هذا الرجل جثتي أنا!

***

3

يقولون: إن لكل إنسان تسعة وثلاثين شبيهًا. أفهم أن أقابل أحدهم يحوم حول بيتي، فيلتقي وجهانا حينما أزيح ستائر النافذة بغتة، أو أن أرى صورة أحدهم في الأعداد الجديدة من الجرائد والمجلات التي يأتيني بها «عصفور» صبي التوصيل مطلع كل شهر. أو حتى أن تتبدَّل سِحنة «عصفور» نفسه، فيتلوَّن شعره من الأسود إلى الثلجي بسرعة صاروخية، وتُمضَغ قسماته، ويتسرب ثلاثون كيلوجرام من الدهون عبر مسام جسده فيبدو كأحد أشباهي، لكنني لا أفهم أبدًا كيف ألتقي بأحد أشباهي جثة هامدة، وأين، في فراشي؟!

في الحقيقة لا أقبل أن يكون لي شَبيه على الإطلاق؛ أنا واحد متفرد، لي بصمة، وذوق، وطباع، وفِكر، وعادات، ومشاعر، وخلجات نفْس لا تُشبه أي إنسان آخر في أي قارة مُكتَشفة أو غير مُكتَشَفة. الخوف اللعين، يتحرك في بيتي دون رقيب، ضيف غير مرغوب فيه، لا قِبَل لي به، ولا قدرة لي على طرده، وكأنه استوطن بيتي، وأصبح المُحتَلُّ الأثيم هو صاحب الدار.

الخوف الذي أبذل جهدي كي أبقيه خارج جدران بيتي أصبح يقف معي الآن تحت سقف واحد، لا أتكلم على المجاز؛ الخوف يقف الآن معي وجهًا لوجه داخل غرفة نومي! أنتَ تعرف شكله جيدًا، لا أحد منا

إلا وقابل الخوف وأفسح له مكانًا في بيته، أطعمه من طعامه، وسقاه من شرابه، يبدو كأنه ظلٌ لي، لكنه أنحف وأكثر طولًا، أصلع الرأس، بلا ملامح، أسود جدًّا كأشد ما يكون السواد، يقف أمامي الآن، لا يتحرك، لا يتنفس، صامتًا، مُترقبًا مثلي.

بخفقات قلب متسارعة، استرقتُ النظر إلى الفراش، ورحتُ أتساءَل: كيف يُمكن للمرء أن يلتقي بجثته وهو على قيد الحياة؟! لو كان هذا فيلمًا عربيًّا لاتضح أن هذه الجثة لأخي التوءم، اختطفته القابلة التي قامت بتوليد أمي -أعادها الله من سَفرتها سالمة- وباعته إلى عائلة ثريّة، تعترف المرأة الآثمة على فراش الموت بالحقيقة التي دفنتها في بئر النسيان، يجوب أخي الدنيا باحثًا عني، ويا للكوميديا السوداء! عندما يعثر على عنواني أخيرًا بعد سنوات من البحث المُضني يلفظ أنفاسه الأخيرة فوق فراشي.

وإن كان فيلمًا كوريًّا، فستكون تلك نسختي من كَونٍ موازٍ، أو أنا في حياة سابقة، خضتُ حروبًا في الماضي السحيق، ولربما كنت ملكًا عظيمًا غدر به أقرب أفراد حاشيته، وسلَّمه إلى ألدّ أعدائه، ثم جابت روحي العوالم والمجرات حتى استقرت أخيرًا بعد سنوات طوال في جسد ممصوص أشيَب الشعر، ولسبب ما لم تَمُت نسختي القديمة، وبُعِثت إلى الحياة مرة أخرى، سافرَتْ إلى عالمي من أجل لقائي، ولخلل ما في تقنية العبور بين العالمين فقدتْ نسختي أنفاسها الأخيرة فوق فراشي.

وإن كان فيلمًا أمريكيًّا فتكون تلك «أنا» من المستقبل، أتيتُ عبر ثقب أسود لأحذر نفسي من مصيبة ما أنوي فعلها في الوقت الحاضر، ستؤثر على العالم وتدخل به إلى حقب مظلمة -لا أدري ما هو الأشد ظلامًا مما نعيشه اليوم؟!- وبسبب مُعضلة الأب والابن المتعلقة بالسفر عبر الزمن؛ تفشل الرحلة، وألفظ أنا -في المستقبل- أنفاسي الأخيرة.

وإن كان فيلمًا هنديًّا فستُحَل الألغاز، وتُفَك العُقدة إن أدّيتُ رقصة عنيفة استعراضية لا تقل مدتها عن خمس عشرة دقيقة حول الجثة؛ لكانت الرقصة أيسر الحلول لتبديد الغموض الذي يلفّني، لولا أنني سأعجز عن تأدية رقصة تتطلَّب طاقة «فرقع لوز» وليونة الرخويَّات؛ لأسباب تتعلق بانتهاء صلاحية مفاصلي نتيجة لسوء الاستخدام. ما تفعله بجسدك في العشرين والثلاثين لا ينساه لكَ أبدًا؛ يبيّت النية كي ينتقم منكَ في الستين، إنها العدالة الشعرية في أبهى صورها.

لكن هذا ليس فيلمًا ولا رواية، إنها حياتي أنا، حياتي الواقعية، ويجب أن يكون ثمة تفسير منطقي لوجود هذه الجثة التي تشبهني في فراشي. حتى الجُرح الصغير الذي أحدثته في سبَّابة يدي اليُمنى في أثناء عمل الكيكة المحترقة قبل أن أنام، رأيته في إصبع يد الرجل! الأمر المُحيِّر حقًّا أين ملابسه، أم أنه سار طوال الطريق إلى بيتي بلا ثياب تستره؟!

***

جو الغرفة الخانق يجثم على صدري، أدنو من بابها، بأنامل مرتعشة أفتح ستة الأقفال ببذل مجهود ذهني فائق كي أتذكر أرقامها السرية؛ إذ إن لكل قفل رقمًا سرِّيًّا خاصًّا به. ينفتح الباب الثقيل ويُصدر صريرًا لا يُزعجني، إنه صوت «الأمان» كما أحب أن أدعوه. أخرج من الغرفة، وأغلقها خلفي بستة أقفال من الجهة المقابلة -لها أرقام سرية مختلفة- لا أخشى هروب الجثة بالطبع، إنما أحتاج ذهنًا صافيًا للتفكير، ووجود أحد في مرمى بصري يُفقدني التركيز ويقودني صوب دروب الغضب، وما هذه الأقفال سوى تأكيد حِسِّي وماديّ أنني وحدي في الصالة. أُمسكُ ببخاخ المُطهِّر الكحولي، أرش منه على يدي وملابسي، أغسل وجهي في الحمام بالصابون خمس مرات، ثم أرش المُطهِّر مرة أخرى على يدي

وعلى باب غرفة النوم ومقبضه. هذا العالم مُلوَّث بالخوف إلى حد لا يُصدَّق، وأن يصل هذا التلوث إلى عقر داري هو ما يصيبني بالجنون.

***

هل أتصلُ بـ «عصفور» فيأتي لنجدتي؟ صبي التوصيل الأسمر الذي يأتيني باحتياجات الأسبوع صباح كل جمعة، ليس ذلك فحسب، بل يأتيني بالجرائد والكتب التي أطلبها منه، ويحتاج العثور على بعضها إلى الجهد نفسه الذي احتاجه «كارتر» لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. الشاب الذي يدنو من العشرين لم يتذمر لحظة من طلباتي العجيبة أحيانًا، ولا عندما هاتفته في إحدى المرّات كي يحضر لي «كارِع وفِشة ولحمة رأس» فجرًا؛ إذ اشتهيتها. يعمل «عصفور» منذ أن عرفته كنبضَة عصبية تصلني بالشارع، لكن لا أظن أن أخلاقه السمحة قد تصل إلى درجة أن يقبل أن يتخلص من جثة لأجلي.

أعلم أنه في الأساس لا ينفذ طلباتي من أجل سواد عيني، ولا من أجل الجنيهات الهزيلة التي أدسها في كفّه مع كل طلب، فيردها باستحياء كاذب، فأصرُّ بكرم حاتمي أن يأخذها. إن هذا الشاب المنحوس يضع عينه على ابنة جارتي الحيزبون التي تشبه رئة يُمنى متضخمة، يتلصص عليها من نوافذ بيتي، مما يدلني على أن الشاب أغبى خلق الله؛ لم يجد فتاة في الحي ولا في المجرة كلها إلا ابنة تلك المرأة التي لو عرفَتْ مشاعره تجاه ابنتها لبركَتْ فوقه كما يبرك البعير، فضلًا عن أن للفتاة شارب صرصور -كأمها- ولسان حرباء، وجسدًا تعطَّل فيه عمل غُدَّته الدرقية، ونقصًا واضحًا في هرمون الأستروجين يتبدَّى في صوتها الذكوري.

أدنو من نافذة الصالة -للبيت ست نوافذ- أزيح برفق الستارة الرمادية الثقيلة، ثم أفتح أقفال النافذة -لستُ بحاجة لأذكر أن لكل قفل

رقمًا سريًّا مختلفًا، لذلك عادة ما يتطلب فتح باب أو نافذة نحو عشر دقائق إلى نصف ساعة، وفي إحدى المرات تطلَّب تذكُّر الأرقام السرّية لفتح أقفال باب الحمام ثلاثة أيام-

أفتح لنفسي فُرجة صغيرة تُمكنني من رؤية الشارع تحت ستار الليل، غابات الأسمنتْ متراصة بجوار بعضها البعض في بشاعة مُنقطعة النظير، يوشك الرجل أن يمد يده من شرفة بيته ويلتقط تُفاحة من ثلاجة جاره، وتوشك المرأة أن تنتف شعر جارتها التي تغار من حُسنها ورشاقتها. لم تعد عيوننا تنهل من قِربة الطبيعة، فتحولتْ دواخلنا إلى قوالب أسمنتية كمساكننا.

ما أغرب ذلك! الشارع فارغ عن بكرة أبيه، كأنه أمعاء مُعدَّة للحشو! أين الرجال الذين يبصقون في الطرقات، والشباب الذين يتسكعون على الناصية يتبادلون النكات البذيئة؛ تعلو على إثرها ضحكاتهم كـ «شكمان» تالف؟ أين الفتى الذي يشبه العِجل «آبيس» تارة، وتارة يبدو كرئة يُسرى ضامرة، الذي يقف في مكانه المعتاد على الناصية يمنح لفائف المُخدَّرات سرًّا للأشقياء، وحبوب زيادة الانتباه ورفع مستوى الذكاء -التي يدعوها حبة آينشتاين- علنًا لطلبة الثانوية العامة والجامعات؟

وكما كان «آبيس» يُتوَّج كعجل مقدس في الحظيرة المقدسة وسط بقراته عند قدماء المصريين، يحتفي مِصْرِيُو ما بعد الحداثة بالفتى لمساعدته بقراتهم -أقصد أبناءهم- على قتل النوم، واستجلاب التركيز في حظيرة الامتحانات، بمنشطات للجهاز العصبي المركزي، موصوفة في الأساس لمرضى نقص الانتباه وفرط الحركة (ADHD)، اشتهرتْ بين الطُلاب، وتجاوز سعر الحبة الواحدة عشرة دولارات. فيذهبون إلى الامتحان بذهن مُتَّقد، يُفرغون فوق الأوراق ما اختزنوه على مدار أشهر،

تمامًا كما تجترُّ الأبقار الطعام غير الممضوغ من معدتها. ثم يُربت الأب السعيد على رأس ابنه الناجح قائلًا في هناء: بقرة مطيعة. غير مدرك أنه تسبب لابنه البئيس في إدمان نفسي وجسدي على منشطات لن يجد في نفسه القدرة على الإنجاز وأداء المهام دونها، وغير مدرك كذلك أن الأم البئيسة لابنه البئيس كانت تشارك ابنها في تعاطي المنشطات القادرة على سد الشهيّة والتخلص من السِمنة والتي بعدما أدرك العجل «آبيس» ذلك صبغ بعضها باللون الوردي وأسماها حبَّة «مارلين مونرو».

فلا يدرك الأب كل ذلك إلا عندما تغوص قدماه في قيعان البؤس؛ حيث تُصاب زوجته الرشيقة بسرطان الكبد، وابنه المتفوق بحب شباب، وطفح جلدي، وضمور العضلات، وعجز عن الإنجاب، وأرق، وميول انتحارية، وتقلبات مزاجية عنيفة.

أمسح الشارع مرة أخرى براداراتي البصرية متسائلًا: أين الأطفال الأشقياء مُبلَّلو السراويل الذين يقذفون بيتي بالحجارة بإيعاز من جارتي الحيزبون؟ أين الفتيات اللاتي يضعن قدمًا في درب الطفولة وأخرى في حواري الأنوثة، فلا يكاد الرائي يُفرِّق من الملبَس الكاشف والمساحيق المُلطِّخة بين الطفلة والبالغة؟ أين القطط والكلاب والفئران والحشرات الطائرة والزاحفة؟

أمسح الشارع بأنظاري مرة أخرى، فكأنه بِكر لم يطأه بَشر، أعيد غلق أقفال النافذة وإسدال الستارة الرمادية الداكنة، أدخل المطبخ الذي صُمم على الطراز الأمريكي، لم أفهم قط كيف لإنسان بالغ عاقل أن يضم المطبخ إلى الصالة، فتتكشَّف كل محتويات مطبخه لضيوفه؟!

نعم، أنا لدي واحدٌ! لكنني اضطررتُ لذلك، لا أتذكر السبب تحديدًا، يبدو أنني أردتُ تخصيص غرفة رابعة لمُعدّاتي الجراحية؛ لأحصل في بيتي على أربع غرف بدلًا من ثلاث، ثم إنني وحيد، لا أحد يزورني،

باستثناء «عصفور» الذي يصعب اعتباره ضيفًا؛ إذ إنه يمنحني طلبات الأسبوع، ويختلس عدة نظرات من نافذة غرفة نومي التي تطل على غرفة نوم فتاته التي تتمتع برشاقة أسد البحر، وبأنوثة مطرقة، ثم ينصرف.

أتوجه إلى المطبخ، أصنع فنجانًا مضاعفًا من القهوة، أحتاج إلى شحْذ عقلي لأكون في قمة التركيز، والكافيين سيتكفَّل بنصف المهمة، وسيقع نصفها الآخر على مقعدي الخاص الذي يقع في زاوية الصالة، والذي أُسمِّيه: كرسي العرش؛ فريد من نوعه، ليس له مثيل في التاريخ، كلما اعتليته شعرتُ بنفسي ملكًا متوجًا يحبه شعبه ويباركه ربه. فوقه سأريح جسدي وأصغي إلى أفكاري فتخبرني عما يجب أن أفعله. لا لستُ بارد الأعصاب، لكن الخوف الأسود الذي يلف ويدور في الصالة الآن، ثم يقفز ليتمسك بمصباح السقف، مُرسلًا على الجدران وفي الأركان خيالات تثير أعصابي لن ينقذني من هذا المأزق، لم يسبق للخوف أن أنجدَ أحدًا كي أتكئ عليه الآن بعِزم يأسي.

رائحة القهوة تتسرب إلى خلايا تفكيري فتوقظها من سباتها العميق، أوجِّه وجهي شطر السقف، أتخذ من بقعة بشعة باهتة اللون قِبلة لي، بقعة نتجت عن رشح مائي، يحلو لي أحيانًا تأمل قبحها، كأنها بلّورة ساحر أرى فيها الحياة كلها، الحياة القبيحة التي تدور خارج جدران بيتي.

يستحيل أن أستدعي أحدًا من الخارج لمساعدتي، الخارج لا يحوي إلا الشر، كل الشر. قَتَلَة وفَجَرَة ولصوص ونصابون وأدعياء ومغتصبو الحقوق وسارقو المال والروح والشرف، في الخارج حوادث وحروب وصراعات وأنقاض وزلازل وأعاصير وبراكين وفيضانات، في الخارج حيوانات مفترسة وفيروسات شرسة وأمراض متوحشة تفتك بالعقل

والروح والبدن، في الخارج ردم وهدم وخنق وشنق وحرق ومرض وموت، في الخارج الشر، كل الشر.

في هذا الزمان لا يخرج من بيته إلا مجنون اختار الانتحار، أو مَنتحِر تلبَّسه الجنون، وأنا لستُ بمُنتحر أو مجنون، أنا طبيب مخ وأعصاب عجوز لا يريد من الحياة سوى أن تتركه يموت في سلام، ميتة طبيعية لا دراما فيها ولا أحداث تستحق أن تحتل عناوين الصُّحُف وتريندات الفيسبوك! لا حديث لـ «عصفور» هذه الأيام سوى عن جديد هذا الاختراع المُسمَّى بالفيسبوك. والآن أصبح لدي سؤالان بدلًا من واحد: كيف أتخلص من الجثة؟ وأين ذهب الجميع؟

***

4

تيك تاك.. تيك تاك..

هل البقعة البشعة أعلى السقف تتسع أم يُخيَّل إليّ ذلك؟ أحيانًا أراها «باروصورًا»[1] ضخمًا يجلس مُتربعًا في منتصف السقف، وأحايين أُخَر أراها طلاء انسكب فوق السقف في لحظة انعدمتْ فيها الجاذبية، ونادرًا ما أراها امرأة لها فستان مزركش من الريش الباهت، لها وقفة الطاووس منتفخة الصدر. في كل الأحوال وعلى كافة الصور والأشكال فإن البقعة اللعينة تفسد نسق الطلاء الرمادي للسقف، ولا شيء أبغضه أكثر من الشذوذ الذي يُفسد القاعدة.

***

دعني أخبركَ أنني أنوي قتل المُستأجِر في الطابق العلوي يومًا ما، المُستأجِر الذي لم أرَه قط، وكأنني ورثته مع البيت من أبويَّ -أعادهما الله من سفرتهما سالمَين- كم وددتُ لو طردته لأشعر أن هذا البيت ذا الطابقَين ملكي وحدي بشكل كامل، إلا إنه لم يفعل ما يستدعي الطرد قط، لا أراه من الأساس كي تحدث مشكلة -على الرغم من رغبتي الخبيثة في افتعال مشكلة- أطرق السقف بعصا المقشة ليلًا، وأغلق الأبواب

(1) الباروصور نوع من الديناصورات الآكلة للنباتات، عاش في أواخر العصر الجوراسي، وتميَّز برقبته الطويلة.

بعنف فجرًا، لكن الوغد لم يمنحني فرصة الشجار معه. هل تصدق أنه لم يدفع لي الإيجار قط؟!

نعم، أنت محقٌ، فهذا سببٌ كافٍ للطرد، لكن المشكلة أنني لا أملك عقد ملكية البيت؛ أي إنني لا أستطيع إثبات أنني المالك، وأنه المستأجِر الذي يتقاعس عن دفع إيجاره، فإذا ما نقلت المشكلة للمحكمة، ولا أدري أصلًا كيف سأفعل ذلك دون الخروج من منزلي؟! لعلهم يسمحون لي باستخدام البث المباشر في هذا الشيء المسمى باليوتيوب والذي لا يتوقف «عصفور» عن الحديث عنه، لكن إن حدثت معجزة، ووقفنا أمام القاضي كتفًا بكتف، فبإمكانه بكل أريحية أن يدّعي أنه المالك وأنني المستأجِر الذي يتقاعس عن دفع إيجاره، دون أن يكون ثمة إثبات مَن منا الصادق ومن الكاذب!

ذات مرة وبدافع الفضول سألتُ «عصفور» عن هذا المستأجر؛ إذ إن بقالة «عصفور» هي البقالة الوحيدة في الشارع، فلا بد أنه يشتري حاجياته من عنده فـ «عصفور» هو نبضتي العصبية التي توصِّل لي سَيّال الحياة التي تدور من حولي، رغم ذلك بدَت البلاهة على وجهه وقال حينها: لا أعرف أن هناك ساكنًا في الطابق العلوي، ظننتُ البيت كتلة واحدة لا تتجزأ.

مما يزيد الشبهات حول الساكن العجيب بشكل رهيب، لماذا لم أصعد له؟ سؤال سخيف! وإجابته واضحة، لأن السلم الذي يُفضي إلى الطابق العلوي سُلّم خارجي، مثل سُلم الخدم في القصور القديمة، يجب عليّ أن أخرج من البيت أولًا، ألتفُّ حوله، ثم أصعد إلى الطابق الثاني، وهذا ما لن يحدث أبدًا؛ لن أخرج من بيتي ولو وقعت قنبلة ذرية بداخله، لن أخطو صوب عتبته ولو انطبقت المجرات على بعضها وصارت عجينة

ليِّنة، ثم تحوَّل الكون إلى قرص «طعمية» كبير مقلي في حرارة الشمس، لن أخرج من بيتي وإن كان في خروجي إنقاذ العالم، فليحترق العالم.

***

هل سبق وأن قبَّلتَ جثة؟ مر بخاطري أن من المؤسف لهذه الجثة أنها لم تتلقَّ قبلة وداع أخيرة من شخص يحبها وتحبه. أنا لم أقبِّل جثة من قبل، لكنني قبَّلتُ مسافرًا لمسافة طويلة مرتين، وتقبيل جثة لا يفرق -في رأيي- عن تقبيل مسافر، فكلاهما يُمثِّل الطقس الأخير للوداع. قُبلة على جبين أمي حين تجهَّزتْ لسفرٍ طويلٍ لم تعد منه حتى الآن، وقُبلة على جبين أبي حين لحقها في سفرةٍ كانت كذلك ذهابًا بلا عودة، لم يحتمل لوعة الفراق؛ لحق بها حاملًا حقائب تكفي دهرًا.

هل حدثتكَ عن أمي قبلًا؟ لا أتذكر، ها أنا أخبرك عنها الآن. كان لها وجه كالشمس في استدارتها حين تجمع شعرها للخلف، وفي حُمرتها حين تخجل أو تغضب، مكتنزة المشاعر، متناسقة التفكير. يومًا ما حسبَتْ نفسها شمسًا وخرجتْ من النافذة في اتجاه السماء، لكنها لم تسقط، أمسكتُ بقدمي أمي في اللحظة الأخيرة، وحين نظرَتْ في وجهي المرتعب مسحَتْ فوقه بأناملها الحانية، وأخبرتني أنها مجبرة على الرحيل.

النافذة التي خرجتْ منها أمي كانت تعلو مدفأة الصالة، لكنني أغلقتُها بالقرميد، وعلَّقتُ مكانها ساعة جدارية تتسابق فيها العقارب سباقًا لا فائز فيه ولا مُنهزِم، فما عاد أحد يدري أن ثمة نافذة صغيرة كانت تعلو المدفأة، تسع جسد أُمٍّ بحجم الشمس.

تقبيل جثة أو مسافر ليس كقبلة تمنحها لبشري على قيد الحياة؛ لها خصوصية أعظم، تُشعركَ بآدميتكَ، وضعفك، وهزال تفكيرك، تُبصِّركَ بحجمكَ الحقيقي: ذرة غبار كونية. نعم هذا أنتَ، لن يختل ميزان العالم

إن فقدنا منه ذرة غبار، ولن يثقل بوجودها، رغم ذلك بإمكان ذرة الغبار أن تتسبب في إزعاج باقي الذرات، بل وفنائها أحيانًا، كيف لذرة غبار أن تشعر بالغرور والكِبر والعظمة كأنها مالكة الأكوان والمُتصرِّفة في الحيوات؟! هذا ما لا أفهمه أبدًا، أو أفهمه لكنني لا أتقبله؛ ليس كل ما هو قابل للفهم مقبول في الوِجدان.

علم تحديد النسل الذي يهتم باستبعاد الأفراد الأقل كفاءة كثورة علمية للبشرية، عليه أن يكون أكثر واقعية ويجد طريقة لاستبعاد الأوغاد، من يفسد هذا العالم ليس الأقل كفاءة، بل الأكثر وقاحة. كيف يُمكن معرفة الأوغاد من نُطفة؟ لا بد أن عجينة الأطفال تتباين، لا أعرف، أنا لستُ عالمًا في تحديد النسل، كما أخبرتكَ أنا دكتور مخ وأعصاب يتظاهر الآن بأنه يشرب قهوته رابط الجأش، بينما جثة رجل يشبهه ترقد فوق فراشه، لو لم أكن مُنتفخًا بكبرياء ذكوري لبكيتُ أمامك الآن، ولرجوتكَ أن تُخلِّصني من هذه المصيبة.

الخوف ظاهرة صحية في الحقيقة، شيء اكتسبناه أو وُلد معنا، لعلنا ورثناه متراكمًا عبر قرون طويلة من أجدادنا القدماء، من «حواء» حين رأت نفسها تُخلَق من ضلع رجل، ومن «آدم» حين طُرِد من الجنة. لكل منا مخاوفه الخاصة، أنا مثلًا أخاف من الناس، الحيوانات، الحشرات، الجراثيم، الأمراض، الطائرات، كل وسائل المواصلات، المصاعد، الأماكن الضيقة أكثر مما ينبغي، الأماكن الواسعة أكثر مما ينبغي، صوت المكنسة الكهربائية، صوت خطوات تحوم حول بيتي، طارق على بابي تحت ستار الليل، والجثث التي تظهر من العدم وسط الفراش.

لكن هل أخبركَ ما أشد المخاوف وأشرسها؟ إنه الخوف من المجهول؛ يفرض علينا المجتمع ألا نخاف، وينعتون الخائف بالجبان، المجتمع لا يُعادي الفطرة واحترام الميراث الإنساني فحسب، إنه سادي كذلك،

يُمارس ساديته على نفسه، مثل الدود الذي يأكل نفسه حين ينتهي طعامه. المجتمع الذي يُعادي الخوف ويسخر منه، هو «جُحا» في ثياب هرَقل عظيم الروم.

أنا أخاف، لكن ليس لدي ما يكفي من الشجاعة لأعترف أمام الناس أنني أخاف. أخاف الموتى الذين يسيرون على أقدامهم في الشارع، هل أخبرك كيف تُفرق بين الأحياء والأموات؟ انظر في عمق عيونهم في أثناء الصمت أو في ثنايا الحديث، لن ترى سوى عيون زجاجية لا تشف ما خلفها، العين نافذة الروح، لكن أرواحهم الهائمة في أجسادهم البالية قد أغلقت جميع النوافذ من الداخل، فلم يعودوا قادرين على التواصل مع كائن حي -إنسانًا كان أم حيوانًا- أرواح تخلَّتْ عنها كل أيادي الأمل، هؤلاء هم الأموات يا عزيزي، انظر حولكَ، ما أكثرهم، أليس كذلك؟!

أنتَ نفسك انظر إلى المرآة، قد تكون واحدًا منهم وأنتَ لا تدري.

***

ترك.. ترك.. ترك...

صوت المطر يطرق النافذة، كيف ذلك؟ مطر في منتصف أغسطس؟! أتحرك صوب النافذة، أزيح الستارة الرمادية، أفتح الأقفال بعد معالجة أرقامها السرية، إنه مطر بالفعل، أمد يدي من فرجة صغيرة؛ أشعر بقطرات الماء تُقبِّل باطن كفي، أدخل يدي، أنظر إليها عن قُرب، وعلى ضوء مصباح الصالة هزيل الإضاءة أرى داخل يدي لونًا أحمر قرمزيًّا! كل هذه الأحداث كثيرة على رجل ستّيني يمضي إجازته الصيفية في صيد الناموس؛ السماء تُمطر دمًا!

***

لو تُرِكَ الأمر لي لأشعلتُ بداخل المدفأة غابة أشجار، لكن المدفأة مجرد ديكور لا يغني من برد، لا أملك أي وسيلة تدفئة أخرى؛ إذ إنني لم أحسب أمر سقوط الأمطار في منتصف أغسطس! البرد يخترق عظامي وينقر نخاعي الشوكي، أشعر بكهرباء تسري في جسدي كله، كما لو أنني عدتُ للتو من جولة في الثلاجة. أفتح دولاب المطبخ، أحضر مصباح كيروسين، أملؤه بالجاز، ثم أشعل النيران، أمرر يدي المتجمدة فوقه، وأقرب وجهي من اللهيب الأزرق، ها هو الدفء يتسرب إلى جسدي رويدًا رويدًا، فأشعر بآدميتي.

هل قلتُ لكَ إن السماء تمطر دمًا؟ ليس كل ما هو أحمر دمًا؛ فمثلًا حين أصيب العجل «أبيس» الذي يشبه ربة يُسرى ضامرة في شجار محتدم بالأسلحة البيضاء على ناصية الشارع، نزفت عروق وجهه مادة حمراء لزجة، لكن لا أظن أبدًا أنها دماء! ربما خمر مُعتَّق، أو ماء مُختلط بأحد مساحيق الموت التي يبيعها للناس، أو «مربى» طماطم طازجة.

السماء لا تُمطر دمًا، لا تكن ساذجًا، هل تُصدق كل ما يُقال لكَ؟ إنها ظاهرة مناخية تحدث أحيانًا -نادرًا إذا شئنا الدقة- ويؤمن الناس بتعدد أسبابها. حين حدثت في فرنسا فسَّرها القساوسة آنذاك بأن الشياطين اغتصبت السماء، وقتلت الملائكة، وحين حدثت في الهند ظنّوها مُقدمة لزلزال كبير، وحين تكررت في إيطاليا ادّعوا أنها دماء طيور مهاجرة مزقتها الرياح العاتية، أما في لندن فلم يسقط المطر الأحمر وحده؛ بل صاحبته فراشات نافقة، فأسموها بـ «دماء الفراشات»، وكونها تحدث الآن في مصر ليس بعجيب؛ فقد تحول الماء في زمن موسى -عليه السلام- دمًا أحمر اللون كآية من آيات الله لعقاب فرعون.

لا يرتاح عقلي إلا إلى التفسير العلمي والمنطقي: الملوثات الصناعية، ودخان البراكين تصبغ الأمطار في أحيان نادرة بألوان مثل: الأصفر،

والأسود، أو الأحمر الذي هو نتيجة اصطباغ المطر بلون مؤكسد، كما حدث في حرب الخليج حين أمطرت السماء ماءً أسود نتيجة لاحتراق البترول؛ أي: إنه حتمًا ولسبب ما -علمي ومنطقي- تمطر السماء الآن لونًا أحمر، لكن السؤال الحقيقي، لماذا أشعر بالبرد في منتصف أغسطس؟ لو وُجِد السبب العلمي لبطلَ العجب.

حسنًا. فلنترك المطر الأحمر وبرد أغسطس الآن فلدي مصيبة جديدة يجب أن أوجّه إليها خلايا تفكيري: كيف اختفت لوحة الموناليزا من الصالة؟!

***

تيك تاك.. تيك تاك...

بعد قدح آخر من القهوة بغير سكر، وعدد لا بأس به من الحبوب المُهدئة، صار بإمكاني الآن أن أحصي كمَّ التغيرات التي لم أنتبه لها أول مرة: لوحة الموناليزا تبخَّرتْ من فوق الجدار كما أخبرتكَ. الكعكة المحترقة التي تفننتُ في إعدادها قبل نومي لا أثر لها فوق طاولة المطبخ. وسجادتي العجمية باهظة الثمن ليست في مكانها فوق الأرض، بل ملتفة على نفسها في شكل أسطواني، ومُسنَدَة إلى الجدار. ما معنى كل ذلك؟! معناه أن شخصًا ما فتح أقفال الباب من الداخل -بطريقة الله وحده يعلمها- ودخل البيت، وأكل الكعكة المحترقة -والطبق كذلك إذ لم أعثر له على أثر- ثم حلَّى بالموناليزا كأنها قطعة «بُغاشة»، في أثناء ذلك أسقطَ بعض الفتات فوق سجادتي فلفَّها من أجل التنظيف، ثم لفظ أنفاسه فوق فراشي!

لو كان فيلمًا بوليسيًّا، أو رواية غموض لكانت أسوأ فكرة يتفتَّق عنها ذِهن مؤلِّف؛ حبكة غير مُحكمة ملأى بالثغرات، يتسرب منها المنطق من كل اتجاه مثل المصفاة. الآن صار على عاتقي إيجاد إجابات للأسئلة

الآتية: كيف أتخلص من الجثة؟ أين ذهب الجميع؟ ومن الذي سرق الموناليزا ولفَّ السجادة وأكل الكعكة المحترقة؟

وهنا قفز شعر رأسي هولًا، هذا يعني أنه لربما لستُ وحدي في البيت!

لا أقصد الجثة بالطبع، أقصد أن شخصًا ما حي يُرزق يتنفس معي الهواء ذاته، يُراقبني من مخبأ ما في الصالة، ربما من خلف تلك الستارة الرمادية الداكنة التي تتظاهر بالبراءة، أو من وراء دولاب التحف الكريستالية، التي جمَّعتها بعناية فائقة على مدار سنوات.

قفز الخوف أمام وجهي، يشبه ظلًّا أسود لإنسان، لكن أطرافه قد تكاثرت حتى أضحى أقرب إلى أخطبوط، وقف في منتصف الصالة وأدَّى رقصة الخوف فوق السجادة العجمية التي أعدتُ فرشها مرة أخرى. ارتعدتْ فرائصي وتجمدتْ أطرافي؛ حدث ما كنتُ أخشاه طيلة عمري، صرتُ أنا والخوف من المجهول وجهًا لوجه، أنا على ثقة أن أحدنا لن يطلع عليه النهار حيًّا؛ على أحدنا أن يفقد حياته كي يعيش الآخر.

إما أن أقطع أطراف الخوف، أو يبتر هو أطرافي.

***

تيك تاك.. تيك تاك...

ما بال جهاز منظم ضربات القلب الاصطناعي؟! صار له صوت مسموع، إنها المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك منذ أن زرعته تحت جلد صدري قبل سنوات، عملية استغرقت ساعات بتخدير موضعي، كنت فيها مُستيقظًا مراقبًا لما يفعله الطبيب كي لا يخطئ؛ لا أثق في الأطباء ولا الممرضات ولا المستشفيات، ولولا «عصفور» ونوبة الهستيريا التي أصابته عندما جاءني في موعده الأسبوعي، ورآني أفقد وعيي تحت قدميه ما إن تحاملتُ على الألم كي أفتح له الباب، لولاه لما حُمِلتُ إلى

المستشفى، ولما اكتشفتُ أن لدي خللًا في القلب يستدعي تركيب منظم صناعي ثنائي -في الواقع كنتُ قد خمَّنتُ ذلك بسبب نوبات الإغماء المتكررة، وبطء نبضات القلب، وضيق النفس، وآلام الصدر- لكنني لم أجرؤ على الخروج من بيتي.

وإن كنتَ لم ترَ منظم ضربات قلب من قبل؛ دعني أخبرك أنه في حجم بيضة كبيرة، له أسلاك وبطارية، تستطيع رؤية بروزها بوضوح أسفل الجلد في صدري إلى جهة اليمين. هذا ما تحتاج إلى معرفته كي تصلك الصورة، لا داعي لشرح أكثر؛ فلستَ طبيبًا على أي حال، ولا يعنيكَ الشرح الدقيق، يكفي أن أخبركَ أنني دونه ستنطفئ الحياة في عيني، ما أجمل ذلك!

جلستُ فوق كرسي العرش، مسحتُ بأناملي فوق مسنده العَظميّ بأعصاب مُتحفزة -نعم الكرسي مُكوَّن من العظام وليس الخشب- مُفسِحًا دون رغبة مكانًا للخوف ليتمدد بجواري، ومانحًا -دون رغبة كذلك- منظم ضربات القلب الفرصة كي يقوم بعمله لإبقائي على قيد الحياة. عيناي تمسحان المكان من حولي دون أن أجرؤ على التفكير في فحص البيت للبحث عن مُتسلل يختبئ بداخله، أغمض عيني، لعل ملك الموت يزورني الآن وتنتهي تلك الليلة العصيبة بأكثر نهاية مُرضية، وفي تلك اللحظة حدث ما لا يحدث أبدًا في غير صباحات الجُمَع، سمعتُ طرقات على الباب!

لماذا لا يترك هذا العالم العجائزَ يموتون في سلام؟!

***

5

ليس «عصفور» بالتأكيد، لا يجرؤ على الاقتراب من بيتي قبل صباح الجمعة، يعلم أنه لو فعل لأفرغتُ محتويات «الصامدة حتى النهاية» في منتصف جبهته السمراء المزروعة بحقول حب الشباب المُنفِّرة. من يكون الطارق إذًا؟ تجاهلتُ الصوت، ما أكثر الأصوات التي يجب تجاهلها في هذا العالم! الناس نفسهم تحولوا إلى ظاهرة صوتية مثل العطس والسعال، فما يكاد أحدهم يتكلم حتى تشعر برغبة جامحة في مُقاطعته بقول: «يرحمكم الله». أموات تسير على قدمين، ولا تتوقف عن الكلام، ربما لأن الكلام هو الشيء الوحيد الذي ظلَّ مجانيًّا على مدار التاريخ؛ لو كنتُ رئيس دولة لفرضتُ على الكلمات ضريبة باهظة، ولحسبَ كل مواطن كلماته وراجعها وفحصها قبل أن ينطق بها، الجميع يتكلم، وقليل من يفعل، وأقل القليل من يؤمن بما يفعل.

طق طق طق..

ثلاث طرقات من جديد، أحب أن أتصور أن قطرات المطر حمراء اللون تجمعتْ ونبتتْ لها يد قادرة على طرق بابي، لكنه تفكير سخيف كما ترى، هناك شخص يقف خلف الباب يطرقه -ويا لوقاحته- ينتظر مني أن أفتح له. دنوتُ من الباب، تبعني الخوف، تعلَّق بذراعي، فشعرتُ بملمسه اللزج فوق بشرتي، أصابني ذلك باشمئزاز رهيب، لكنني لم أجد

في نفسي القدرة على دفعه، نظرنا معًا من العين السحرية، لا شيء يتبدَّى سوى الظلام. هل هي مزحة سخيفة من أحد أطفال الحي؟ لا أظن، فمنذ أن وضعتُ أفاعي صغيرة منزوعة السم -لا أحد يعلم أنها منزوعة السم- في الحديقة حول منزلي توقف الأطفال عن إزعاجي، لا خوفًا من الأفاعي، بل من أمهاتهم اللاتي يتحولْن إلى قادة نازيين يُنزلون بهم أشد أنواع العقاب والتنكيل، إذا اقتربوا من حديقة «العجوز المجنون» كما يحلو لهن أن يدعونني. رؤية شخص في هذه اللحظة أمر مبشر بالخير، إذ إنني سأعلم منه على الأقل إجابة سؤال: «أين اختفى الجميع؟».

عليَّ أولًا أن أحضر «الصامدة حتى النهاية» من مخبئها السرّي، لم أتوجه إلى الجدار حيث اختفت الموناليزا، بل إلى كرسي العرش، زحفتُ على بطني، وأخرجتُ البندقة من تحته، هل ظننتَ حقًّا أنني سأخبركَ بالمخبأ الحقيقي للبندقية؟ يا لك من ساذج! أثبتُّ فوق فمي وأنفي قناعًا جراحيًّا يُنقِّي الهواء الداخل إلى رئتيَّ، لا أحد يعلم أي أمراض قد يحمل هذا الطارق الوقح؟ حملتُ البندقية كأي عجوز عتيق لا يفقه شيئًا في فنون حمل الأسلحة، ثم توجهتُ إلى الباب بقلب وَجِل، مهمة إزاحة ستة عشر قفلًا كانت بطيئة؛ إذ إنني مع كل قفل أتلكأ علَّ الطارق يغادر ولا يضطرني إلى فتح الباب. هذا اللعين عنيد؛ مع كل قفل أفتحه، ومع كل تلكُّؤٍ أقترفه تزداد نقراته كمًّا وكيفًا.

لماذا لم يتمكن العلماء حتى الآن من اختراع آلة تحسب كل الاحتمالات الممكنة، وأيها أكثر وأقل قابلية للحدوث عندما يُقدِم المرء على فِعل شيء ما، في زمان ومكان وهيئة معينة؟ بهذه الطريقة سأتجنب الكثير من المشكلات، يبدو لي أن فتح الباب في هذه اللحظة ليس خطيرًا جدًّا، فـ «الصامدة حتى النهاية» حاضرة، ويُمكنني استخدامها في أي

لحظة، لكن لو كان لدي آلة الاحتمالات هذه لربما أخافتني ما تنتجه من احتمالات ولجعلتني أعدِل عن فتح الباب.

وأخيرًا بات بإمكاني فتح الباب، صنعتُ فُرجة صغيرة جدًّا تكفي لدخول سحلية بالكاد، نظرت يُمنة ويُسرة والخوف يقتحمني ويختبئ بداخلي، لا أحد! من الذي يجرؤ على الاقتراب من بيتي، وإزعاجي بطرق الباب، ثم الانصراف؟ مزحة ثقيلة من شخص لا يخشى الأفاعي، ولا الأساطير التي تحوم حول البيت عن الطبيب الذي اعتاد أن يأكل قلوب مرضاه وأكبادهم على الإفطار كل صباح، فحبسته الدولة في بيته، وطوقته بحزام من أشعة غير مرئية حارقة مخافة قدراته الجبارة؛ إذ إنه يستطيع ثني الحديد، ونقر الخشب، وتفتيت العظام بلمسة واحدة من يده، العجوز المجنون الذي يتسلى بصيد الأطفال الذين يحومون حول بيته في الأمسية الباردة، وإعدادهم كوليمة لعشاء أسبوعي على مأدبة فخمة تليق بالملوك والأمراء، لذلك أحرصُ أيام الجمع أن تتصاعد رائحة شواء من مطبخي. بالطبع كل هذه الأساطير حِكتها مع «عصفور» في لحظة صفاء، وتبرَّع هو بنفثها في آذان سكان الحي على طريقة «هل أخبرك سرًّا وأكشف لك المستور عن حقيقة الطبيب الذي يعيش في هذا البيت ذي الطابقين؟» فيعلم القاصي والداني عن السر والمستور.

ما إن أغلقتُ أقفال الباب الستة عشر حتى سمعتُ الطرقات من جديد! استشطتُ غضبًا، وسمعتُ «تيك تاك» الخاصة بجهاز تنظيم القلب كأنها تتبرع بسب الطارق عني. عالجتُ الأقفال هذه المرة بسرعة وغضب، ثم فتحتُ الباب بحركة سريعة بيدٍ وبالأخرى رفعتُ «الصامدة حتى النهاية» ووجهتها مباشرة بين عيني الطارق.

- ماذا تفعل؟!

هل هذا صوت نسائي أم يُخيَّل إليّ ذلك؟ مِن تلك الأصوات التي تشعر أن صاحبتها لا تتكلم، بل تُغني موّالًا لا أول له ولا آخر. أنزلتُ فوهة البندقية بضعة سنتيمترات كي أتمكن من رؤية وجهها، إنها فتاة بالفعل، عشرينية، خمرية، شعرها بُني، مُتموِّج ثائر حول وجهها المستدير، وحدقتاها حبَّتا قهوة محمصة غير مطحونة، يحتضنهما جفنان واسعان، مُحددان برموش خفيفة داكنة.

- أعتذرُ عن إزعاجكَ.

أتعتذر حقًا؟ ظننتُ أن هذا الخُلق الإنساني قد اندثر، حتى إنني كتبتُ ذات مرة رسالة إلى وزير السياحة، سلَّمها «عصفور» إلى مكتب البريد، اقترحتُ عليه فيها أن يبني متحفًا للأخلاق بوسط البلد، فيضع نصبًا تذكاريًّا للاعتذار واللين والصدق والأدب والكرامة، لكن لنترك رسالتي لوزير السياحة ولنعُد لتلك التحفة التي تقف أمام بابي، أنزلتُ فوهة البندقية أكثر، فتبدَّتْ نحافتها وقصر قامتها، تفرك كفَّيها ببعضهما في توتر، تسترق النظر خلفها كأنها تفر من شيء، أو تفر إلى شيء، تلتفت صوبي، وترشق عينيها المتسعتين في وجهي وتقول:

- هل بإمكاني الدخول؟

فسَدَ السحر فجأة، حتى وإن كانت الفتاة الواقفة أمامي هي الأميرة الفرعونية الهاربة «سكوتا» وقد انبعثتْ من قبرها وعادت إلى أرضها، لن أسمح لها بدخول بيتي، بل لن أدعها تخطو خطوة واحدة فوق عتبتي المقدسة؛ هذا بيتي، كياني، حياتي، أنفاسي، إنها المساحة الوحيدة التي تمتلئ بنفسي، نفسي فقط، ولن ألوِّث ذلك مهما كان الثمن. بدا صوتها مُبللًا، هل تعرف تلك الأصوات المغموسة بسوائل الروح، فكأنما تُرشِّح مشاعرها مع كل حرف؟! كان صوتها إحداها.

أتنحنح، وبصوت حاولتُ ألا يتسم بالغلظة -كان قاسيًا رغم جهودي-:

- انصرفي من هنا.

طرفتْ برموشها مرتين ببطء، وعلا وجهها الحزن، لا أفهم سببًا يستدعي كل هذا الأسى إلى عينيها، لو كنتُ في فورة شبابي لقلتُ إنها معجبة سرية تتلصص عليّ بطريقة أكثر ذكاء مما تفعل جارتي الحيزبون التي تشبه رئة يُمنى متضخمة، لكن لا يَخفى على الرائي وهو يرمقنا من بعيد أو قريب أننا ونحن واقفان معًا الآن نبدو -في أحسن الصور- كعود قصب ممصوص أمام جبل من السُكَّر الخالص، سُكَّر نقي لم تُفسده شوائب الأيام. هذه الفتاة كأنها، كأنها ولدَتْ للتو، أو ماتت للتو؛ لا يبدو عليها ما يلتصق بوجوهنا جميعًا من بؤس بشري، ذاك البؤس الذي تراه في وجه أرملة تستجدي الناس العمل من أجل إطعام أطفالها اليتامى، وفي وجه مريض يقف في طابور طويل أمام مصلحة حكومية دعسته البيروقراطية مجيئًا وذهابًا، وفي وجه طالبة بصق أستاذها الجامعي عقده النفسية في وجهها وأمرها بأن تلعق بصقته، وفي وجه طفل مُعلَّق من رقبته في ساقية المنظومة التعليمية حتى أوشك أن يَخرج قرنان من رأسه. وجهها لم يحمل هذا البؤس؛ كان رائقًا منه بشكل أثار غيظي. طرفتْ بعينيها ببطء، ثم قالت بصوت مُهترئ، متشبث بأهداب أمل هزيل، بينما تسترق النظر إلى خلف كتفها بتوتر ملحوظ:

- أرجوك، شيء ما يحدث بالخارج، أنا خائفة جدًّا.

اعتراف الآخرين لكَ بأنهم «خائفون جدًّا» هو اعتراف حميمي جدًّا، أكثر حميمية من اعترافات الحب، وأكثر مأساوية من اعترافات الخيانة، وأكثر خطورة من اعترافات المحكوم عليهم بالإعدام. سرَتْ في أوصالي قشعريرة خفيفة؛ كان اعترافها بـ «خائفة جدًا» مُخيفًا جدًّا! تأملتُ تفاصيل الشارع الساكن على غير عادة، معها حق في أن شيئًا مريبًا

يحدث، حافظتُ على مسافة بيننا لا تسمح بانتقال أي عدوى مَرَضِيّة، قلتُ مُتظاهرًا بعدم الفهم:

- ماذا تقصدين؟

أشارتْ لما حولها بأصابع طويلة نحيلة، وقالت بتوتر وهي تميل صوبي فيدخل وجهها في حيِّز مصباح الإنارة:

- ألا ترى أن الشوارع فارغة تمامًا؟ هذا ليس طبيعيًّا أبدًا.

أنتبهُ إلى تفصيل دقيق يخص عينيها؛ إحداهما لم تكن طبيعية على الإطلاق! لها عين زجاجية ميتة مبتورة الحياة، لا ترى بها شيئًا، مجرد ديكور خارجي يُخفي بشاعة تجويف العين في جمجمتها الجميلة، كانت الفتاة تبدو خالية من صفعات الزمن أكثر مما ينبغي؛ الآن صارت بشرية مثلنا جميعًا. ازددتُ نفورًا منها، لا أحب كل ما هو اصطناعي، وهذه الفتاة تحتفظ في جسدها بختم الحياة المادية الحديثة بكل وقاحتها.

قلتُ بريبة:

- ألم تصادفي أحدًا في الطريق إلى الحي؟

هتفت بانفعال من أثر التوتر:

- لم أصادف أحدًا طوال الطريق إلى هنا، لا في ميدان ولا شارع ولا حارة، لم أصادف إنسانًا ولا حتى حيوانًا واحدًا، هذا مخيف، أليس كذلك؟

ثم قالت بصوت كالفحيح كلمات هزَّت أركاني:

- كأننا البشريان الوحيدان الباقيان في هذا العالم!

والله لا أعترض أبدًا أن يخلو العالم إلا مني ومنها، شرط أن ترضى بأن تمضي حياتها على عتبة بيتي، إذ إنني لن أسمح لها بالدخول، عينها

الزجاجية تُنفرني بشدة، إنها النموذج الحي للزائر الذي لا يجب عليّ أن أدخله بيتي.

- اسمعي يا طفلتي، لا يهمني ما يحدث لهذا العالم الذي يُشترَى فيه السلام بالقيود والعبودية، نهاية كتلك كنتُ أنتظرها، كان لا بد لهذا العالم من أن يُفني نفسه بنفسه، نحن حفنة من الدود تعيش في جسد واحد، دود بشهيّة شرهة، سيأكل الجسد، ثم يلتفت ليأكل بعضه بعضًا، وقد كنا نشتَمّ رائحة العفونة منذ زمن طويل، ونغطّيها بروائح حضارية مزيفة بدأت منذ الثورة الصناعية، لكن ها هي النهاية الحتمية قد جاءت أخيرًا.

بدت البلاهة على وجهها، بلاهة فتاةٍ شابّة جدًا، هشّة جدًا، رأسها الجميل يمتلئ بالأحلام الورديّة جدًّا عن الناس والحياة، أكره بلاهة الشباب، ونقص كُريّات الدم الحمراء لاستيعابهم حينما يمحو عجوز مثلي أُمِّيَّتهم بأبجديات الحياة. كتَّفتْ ذراعيها، تفركهما لتحمي نفسها من برد أغسطس، ترمقني برجاء صامت، يبدو أنها تحمل بعضًا من الحياء الذي منعها من تكرار الطلب، فانتهزتُ الفرصة، وأمسكتُ بالباب وأنا أقول بصفاقة:

- إذا كنا البشريين الوحيدين الباقيين في هذا العالم، فعلى كل منا أن يتعلم النجاة وحده.

أغلقتُ باب النجاة أمامها بستة عشر قفلًا، عدتُ إلى كرسي العرش، أخفي تحته البندقية -عليَّ تغيير المخبأ في أقرب وقت- ثم أجلس فوقه، أغمض عيني، وعلى شفتي ابتسامة رائقة. هه! لقد اختفى الناس، تمامًا كما كنتُ أحلم طوال حياتي، لا توجد أمسية أجمل من هذه، إنها أعظم ليلة في حياتك يا «لوط».

***

قد يكون فناء العالم سببه أي شيء؛ غاز سامٌّ صنَّعته إحدى المنظمات التي تؤمن بأن الإنسانية المُحتضِرة لا تستحق قُبلة حياة أخيرة، سمَّمَ الغازُ الجميعَ إلا أنا والفتاة لسبب ما يتعلق بجيناتنا الوراثية، أو قد يكون بسبب سلاح بيولوجي تسرب إلينا في شكل هرمونات تم حقنها في أفخاذ الدجاج المحمَّرة، الجميع يأكل أفخاذ الدجاج المحمرة طبعًا، إلا أنا والفتاة، أو سلاح كيميائي تسرب إلى ماء الشُرب، وكما تعلم أنا لا أشرب أبدًا من ماء الصنبور، ويبدو أن الفتاة كذلك لا تشرب منه، أو كائنات فضائيّة هاجمتنا من كوكب زحل عن طريق موجات كهرومغناطيسية كافية للقضاء على الأغبياء، ومفهوم طبعًا لماذا لم تؤثر بي هذه الموجات، أو فيروس فتَّاك تسرب إلى أجساد الجميع بشكل ما وقضى عليهم بالكامل، ويبدو أنني والفتاة الوحيدان اللذان يملكان مناعة ضد هذا الفيروس. كل هذه الأفكار جميلة جدًّا ومُحببة إلى النفس بشدة، لكنها تُخلِّف وراءها سؤالًا كارثيًّا ليس له جواب؛ أين اختفت جثث الناس؟

لا يوجد شيء قادر على أن يدفع الجثث لأن تتبخَّر فورًا؛ لو وُجِدت طريقة لذلك لاتبعتُها بنفسي من أجل التخلص من الجثة التي ترقد فوق فراشي.

مهلًا، هذا مدهش! ما عدتُ مضطرًا للتخلص من الجثة؛ لا شُرطة بعد اليوم!

***

أحب كثيرًا أن أقرأ الطالع، لا، إياكَ أن تسيء الظن بي، لستُ كأولئكَ المهابيل الذين يقرؤون الطالع في فنجان قهوة بعد الانتهاء من شربه، ولا بوشوشة «الودع» ورميه في الرمال، ولا بخرافات الكف وخطوطها التي ترسم طريقًا من الماضي للمستقبل، أنا أنضج من ذلك! قراءة

الطالع في الجدران طريقة ابتدعتها لتزجية الوقت حتى أدمنتها -يجب أن آخذ عليها براءة اختراع- فكما تعلم أنا عجوز وحيد، طبيب لا يمارس الطب، لا يجد ما يتسلَّى به سوى صيد الناموس، وتربية وحش أليف في إحدى غرف بيته -سأخبرك عنه لاحقًا- وإفزاع جارته الحيزبون التي تشبه رئةً يُمنى متضخمة، وجمع التُحف الكريستالية النادرة على مدار سنوات، ونقش الكوابيس على جدران غرفة النوم، وأخيرًا قراءة الطالع في جدران الصالة.

اقترب وانظر معي إلى هذه الندوب التي تتشكل فوق كل جدار، والتي لا تفهمها إلا عندما تقترب منها وتُدقق النظر، أو لعلكَ لن تفهمها دون «مفهِّماتي» كما في السينما الصامتة، لأنها تروي كل حدث مررتُ به «أنا»، كل خلجة، كل شعور، وكل فكرة، ألا تصدقني؟ انظر بنفسكَ إلى هذا الندب الذي يشبه القرنبيط، ساقه واضحة، ورأسه متاهة كبيرة، من يدخلها يعجز عن الخروج منها، كما الأرق، هذا الندب في الجدار الذي يشبه القرنبيط هو في الحقيقة يُعبر عن معاناتي مع الأرق. وهل ترى ذلك الندب الذي يشبه سلحفاة بظهر كبير؟ إنه يرمز إلي الأمان الذي أشعر به في هذا البيت، فما أشبهني بسلحفاة تحمل بيتها طوال الوقت فوق ظهرها! ألتصق ببيتي ولا أفارقه، هل تستطيع نزع الصدفة عن السلحفاة؟ والندب الذي هناك، نعم! الذي إلى يساركَ والذي يشبه فنجانًا كبيرًا من القهوة، إنه يرمز إلى قوتي وصلابتي، دائرة بيضاء تحوي في وسطها سائلًا أسود، بلون الحياة ومرارتها، حياة يحجزها اليأس مثل سد، ويطوِّقها الموت مثل سجن.

أمسكتُ بحجر النقش، دعني أحدثك عنه الآن، يُقال أنه جزء من الصخرة التي احتجزت الثلاثة الذين توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة فنجَّاهم، هذا ما يدَّعيه البائع الجائل الذي يؤمن تمام الإيمان بما يبيعني

إياه، أغمض عينيَّ بقوة، وأُقرِّب الحجر من الجدار، ثم أنقش رسمًا عشوائيًّا بينما أفكر في لا شيء وفي كل شيء، أفتح عينيَّ بعد دقيقة كاملة -ولستُ بحاجة للنظر إلى الساعة الجدارية لأتأكد من مرور دقيقة، لديَّ مهارة فائقة في إدراك الوقت بساعتي البيولوجية التي لا تُخطئ- ثم أتأمل الخدوش التي أحدثتُها بالحجر، وأحاول قراءة طالعي فيها بكثير من الدهشة؛ ما رسمته -مغمض العينين- لم يكن سوى ثعبان يلتهم ذيله! ما معنى ذلك؟ همستُ ساخرًا:

- أبشِر يا «لوط»، أنتَ على موعد مع حلقة مفرغة لا سبيل للخروج منها.

بغتة، ارتدَّ جسدي فزعًا، واستنفرتْ أعصابي هلعًا، تقافز الخوف بجنون هنا وهناك؛ إذ دوّى صوت طلقات نارية من مسافة قريبة، قريبة جدًّا.

6

كنت أعلم أن هذه الليلة لن تمر بسلام! الإزعاج سِمة العصر، لا يستطيع الناس أن يتفهَّموا رغبة عجوز مثلي في أن يعيش وحيدًا، وألا يقتربوا منه حتى تزكم أنوفهم رائحة جثته، عندها سأسمح لهم بالاقتراب؛ فقط لأن إكرام الميت دفنه.

صوت الطلقات النارية آتٍ من مكان ما حول البيت، مجنون ما تخترق طلقاته النارية السماء أو الأجساد أيهما أقرب، على الأقل هذا معناه أن ثمة إنسانًا غيرنا في هذا العالم، ولن أتعجَّب إن كان العجل «آبيس» الذي يشبه رئة يُسرى ضامرة، فأمثاله لا يتخلص منهم العالم بسهولة. تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها طلقات حية، رغم أن الحي يطفح بالموبقات إلا إنني -والشهادة لله- لم أسمع دويَّ طلق ناري من قبل، فالناس يقتلون بعضهم بطرقٍ أشد نظافة من الدماء والأشلاء -بالقهر مثلًا- يُمارسون على غيرهم صنوف الإذلال، حتى يستسلم أكثرهم إحساسًا، لا يُنجيه منهم إلا الموت. الإحساس هو خطيئة العصر! إحساس أقل؛ ألم أقل.

ها هي الفتاة تطرق باب بيتي كالمجنونة، تُناشدني بصوتها المُبلل اللحوح:

- أرجوك افتح لي الباب.

يلتصق الخوف بجسدي، يُمسك ذراعي، ويُحذرني ألف مرة كي لا أفتح الباب، يُذكرني بكل الحوادث التي قرأها «عصفور» على الفيسبوك، وقرأتُ عنها في الجرائد. كم من بريء فتح الباب ليلقى ملك الموت على حين غرة، في شكل طعنة نافذة في قلبه، سرقة بالإكراه تنتهي بضربة قاتلة على رأسه، أو مُخدِّر يزكم أنفه ثم يستيقظ وقد أُفرِغ جسده من أعضائه الداخلية مثل برميل «طرشي» عند فوَّال في نهاية اليوم! لن أسمح بأن أكون برميل «طرشي»، أريد لكامل أعضائي أن تُدفَن معي عند موتي دون أن تنقص عضوًا واحدًا، إنه حق أصيل أطالب به الحياة إن لم يزعجها ذلك.

تجاهلتُ طرقات الفتاة، وطلقات النار، والرائحة المعدنية للمطر الأحمر التي تسرَّبتْ من حواف النوافذ فسكبتْ في الأجواء نكهة الدماء.

- أرجوك اسمح لي بالدخول، فقط عشر دقائق ثم سأنصرف.

يا صغيرتي لَم يشفق عليكِ أبواكِ وأتيا بكِ إلى هذا العالم، كيف تريدين لغريب مثلي أن يرأف بحالكِ؟

ليتها تخرس، لو سكتتْ قليلًا لانتهى الأمر، لكنها بإصرار أنثوي -وكل ما يحمل هوية مؤنثة خبيث في نفسه ضارٌّ على غيره- تُزعج ضميري وتوقظه من مَرقَده. أبشع المعارك التي يشهدها إنسان هي التي يكون أحد طرفيها «الخوف» وطرفها الآخر «الضمير»؛ لو دارت معارك الإنسان كلها في الشيء العظيم المُسمى بالدماغ لخرج منها منتصرًا، لكن المُضغة الغبية المُسماة بالقلب -والتي لا فائدة حقيقية منها سوى ضخ الدماء- تُفسِد عليه فوزه بسبب مشاعر بلهاء، وإشارات حمقاء، تمامًا كما تُحاول مضغتي الغبية إفساد راحتي وإزعاج مأمني كلما نثرتْ عليها الفتاة كلمات الاستجداء بصوتها المُبلل.

رحتُ أدُور في الصالة بعصبية عندما دوى صوت الطلقات من جديد، هل نتعرض لهجومٍ إرهابي، أم أنها حرب على الإرهاب؟ عندما أفهم الفرق بينهما قد أستطيع التخمين.

لا أملك أي وسيلة لمعرفة ما يحدث الآن بالخارج، لا تلفاز، لا إنترنت، لا جار ثرثار، كل ما أملكه هاتف أرضي عتيق لا أستخدمه سوى للاتصال بـ «عصفور»، أتوجَّه صوبه وأدير القرص بالرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب، لا شيء على الطرف الآخر سوى صوت الجرس الرتيب، هل هو نائمٌ؟ غريب! هو بومة حقيقية لا تنشط إلا ليلًا.

إن لم يكن هجومًا إرهابيًا، فقد تكون كائنات ذكية تعيش على كوكب مجاور قررتْ أخيرًا غزونا فضائيًّا، لا للاستفادة من الأرض بالطبع؛ فقد أفسدناها عن بكرة أبيها، إنما لدراسة تلك المخلوقات المُدمِّرة لنفسها ولما حولها كأُنموذج للغباء الكوني. تبسَّم ثغري لتخيل جارتي الجيزبون التي تشبه رئة يُمنى متضخمة يُدحرجها الفضائيون على الأرض استعدادًا لشحنها في مَركبتهم المعدنية الطائرة.

أزيح الستارة، وأطوف بنظري في غابات الأسمنت، يدوي الطلق الناري من جديد فأكتشف -ويا للغرابة- أن الصوت آتٍ من السماء! أرفع رأسي فيصعقني ما أراه؛ وميضٌ يبرق مع صوت الطلقات، يبدو أن أبشع الكوابيس وأيسرها تصديقًا قد تحقق بالفعل، دخلنا حربًا عالمية ثالثة، وها هي طائرات الجيش المُعادي تُهاجمنا عن طريق غارة جوية عنيفة! لا أريد أن أصبح أسير حرب، أنا مدني، وحروب اليوم غاشمة لا تفرق بين جندي ومدني، حروب اليوم معارك بلا شرف دفاعًا عن السيادة، والسيد لا يرى في الآخرين سوى أسرَى أو عبيد أو فزَّاعة يُخيف بها الباقين.

أتشبَّثُ بجدران البيت، وأحتمي بأثاثه، ألفُّ السجادة العجمية العزيزة وأخفيها خلف الكنبة «الإسطنبولي» مخافة أن يطالها الأذى، أُخرِج «الصامدة حتى النهاية» من مخبئها وأقبض عليها بكلتا يديَّ، أرفع فوَّهتها عاليًا، واقفًا خلف الباب أستعد لنهاية رسمتها منذ وقت طويل: «كل من يحاول اقتحام بيتي ميت لا مَحالة، والرصاصة الأخيرة ستستقر في رأسي».

***

«ما تخافهُ يَستعبِدكَ».

وصَف الفلاسفة الخوف بأنه أم الرذائل ومَنبع العبودية. وعدَنا العصر الحديث بالكثير، وأهم ما وعدنا به استئصال الخوف من حياتنا، لكنه أبدًا لم يَفِ بهذا الوعد.

رغم أجهزة الإنذار الحديثة التي وضعتها على باب البيت وعلى كل نافذة، رغم كل التحصينات التي أتبعها يوميًّا كي لا أصاب بعدوى مَرَضية أو مميتة، رغم بُعدي عن كل مسببات الكوارث الطبيعية والبشرية، ورغم السلاح في يدي، ها أنا أقف في منتصف الصالة بساقين تصطكَّان، يحتضنني الخوف من الخلف؛ فشل الذكاء الاصطناعي والتقدم الحضاري والتكنولوجي في محو الخوف من الوجود، وقف أمامهم جموح الطبيعة، وهشاشة الجسد البشري، والقضاء والقدر بجدار عازل يحمون جحافل الخوف من الانقراض، بل أكاد أقسم أن العالم يستثمر في الخوف أكثر من استثماراته في الذهب والعملة الصعبة!

كلما زاد رصيدك من مُسببات الخوف؛ تمكنتَ من السيطرة على الآخرين وإخضاعهم لمشيئتكَ، إنها معركة الجميع ضد الجميع.

أستدير إلى الخوف الذي يتشبَّث بجسدي من الخلف، يتعلق بكتفي، فأنحني في سيري كـ «أحدب نوتردام» ، أتلفَّتُ فأرى في وجه الخوف عيونًا كثيرة، يقولون إن الخوف قادر بعيونه الكثيرة على رؤية ما لا تتمكن أعيننا البشرية من رؤيته؛ لذلك يحتضننا أحيانًا من الخلف دون أن نعرف السبب، مثل الحيوانات التي تتنبأ بالخطر، يتنبأ الخوف بالهلاك. كل هذه الأسباب كانت كافية لينتصر الخوف في معركته ضد الضمير، لم يعد صوت الفتاة مسموعًا، كأنه مطمور في الماء، لا أعرف إن كان لخوفي يد في محو صوتها من أذني أم أن الفتاة بالفعل توقَّفتْ عن الاستجداء، واستسلمتْ لطبيعة هذا الكون الكاره للجميع! أجلسُ فوق كرسي العرش الموضوع أمام الجدار المقابل للمدفأة، ولا تزال «الصامدة حتى النهاية» بين يديَّ، وحين ظننتُ أنني قد تخلَّصتُ تمامًا من الفتاة، أتاني صوتها المُبلل بمشاعر شتَّى:

- لقد قطعتُ مسافة طويلة جدًّا كي أراكَ، أرجوكَ افتحي لي الباب.

كنتُ أعرف أنها نصَّابة من نوع ما، تظاهرَتْ في البداية بأنها لا تعرفني، والآن تتظاهر بأنها تعرفني، لا بد أنها أتت للقيام بعملية سرقة في بيتي، ولعل باقي أفراد العصابة ينتظرونها بالخارج، ما إن يستسلم العجوز الغبي ويسيل لعابه أمام فتاة في عُمر أصغر بناته -لو كان قد أنجب البنات- حتى يقتحموا البيت ويستولوا على أغراضي الثمينة: السجادة العجمية، الكنبة «الإسطنبولي» ، جهاز الراديو، الهاتف ذي القرص الدوَّار، دولاب التحف الكريستالية، كرسي العرش، «الصامدة حتى النهاية» ، عدة الجراحة، وحشي الأليف المُخبأ مع محصول الطماطم في غرفة الحصاد -بقي القليل لأحدثك عنه- والأهم من كل ذلك كِليتي، وكبدي، وطحالي، وبالطبع لا أنسى ما أخفيه داخل الغرفة المحرمة، الغرفة الرابعة المغلقة بباب مُصفَّح، سيسطون على ما فيها!

لم أَلِن تجاهها ولو للحظة، لكن لسبب ما ظلَّتْ عبارتها تدور في رأسي: « لقد قطعتُ مسافة طويلة جدًّا كي أراكَ». أن تخبرني فتاة ما أنها فعلتْ شيئًا من أجلي هذا لَعَمْري -وإياك أن تسخر- باعث على اللذة؛ في كلماتها إشباع لحاجة فطرية للإنسان في أن يكون مرئيًّا، وكما ترى لا يُمَكِّنني المكعَّبُ الأسمنتي الذي أمضي فيه حياتي من أن أكون مرئيًّا. أليس ما يفعله الناس من طوامٍ هدفه الأكبر أن يكونوا مرئيين؟ إذا سألتكَ عن أخطر أمراض اليوم ستجيبني باسم فيروس فتَّاك، أو خلل يصيب الأعصاب، أو حتى نوع مُستحدث من أمراض الجهاز الهضمي، أما إن سألتني فسأجيبكَ بأن أخطر أمراض اليوم هو شهوة الظهور والاستعراض: الناس جوعى لأن يكونوا مرئيين! ليس هذا فحسب، بل لأن يكون عدد من يراهم كبيرًا، كبيرًا جدًّا؛ لم يعد يكفيهم أن يكونوا محط أنظار أحبّائهم وأقربائهم وأصدقائهم، إنهم يسعون لأن يكونوا في بؤرة العالم، حيث يمكن رؤيتهم من جميع الاتجاهات، وهذا يتطلب أن يكون المرء عاريًا، عاريًا تمامًا من أردية الفضيلة التي أضحت في عصرنا هذا «موضة قديمة». إنه الظهور الذي يقصم الظهور، ويسلب المرء أعز ما يملك: نفسه! ومع ذلك يظل الإنسان مهما بلغ من درجات الفضيلة شرِهًا لأن يكون مرئيًّا، ولو من شخص واحد فحسب، ولأنني لا أملك هذا الشخص الذي قد أستعرض نفسي أمامه، كان لعبارتها «لقد قطعتُ مسافة طويلة جدًّا كي أراكَ» وقع مُحبب جدًّا على مركز الشهوات في رأسي، سرتْ على أثرها دفقة من هرمون المزاج «الدوبامين» في عروقي.

طرق سمعي رجاؤها اللحوح:

- فقط اسمعني، ليس لي سواكَ.

الحقيقة أن الفتاة بصوتها المُبلل بارعة حقًّا في حَكّ قشرة عجوز وحيد، لكنني لستُ ذاك العجوز الذي يستسلم بسهولة، حتى وإن كان

لشعور «الدوبامين» في عروقي أثر الخمر في الرأس؛ دنوتُ من الباب، أصرخ فيها، أزجرها، أُعنِّفها، فتُجيبني:

- فقط لمرة واحدة.

أرتدي القناع الجراحي في عصبية، أفتحُ الستة عشر قفلًا، وعلى وجهي أمارات تنّين غضوب -لو كان للتنانين أمارات غاضبة- رغم الزهو الذي أرسَته كلماتها في نفسي. أقف قبالتها مرة أخرى وجهًا لوجه، عينها الحقيقية مُبللة كصوتها، أما الزجاجية فمُصمتة كشاشة تلفاز مغلق، تُخرِج ملفًا أزرق اللون من حقيبتها القماشية التي تسع العالم بأسره، تضعه أمام وجهي، وقبل أن أنطق، تتوسّل كأنها تتشبَّث بآخر نفس في مشهد احتضار طويل:

- أنقذني.

كما يقولون: «اصنع بحيرة وانتظر الزلزال»، ها أنا أصنع بحيرة كبيرة، وأين؟! في عقر داري، إذًا فلا أقلّ من زلزال بقوة ثمانية ريختر سيكون في انتظاري!

لم تتحرك شفقتي نحوها، بل شيء آخر لعين اسمه الفضول اشرأب بعنقه وأراد أن يقتطف الفتاة ويشدها إلى الداخل، لكن الخوف أطل بسحنته التي تتسع لألف عين، وقضم يد الفضول فسقط أرضًا بجزع مبتورة أطرافه؛ فرفضتُ أن أسمح لها بالدخول، وأوشكتُ على غلق الباب، فجأة دوى صوت طلقات نارية، ثم -وكما لكَ أن تتخيَّل- تفزع الفتاة، وتدفعني بحركة لا إرادية -أو إرادية- إلى الداخل، ثم ينغلق الباب من خلفنا.

رجل ستّيني، وفتاة شابة، والجثة ثالثهما!

***

7

- اعبري من هذا الجهاز.

أشرتُ إلى جهاز التعقيم الذي وضعته كباب ثانٍ، لا أسمح لـ «عصفور» بدخول بيتي إلا بعد عبوره، فينهال عليه الرذاذ المُطهِّر من جميع فتحات الجهاز. نظرت الفتاة بريبة إلى الجهاز للحظات، ثم ودون تردد عبرَتْ منه؛ انسابتْ رائحة الأمان المُعقِّمة تُعبِّق الأجواء.

- اجلسي هنا ولا تتحركي، لا أحب وجود الغرباء في بيتي.

أمرتها بغلظة وأنا أعيد الأقفال إلى موضعها، وأشير لها صوب أحد المقاعد الخشبية بجوار الباب، عليَّ أن أحرق هذا المقعد بعد انصرافها، لا أحد يعلم ما يعلق الآن بجسدها وفستانها من فيروسات وفطريات وبكتيريا من مُسببات المرض والموت. لا أخشى الموت، لكنني أريده أن يأتي طبيعيًّا بينما أنا جالس فوق كرسي العرش أحتسي قهوتي بغير سكر، بلا حروب مع كائنات لا تُرى بالعين المجردة.

أومأت الفتاة برأسها في حماس، بينما توجهتُ أنا إلى الحمام لأعقِّم يديَّ، وأطهر وجهي وجسدي، خمس مرات. خرجتُ من الحمام لأجلس فوق كرسي العرش الذي يبعد عن مقعدها بثلاثة أمتار على الأقل، عينها غير الزجاجية تجوب محتويات البيت في نهم، تتوقف عند كل غرض

كأنها تتذوقه، هذه الفتاة جائعة، جائعة لشيء ما، وهذا الشيء -حسب ظنها- ستجده عندي.

بدا وجودنا معًا تحت سقف واحد غريبًا جدًّا، كمجاورة الشمس للقمر في لقطة سماويّة واحدة، كرقاد النار والماء جنبًا إلى جنب، كتلاحم القطبين، كتلامس قمة جبل وقاع سهل: كانت شابّة جدًّا، وكنتُ عجوزًا جدًّا، يزرعها الأمل، ويحصدني اليأس. ترتدي أبشع فستان قد أراه في حياتي؛ ألوان صارخة متداخلة يغلب عليها الأزرق، لا تنم عن ذوق أو ترتيب. أتفرَّسُها محاولًا قراءة ملامحها ولغة جسدها، تبدو طالبة جامعيّة، ودودة، خفيفة مثل ورقة تحملها الرياح، سارقة، أو قاتلة أيهما أقرب، لها خفة يد اللصوص، وتعضُّ شفتها السفلى كأنها تنحر بأسنانها عُنق رجل أحبّته ثم خانها. أرجِّحُ أنها سارقة، أتتْ لتحتال عليَّ من أجل سرقة شيء ما من بيتي، الله وحده يعلم ما هو. فإذا جمعت صفاتها الأربع؛ طالبة، ودودة، وَرَقة، سارقة؛ لنحت من أول حروفها كلمة «طاووس».

عدتُ لتأمُّل فستانها، إنه أشبه بعشرات من ريش الطاووس ذي العيون البيضاويّة في طرفه، وسط كل ما يحيط بنا من جدران وأثاث يتأرجح بين درجات الرمادي المختلفة، صرختْ ألوانها لتعلن عن وجودها في غرور بشري صفيق؛ إنها طاووس حقًّا. تُعلِّق فوق أحد كتفيها مرورًا بصدرها حقيبة قماشيّة مُطرَّزة بخيوط من حرير، لها الألوان الفجَّة ذاتها، كبيرة، عميقة، تسع العالم كله، غامضة كأنها حقيبة ساحر قد يخرج منها كل شيء. لو وُجِدَتْ هذه الفتاة في أوروبا في أثناء العصور الوسطى لاتُّهِمتْ بخطيئة السحر، ولقتلها الناس في الميدان حرقًا أو رجمًا.

هذه الفتاة جاءتْ لتراني أنا بالذات، هذا مثير للريبة بالقدر نفسه الذي يثير البهجة في صدري؛ فتاة تقطع -على حد قولها- مسافة طويلة كي تراني، هي إما مجنونة أو مجرمة. تقول: «أنقذني»، بينما ليس لدي ما أقدمه لها أكثر مما يمكن لعامود إنارة محترق مصباحه أن يمنحه للمارة في الطرقات.

***

لا أزال أُمسكُ الملف الذي سقط على صدري حين دفعتْني بفزع لدخول البيت، ما إن هممتُ بفتحه حتى نهضَتْ من مكانها، فتحفَّزتْ أعصابي.

تدنو خطوة قصيرة إلى الأمام، فأهتف بغلظة:

- لا تقتربي!

عيناها -أو إن شئتَ الدقة: عينها الحقيقية- مُثبَّتة على السقف، تمامًا حيث البقعة القبيحة التي تُفسد تناسق الرمادي، ما الذي يجذبها إلى هذا القبح؟!

لم تكتفِ بذلك لإدهاشي، قالت بنبرة وردية -لو كان للنبرات لون-:

- ما أجملها!

هل تمزح؟! تفرَّستُ بدوري في البقعة، إنها القبح ذاته، أقبح من البُقع التي تغطي بشرتي وتجعلني أُشبه سمكة سلمون بالغة.

قالت بذات النبرة الوردية:

- هذا ما يجعلنا على قيد الشعور.

هل تقصد على قيد الحياة؟! وما قصدها بـ «هذا»؟ هل تشير إلى الماء الذي تسبب في هذه البقعة؟! لكنه ماء عفن يا صغيرتي، عن أي حياة تتحدثين؟ قد تكونين على حق: ماء الحياة الذي يسري في

عروق إنسان هذا العصر كأنه مُرشَّح من مواسير الصرف. تقول بعض الأساطير الإفريقية: إن الحياة خُلِقَتْ من قطرة لبن. لو عاش راوي الأسطورة في عصرنا الحالي لتحوَّل فِكره إلى ماء الصرف.

للفتاة طريقة غريبة في النظر إلى الموجودات، كأنها تُربِّت عليها، تتحسسها، تُقبِّلها بعينها الحقيقية، فيما تظل العين الزجاجية جافّة، باردة، مخيفة، تنتمي لإنسان آخر، كأن برأس الفتاة تعيش روحان، لكل منهما نافذتها الخاصة على الحياة. ليستْ كالأموات الذين يسيرون على قدمين مسلوبي الأمل، مهدوري الكرامة، وليست كذلك كالجثة التي ترقد فوق فراشي بعدما تخلّى عنها إكسير الحياة، وطبعًا لا تبدو كالأحياء مثلي، إنها خليط عجيب من كل ذلك!

- قلتِ إنكِ أتيتِ لرؤيتي، من أين تعرفينني؟ ولماذا أنا بالذات؟

قطعَتُ بسؤالي الخيط الوهمي بينها وبين البقعة القبيحة؛ سحبَتْ عينها لتطوف بها فوق وجهي، لها تلك النظرة التي تُشعركَ أنها تحاول قراءتكَ، لا تحاولي يا صغيرتي، أنا مُجلَّد كبير كُتِبَ بحبرٍ سرْي، عَصيٌّ على رأسكِ الجميل أن يرى أحرفه، فضلًا عن أن يفهم مُراد كلماته.

أشارتْ إلى الملف بأصابعها النحيلة، قالت بخفوت:

- افتحه وستعرف.

لا شيء في هذا الملف قد يُغير ما فتحتُ فمي لأقوله، بلا مبالاة حقيقية، بينما أفارق كرسي العرش كي أدنو من الباب:

- مرَّت الدقائق العشر التي طلبتِها، كنتُ كريمًا معكِ كما ترين، خذي هذا الملف وغادري بيتي الآن.

هبَّت رياح الخماسين من وراء عينها، فعكَّرتْ مزاجها، كما عكَّرتْ أنفاسها هواء البيت الذي يبذل جهاز التنقية جهده كي يُبقيه بلا ملوِّثات.

قالت بلوعة:

- ألن تقرأه؟

قلتُ ببرود -وقد بات واضحًا للعيان أنها تُحاول بذل كل ما في جعبتها للبقاء، ولم يرُقني ذلك-:

- لا.

فتحتُ الستة عشر قفلًا. نظرتُ إلى الخارج لأتأكد من أن أحد أفراد العصابة لا ينتظر بجوار الباب، ثم أشرتُ إليها دون كلمة.

تقدَّمتْ بخطوات بطيئة صوب الباب المفتوح، ترميني بنظرات لائمة، لم أتلقَّفها، تركتها تسقط أرضًا، ثم دهستها بحذائي، هنا أتت بِفعل غريب! لم تخرج من الباب، بل دنت من الجدار بجوار الباب، تتحسسه بطريقة أثارت كل ذرة دهشة في عقلي، هل رأيتَ من قبل حبيبة تنتظر حبيبها بعد سفر طويل، كيف تغمره بعينيها، كيف تُمرر أناملها فوق قسماته، تتحسسه بحب وشوق ولهفة ولوعة واشتياق، تُلصِق أناملها بوجهه كأنها تُريد لخلاياه أن تلتصق بخلاياها إلى الأبد؟ هذا ما فعلته الفتاة مع الجدار، ثم قالت أغرب عبارة سمعتها في حياتي:

- رغم شحوب الجدار ولونه اللحمي إلا إنه لا يزال يتحرك، ما أروع ذلك!

لم يكن الجدار شاحبًا، وبالتأكيد لم يكن لونه لحميًّا، بل رماديًّا! هذا وصف حصري للأحياء، والجدار ليس كائنًا حيًّا، وحتمًا لم يكن يتحرك، ما يتحرك شيء آخر، هو خلايا الجنون في عقل الفتاة! يقولون دائمًا إن الفتيات الجميلات قليلات حظ من الحكمة والمنطق، رأيتُ ذلك بأم عيني الآن.

لم أطِق صبرًا، استفزتني كل نظرة ترميها، وكل كلمة تلقِيها، سحبتُ ذراعها بقوة، ثم ألقيتُ بها خارج بيتي، وأغلقتُ من خلفها ستة عشر قفلًا.

***

للحظات بدا لي كأن ألوان الطاووس لا تزال تحتل جزءًا من بيتي، تُفسد رماديته، أرحتُ جسدي فوق كرسي العرش، أغمضتُ عينيَّ، فركتهما في حركة دوَّامية، وحين فتحتهما علَتْ ثغري إبتسامة ارتياح؛ لقد اختفت الفتاة بألوانها المُبهرجة إلى الأبد، عاد بيتي إلى سابق عهده، رمادي تمامًا.

جُبتُ بعينيَّ أرجاء الصالة، ثم أعدتهما إلى يديَّ، فقط لأكتشف أن الفتاة نسيت الملف الأزرق! يُفسد التناغم اللوني بصفاقة كصاحبته، تبًّا لذلك! لن أفتح الباب لألقيه إليها؛ مخافة أن تحاول اقتحام بيتي من جديد.

على سبيل تزجية الوقت فتحتُ الملف، ظننتُ أنني سأجد فواتير مُستحقّة الدفع تبحث الفتاة عن صيد غبي ليدفعها عنها: إيجارًا متأخرًا، أو دينًا ستدخل السجن إن لم تدفعه الليلة، لكن ما وجدته أثار فضولي بشدة -وهذا نادرًا ما يحدث، فالفضول شعور بشري يحتاج إلى روح شغوفة ليلتصق بها، وأنا فقدتُ شغفي منذ أمد بعيد- عثرتُ في الملف على تقارير طبِّيّة، تحاليل، أشعة، بعد دقائق من قراءتها كاملة مرتين، خلصتُ إلى ما تعنيه كل تلك المعلومات التي بين يدي؛ هذه الفتاة لديها قنبلة موقوتة في رأسها!

8

- ادخلي.

نعم. هذه الكلمة أنا قائلها، أرأيتَ كيف تتبدل المواقف بسرعة في هذا العالم الذي يُقدِّس السرعة؟

إنها السرعة ذاتها التي ستتبدل فيها حذاءكَ، أو صديقكَ.

كلا، لم يتبدَّل موقفي العدائي من الناس والعالم، ولم يسِل لعابي أمام فتاة ملونة كذَكر الطاووس.

لكي تفهم لماذا فعلتُ ذلك عليكَ أن تمر من كل دروب الحياة التي مررتُ بها، لكن هذا مستحيل، أنتَ لستَ أنا، لكنني سأحاول أن أختصر لكَ، وإن لم تفهم فتلك مشكلتكَ.

أنا ميكانيكي العقل، تثيرني الحالات التي تكشف طريقة عمل هذا الشيء البديع في رؤوسنا: المخ، الذي يظنه الجهلاء كُتلة هلامية كـ «المهلبيّة»، في حين أنه ثمرة «كنتالوب» بديعة تتكون من قشرة، ومادة بيضاء، وتجاويف رمادية.

المخ يعمل مثل فيلم سينمائي صامت، وأنا أقوم بدور «المفهِّماتي»، أشرح للجمهور ما يأتي به العقل من عمليات معقدة، وما يندُّ عنه من أوامر، ونواهٍ، وانفعالات، وإدراكات، ما يرسله من إشارات عصبية، وما

يتسبب به من أفعال. عمل العقل لا يُبهرني مثلما يبهرني الخلل، كيف لخلل بسيط في المخ من الممكن أن يُحوِّل الإنسان إلى خُردة لا نفع منها. إنجازات الحضارة البشرية، التطور العلمي والتقني والصناعي والفني والثقافي والإنساني، كل ذلك يدين بالفضل لمركز العقل المتمركز في القشرة المحيطة بالنصفين الكرويين للمخ، إنه الشيء الوحيد الذي يجعلني أتواضع أمامه؛ فكيف تأتي إلى بابي فتاة لديها قنبلة موقوتة في رأسها، وأصرفها دون أن أستمتع بتلك اللحظات التي أستكشف فيها خللًا جديدًا، وما لحقه من آثار عجيبة؟

أراكَ ممتعضًا! هل ظننتَ أنني أشفقتُ على الفتاة لما أصابها؟ آسف إن خيَّبتُ ظنك، إنها حالة عجيبة تستحق الدراسة، يلزم وضعها في قفص، ويتجمع حولها الأطباء والعلماء ليشهدوا حالتها الدسمة بالمعرفة، ومن حسن حظي أنني سأكون المُتفرج الوحيد الليلة.

عبرَت الفتاة الطاووس من جهاز التعقيم، ثم جلستْ فوق المقعد الخشبي دون أن آمرها، جميل! قردة ذكية تتعلم بسرعة، أحب ذلك.

على حين غرة أمسكتُ برأسها بين يديَّ، فتحتُ طريقًا بين شعراتها البُنِّية المتموجة الثائرة؛ باحثًا عن جُرح مُلتئم في رأسها. قد ترى فعلتي همجيّة مُتهورة، تصدر عن عجوز بغيض، حسنًا يا عزيزي، بإمكانكَ أن تُدير رأسكَ، وتغض بصركَ مُتغنيًا بالأصول وقواعد اللياقة، بينما العجوز الهمجي يقبض على رأس الفتاة ليتأكد من أن التقارير الطبية تخصُّها حقًّا.

تركتُ رأسها دون اعتذار ما إن عثرتُ على الندبة البشعة -التي لا تنتج سوى عن يد إسكافي لا طبيب- لم أخطئ لأعتذر، مارستُ حقي في التأكد من صدق ادعاءاتها، لا أكثر ولا أقل، ظننتُ أنها ستثور وتلعنني، ثم تُفارق بيتي وهي ترفع عقيرتها بالصراخ كي تفضح العجوز المُتحرش

الذي أمسك بها على حين غرة، لكن لا شيء من ذلك، أعادت ترتيب خصلاتها الثائرة في هدوء، مما دفعني لأتساءل: هل هذه الفتاة مُعتادة على عبث العجائز في رأسها؟!

- كيف حدث ذلك؟

أُلقي بسؤالي مُعترفًا بخطيئة الفضول، بينما أجلس فوق كرسي العرش، أتحسس عظام مسنديه في استرخاء ظاهري، دون أن تحيد عيناي عن الفتاة لحظة واحدة، أمسكُ بـ «الصامدة حتى النهاية» بين يديّ في تراخٍ كاذب، أعصابي على أهبة الاستعداد لتفريغ محتويات البندقية اليابانية الأثرية في رأسها الجميل إذا ما أتت بحركة مثيرة للريبة.

تعود الفتاة الطاووس لتتأمل البقعة في السقف كأنها لم تسمعني، ما الذي يُثيرها إلى هذا الحد في هذا القُبح؟ تفتح الفتاة الطاووس فمها، لتُلقي على مسامعي سؤالًا عجيبًا دفع بجحافل الشك والريبة إلى غزو عقلي، وإرسال تنبيهات لا حصر لها إلى جهازي العصبي:

- كيف حال جارك؟

كيف عرفَتْ أن لي جارًا يسكن في الطابق العلوي؟ حتى «عصفور» نفسه يُنكر هذه المعلومة، يبدو أنها رأت التحفُّز يعتلي قسمات وجهي، فسارعتْ بإضافة سلاح فتَّاك في ترسانة الشك وهي تقول ببراءة ظاهرية:

- عرفتُ أنه مريض؛ لذلك أسأل، هل أخطأتُ في السؤال؟

كيف عرفَتْ أنه مريض في حين أنني جاره وصاحب البيت ولا أعرف حتى اسمه؟ سألتها بغلظة والريبة تفور في رأسي:

- هل أنتِ من سكان الحي؟

هزَّتْ رأسها نفيًا ببطء، ثم قالت ساهمة، وسبابتها تعبث بخصلة متموجة تنسدل فوق كتفها:

- أنا من بلاد بعيدة.

ما هذا السخف؟ سألتها:

- إلى أي حد بعيدة؟

تُحرِّك الفتاة الطاووس رأسها إلى اليمين ثم، «طق»!

كم أكره ذلك، لم أفهم قط ما الممتع في أن يُطقطق إنسان فقراته العُنقيّة؟ نهرتها مُعنِّفًا:

- لا تفعلي ذلك مرة أخرى.

أومأتْ برأسها ببراءة طفل أمام نهر أبيه وتوبيخه، أعيد السؤال على مسامعها، وقد انتبهتُ إلى أنها بطيئة في الإجابة عن الأسئلة التي لا تروقها:

- إلى أي حد بلادكِ بعيدة؟

شبَّكتْ أصابعها، طافتْ نظراتها بأركان البيت، ثم استقرتْ فوق وجهي -ليتها لا تفعل؛ إذ تُوترني عينها الزجاجية الخالية من الحياة- تقول:

- بعيدة إلى الحد الذي كان عليَّ لكي آتي إلى هنا أن أمر ببلاد كثيرة.

ما أغباها من إجابة، لا تسمن ولا تغني من جوع. قبل أن أخبرها بذلك أردفَتْ:

- مررتُ مثلًا بالبلد الذي تحوَّل إلى رحم.

- بلد تحوَّل إلى رحم؟! عن أي هراء تتحدثين؟

فار الحماس في عروقها؛ قالت مُسترسلة بصوتها المُبلل دون أن يُقاطعها شيء سوى صوت «تيك تاك» قادمًا من جهاز منظم ضربات القلب المزروع بصدري:

- في ذاك البلد كان الجميع يعيش تحت خط الفقر، لا يملكون مدرسة ولا فرص عمل، وكان على الشباب أن يُغادروا البلد ما إن يبلغوا سن الرُشد، كي يتعلموا في بلاد أخرى بها مدارس، ويحصلوا على فرص لكسب المال، وكانت الأمهات تمضين أوقاتهن في البكاء شوقًا، ينهش الحزن قلوبهن، تمر أعمارهن وأعينهن مُعلَّقة بالطرقات، لكن الشباب الذين فارقوا البلد لم يعودوا إليه قط، لم يُبكِهم الحنين قط؛ يقعون في شَرَك الدنيا خارج أرضهم، مثلما يقع الواحد منا داخل دوامة بحر، وكلما حاول أن يتحرر يغوص أكثر، ويبتلعه الموج، لكنه موج لذيذ مملوء بعبق المغامرات، ومُثقل بالمعرفة، موج يُزلزل ولا يقتل.

حتى أتى اليوم الذي فيه كانت إحدى النساء تُعاني من آلام المخاض، استمرت ولادتها ثلاثين يومًا وليلة!

فشل الجميع في توليد المرأة، بداية من القابلة وحتى الطبيب، مرورًا بالإسكافي والساعاتي والحداد وبائع الحليب. وفي اليوم الواحد والثلاثين أنجبَت المرأة طفلًا يبدو في عُمر الشهر! ومنذ ذلك اليوم لم يعد مخاض الولادة يستغرق دقائق أو ساعات؛ بات يحتاج إلى أسابيع وشهور وسنوات.

تمددَتْ أرحام النساء؛ ترقد إحداهن في وضع الولادة لسنوات، ثم يخرج من رحمها شاب في مُقتبل العمر، كأي شاب في مثل عمره، يعرف كيف يأكل ويلبس ويشرب، يعرف المشي والكلام، وكيف يرد السلام، يمكث قليلًا ثم يغادر البلد من أجل التعليم والعمل.

استطالت مدة الولادة حتى بلغَت ستين عامًا، تلد المرأة عجوزًا في الستين، ثم صارت تلد المرأة جنينها في السبعين، ثم الثمانين، ثم التسعين، بقي العجائز في البلد ولم يُفارقوها مثل الشباب؛ فما حاجة العجائز إلى علم، ومن أين لهم بقدرة على عمل؟

ومنذ ذلك الحين صارت نساء البلد في حالة مخاض دائمة، يُحبَس البنات والأولاد، الأطفال والشباب في أرحامهن حتى تتآكل زهرة حياتهم، وينطفئ حبهم للتعلم والحياة.

صار البلد كله رحمًا كبيرًا يقتل أحلام الجميع، وأصبحت الأمهات سعيدات؛ إذ لم يعد أولادهن يُفارقونهن أبدًا.

لكَ أن تتخيل أن الرجل الذي لا يصدق حتى الآن أن الأمريكان قد صعدوا إلى القمر، ويظنه فيلمًا هوليوديًّا تم حبكه ببراعة، يجلس الآن فوق مقعده العتيق، ويستمع إلى كل هذا الهراء غير القابل للتصديق.

أردفَت الفتاة الطاووس بأسًى:

- حين مررتُ بالبلد الذي تحوَّل إلى رحم، رأيتُ الأطفال العجائز يجلسون إلى ظل الأشجار في تعاسة، يبكون في صمت خذله الكلام، يرثون الآمال والأحلام، بينما الفرحة تعلو وجوه الأمهات. أقسم لكَ.

قالتها في إيمانٍ عجيب، تحاول به غسل الشك عن وجهي، هذه الفتاة بؤرة شر خام، تُفسِد المنطق، وتتلاعب بالمعقول كما لو أنه كرة طاولة، تطعن العقل، وتعتصر المعاني كي تُخرِج قيح الخيال.

الخيال سُم زُعاف يسري في جسد الكون، لولا الخيال لما جن جنون البشر، لما توحَّشتْ رغباتهم، ولما سجدوا أمام أصنام أهوائهم. قفز الخوف وتشبَّث بالسقف، تمامًا فوق رأس الفتاة، خوف حقيقي

ملموس، لا أوهام وهلاوس مثل كلام الفتاة ذات الحقيبة القماشية التي تسع العالم، والتي أخرجت منها صورة مجموعة من العجائز لوَّحتْ بها أمام وجهي، في محاولة لإثبات صدق حكايتها عن البلد الذي تحوَّل إلى رحم. هذه الفتاة إما ذكيّة جدًّا أو غبيّة جدًّا، كيف تستدل على صدق حكايتها بصورة لعُصبة من العجائز يستندون في أسًى إلى ساق شجرة، يتشابهون مع ملايين العجائز حول العالم؟

لم أشِر إلى أكاذيبها ولو من باب الاستنكار؛ إذ كان هذا كله مضيعة للوقت. وضعتُ ساقًا فوق أخرى، أشدُّ بإصرار أطراف الحديث إلى حيِّز المعقول، أرفع الملف الأزرق في يُمناي، وأشير صوبه برأسي وأسألها:

- كيف حدث ذلك؟

سبحَتْ غمامة من الضيق أمام عينها الحيّة، ليس لدي مزاج رائق لأن أفسح للفتاة الوقت لتتجرع أحزانها؛ أعدتُ السؤال بصيغة أخرى، أكثر قسوة:

- كيف أصبتِ بالرصاصة القاتلة في رأسك؟ تعلمين أنه وفقًا لهذه الفحوصات فموتكِ مسألة وقت؛ الرصاصة التي تستقر داخل مخكِ ستقتلكِ حتمًا، الآن، بعد دقائق، بعد ساعات، لا أكثر من ذلك.

ازدادت الغمامة اتساعًا، قلتُ غير آبه بها، أعاقبها على الخيال باستمطار الواقع، ومُتلذذًا بإنزال العقاب:

- تعرفين أنكِ جثة تسير على قدمين، أليس كذلك؟

***

9

هذه الفتاة ستموت الليلة، بعد دقائق، ساعات، ربما.

ستهَب الكون إكسير حياتها، وتمنح الذباب والدود مائدة عامرة بالملذَّات، ما أسعد دود الأرض هذه الليلة، وما أتعس الفتاة!

أدقق النظر إلى الأشعة، أرفعها عاليًا أمام مصباح الصالة الهزيل، أتأمل بانبهار الرصاصة التي تستقر في رأسها، تحديدًا في نصف مخها الأيمن، خلف عينها الزجاجية، عبرت من عينها -التي كانت حقيقية يومًا ما- وفجرتها لتستقر داخل تلافيف المخ. رصاصة تتظاهر بالبراءة والثبات، لكنها تتحرك بمقدار طفيف كل يوم تحياه الفتاة الطاووس، وهذه التقارير والفحوصات التي خضعتْ لها قبل ساعات فقط، تُنبئ بأن الرصاصة ستتحرك من محبسها هذه الليلة، لتُدمِّر المخ الذي احتضنها وآواها.

ألم أخبركَ أنها حالة طبية عجيبة تستوجب أن تُوضَع صاحبتها في قفص للتأمل والدراسة؟

ومن حُسن حظي أنني سأكون المُتفرج الوحيد، لكنني حائر في أمر واحد، هل أكتِّفها وأسحبها إلى غرفة الجراحة وأقيدها إلى فراش الفحص عنوة، أوصلها بالأجهزة لأسجل علميًّا لحظات الاحتضار الأخيرة لفتاة يحتوي رأسها الجميل على رصاصة قاتلة؟ أم أخدِّرها وأُعمِل

مبضعي في رأسها، أفتحه مستكشفًا طريقة استقرار الرصاصة في تلافيف مخها، وبينما تحتضر أكون مراقبًا لكل شيء من الداخل؟

إياكَ أن تُحدِّثني عن أخلاقيات المهنة، ارفع رأسك وانظر حولكَ، أول ما يؤمن به الطبيب، وأول ما ينساه هو قسَم أبقراط.

معكَ حق، ليس كل الأطباء، لكن لنقل قسم كبير منهم، ماذا تقول؟ أين الإنسانية؟ الإنسانية ماتت منذ زمن طويل، ألا تصدقني؟

يبدو أنكَ لا تعيش في هذا الكون -يا عزيزي- الذي يعيش فيه تُجَّار حياة بمعاطف بيضاء أو سوداء أو كاكيّة، وبألقاب حضرية.

تبدو غِرًّا ساذجًا يؤمن بشرف العلم ونُبل الإنسان، حسنًا دعني -دون أسف- أنسفُ فكرتكَ الساذجة عن النيّة النبيلة، والغاية العظيمة.

هل تعرف أن مرض الدرَن الرئوي الصبور العنيد الذي يُطلق عليه «الموت الأبيض»، يرسل كل عام ملايين الأرواح إلى القبور في رحلته حول العالم، وأن العائق لعلاجه هي الحكومات التي تعجز عن منح حملات مكافحة الدرَن عالميًّا التمويل الكافي، أو أن تُقدِّم لهم أدوية فعَّالة تؤخَذ بشكل صحيح؟

فكر في ذلك، في الوقت الذي تُنفَق المليارات كل يوم على الهراء والتفاهات، على الحفلات الراقصة، وناطحات السحاب، على سباق أجمل امرأة في العالم، وأطول برج يخرق السماء، دون أدنى إحساس بالذنب، يموت الملايين بالدرن كل عام.

نعم يا عزيزي، لا تفتك بنا بعض الأمراض لأنها تنين مُجنَّح لا قِبَل للإنسانية به، ولا قدرة لها على ردعه، بل لأن روحك وحياتك تأتي في مرتبة متأخرة بعد اعتبارات سياسية واقتصادية كثيرة.

لا زلتَ لا تُصدقني؟ إذًا دعني أخبركَ أن الدرَن الرئوي المُقاوِم للأدوية الذي نشهده حاليًّا، إذا امتزج مع مرض نقص المناعة المكتَسبة «الإيدز»،

يُصبح كلبًا مسعورًا يفتك بكل خلية في جسدكَ، هل تعرف لماذا لم يتم احتواء مرض نقص المناعة المكتسبة عند تفشيه في بداياته؟

لم تستكشِف سوى عدد ضئيل من شركات الأدوية تطعيمًا ضده، لأن التطعيم لا يعود بفوائد كثيرة لشركات الأدوية العملاقة على مستوى الربح!

عندما انتشر الوباء وزادت الحاجة إلى العقار السحري الذي يُعالج العدوى المُسببة للالتهاب الرئوي، التي تقضي على ما يزيد على 70% من حالات الإيدز، دعَت الحاجة إلى البحث عن شركات لتصنيعه، لكن لم تهتم شركة واحدة بتكريس وقت ولا أموال لتطوير دواء لن يُستخدَم إلا مع مرضى الإيدز فقط!

استيقظ، نحن نعيش في عالم متطور جدًّا، متحضّر جدًّا، بإمكانه أن يُعالجكَ فقط إذا كان علاجكَ يُحقق الربح الكافي، ماديًّا أو سياسيًّا.

أنتَ سلعة، سواء سليمة أو معطوبة، قيمتكَ في هذا الكون الفسيح ليستْ أكثر من مجرد سلعة في سوق الإنسانية، إياكَ أن تنسى هذا.

والآن كُف عني هراءك عن المِهَن السامية، «سامية» هي ابنة جارتي الحيزبون التي يتلصص عليها «عصفور» من نافذة غرفة نومي صباحات الجُمَع، فتتظاهر بأنها لا تراه بينما تُبدِّل ثيابها أمام النافذة المفتوحة في غُنج.

تلك هي «سامية» الوحيدة التي أعرفها -وكما ترى- ليستْ معرفة تُشرِّف!

***

- ما اسمكَ؟

وكأنها تتعمد استفزازي، لا أكره أكثر من سؤال الغرباء عن اسمي، حتى أن «عصفورًا» نفسه لم أخبره به؛ إذ إنني حين أجيب بـ «لوط»

يرمقني السائل إما برهبة أو نفور، وكأن اسم النبي مَسبَّة، لا يُفرق الجهلاء بين اسم نبي الله «لوط»، وفِعلَة قومه، حتى إنهم يؤذونهُ في اسمه بتسمية الشذوذ باللِّواط، وفي اسمي!

هذا ما كان يحدث معي قبل زمن الانعزال في البيت، قبل ملايين السنين، لا تطلب مني أن أحدد لك رقمًا تقريبيًا لزمن عزلتي، لأنني نفسي لا أتذكر إن كنتُ فارقتُ هذا البيت يومًا!

أنا في غنًى عن نظرات رهبة أو نفور ترمقني بها الفتاة التي ستموت الليلة، صوت منظم القلب يُزعجني بما يكفي، تجاهلتُ سؤالها كأنه سُعال، ظاهرة صوتية كأغلب حديث الناس.

لكنها قالت ما أيقظ أمارات الدهشة الراقدة في ثنايا وجهي:

- هل أنتَ أحد أهل البلد الذي لا يتسمَّى فيه أحد؟

- البلد الذي لا يتسمَّى فيه أحد! ماذا تقصدين؟

سؤالٌ بسيطٌ كما ترى، لكن جوابها لم يكن كذلك، عدَّلتْ من جلستها المؤلمة فوق المقعد الخشبي، في عينها الحقيقية يتهادى بريق حماسي ساطع وهي تقول:

- إنه أحد البلاد التي مررتُ بها قبل أن آتي إليكَ، مباشرة بعد أن مررتُ بالبلد الذي تحوَّل إلى رحم، استيقظ أهل البلد ذات صباح صيفي وتفاجؤوا بأن الأسماء قد اختفت، لا أحد يتذكر اسمه أو اسم أمه أو أبيه أو إخوته أو زوجته أو أبنائه أو أقربائه أو أصحابه، تبخَّرتْ أسماؤهم من الذاكرة ومن الأوراق الرسمية كأنهم لم يولدوا قط، كل البيانات سليمة ما عدا الاسم، فإنه غير موجود.

مضت أيام وليالٍ دون أن يعثروا على أسمائهم المفقودة؛ ولحاجتهم إلى أسماء ينادون بها بعضهم البعض اقترح أحدهم: «فلنختَر لأنفسنا أسماء أخرى». نال اقتراحه استحسان جميع أهل البلد، وفي صباح اليوم

التالي تكرر الأمر ذاته، يتذكرون كل ما حدث معهم بالأمس، إلا أسماءهم الجديدة التي اختاروها بأنفسهم لأنفسهم، وكلما حاولوا أن يتخيَّروا أسماءً جديدة؛ لا يطلع عليهم النهار إلا وقد نسوها ككل سابقاتها، حتى كَلَّ الناس وملُّوا، فقال أكثرهم حكمة:

- لعل الأسماء هربتْ منا لذنب أصبناه، فليبحث كل منا عن ذنبه، وليُكفِّر عنه؛ علَّ الأسماء تعود لنا يومًا.

استجاب له أهل البلد صغيرهم وكبيرهم، كل من أتى ذنبًا ولو كان صغيرًا أخذ يُكفِّر عنه ويستغفر ربه، حتى أضحى البلد كله بلا عُصاة، يتقي الجميع ربه في نفسه وغيره. وذات صباح شتوي استيقظ الجميع وقد عادتْ أسماؤهم الأولى إلى ذاكرتهم، فرح الجميع وهشُّوا وبشُّوا، أما الرجل الحكيم فأخذ يفكِّر لمَ اختفت الأسماء؟ ولمَ عادتْ؟ وما علاقة الأسماء بذنوب أهل البلد؟ حتى مرَّ على البلد غجري يُؤلِّف المواويل، استشاره في أمر ما كان، فقال له الغجري:

- الأسماء شرفُ الإنسان يا ولَدي، لا يمتلكها أناسٌ بلا شرف. ثم تركه وأخذ يتغنَّى بموال جديد:

وكان في بلدة من البلدان

أناس بلا اسم ولا عنوان

نخر الذنب عقولهم

فأصبحوا حيارَى في الميدان

كل كريم باسمه يُعرَف

وكل لئيم عقابه النسيان.

ختمت الفتاة الطاووس حكايتها عن البلد الذي لا يتسمَّى فيه أحد، قائلة بأسى كأنها تتحدث عن ذويها وأحبّائها:

- لما عرف الناس أن خسارة الأسماء لا تسلبهم إلا الشرف، اطمأنوا إلى خسارتها، ورضوا بفقدانها؛ إذ ملوا الطاعات، فعادوا إلى غيّهم وظلمهم، أضحى كل مولود يُولَد دون أن يبذل أبواه الجهد في منحه اسمًا يُميِّزه، استخفّوا بالعقوبة وظنوا أن الأسماء لا وزن لها ولا قيمة، لم يعرفوا أن الأسماء تُحفَر في القلب، ويتطبع بها الإنسان، لم يشعروا يومًا بالنقص؛ لأنهم لم يفهموا قيمة ما فقدوا؛ إذ إنهم كانوا منذ البداية أناسًا بلا شرف!

وهكذا، كلما مررت بالبلد وسألتَ أحدًا عن اسمه، يصمت ولا يجيب.

ثم مدَّت يدها في حقيبتها القماشية التي تسع العالم، أخرجتْ منها بطاقة لرجل وأخرى لامرأة، بها كل البيانات الرسمية إلا إنها خالية من الأسماء. قالت بابتسامة صغيرة رائقة وهي تشير نحوي:

- عندما لم تُجِبني باسمكَ ظننتكَ أحد أهل هذا البلد.

لا أصدق حرفًا مما تقول؛ هذه الفتاة كاذبة، وتعرف أنها كاذبة، وأنا أعرف أنها كاذبة، وأنتَ تعرف أنها كاذبة، ولا بد أن مركز الكذب في منطقة «الناصية» بالدماغ أعلى مقدمة الرأس في أوج نشاطه في هذه اللحظة.

في اللحظة التي أوشكتُ أن أصفعها بكلمة «كاذبة»، سمعتُ صوت ارتطام قوي أفزع الفتاة، وجعلها تنتفض من فوق المقعد الخشبي، تصيح بلوعة وهي تنظر إلى الجدران من حولها:

- أرجوكم ليس الآن!

***

10

لم يكن صوت الارتطام سوى حجر مُلتفّ حوله خيط، مربوط إلى علبة دائرية بلاستيكية صغيرة، أسقطه ساكن الطابق العلوي عبر المدخنة إلى وسط المدفأة في الصالة.

أخذتُ الحجر من تجويف المدفأة، مزقتُ الخيط وأدرتُ العلبة الصغيرة بين أناملي، لمحتُ نظرتها الفاحصة للعلبة قبل أن أدسها في جيبي، أشرتُ إلى السقف، ثم قلتُ ساخرًا:

- ساكن الطابق العلوي لا يدفع إيجاره أبدًا، لكنه يُهاديني من وقت لآخر، مُستأجِر عجيب.

- وأنتَ، كيف تدفع له إيجارك؟

- أنا صاحب البيت!

بدا على وجهها عدم اقتناع، وكأنها لا تُصدق ما أقول، هل تراني صعلوكًا غير قادر على امتلاك بيت من طابقين؟ شعرتُ بالإهانة، وعندما أشعر بالإهانة تُزقزق عصافير بطني جوعًا.

توجهتُ صوب المطبخ الأمريكاني المبقور كبطن حوت تتبدَّى كل أمعائه خارجًا؛ أكوام من الأكواب والأطباق والملاعق غير النظيفة مُكدَّسة

فوق الرخامة الرمادية التي لا يستطيع الرائي تمييز لونها لكثرة ما حُمِّلتْ به من أوانٍ وأغراض.

تحسبها مكدسة بغير عناية، لكنك لو أزحتَ ملعقة واحدة لتساقط الجبل وتحطَّم، إنها العشوائية الخلَّاقة التي في عبثها دقة لا ترصدها العين المجردة من الإيمان! الإيمان بأن كل شيء قدر، أو خُلقَ ليُحقق قدرًا.

بحثتُ بدقة عن سلَّة من الخوص وسط العشوائية، حتى عثرتُ عليها.

أكره تلك المطابخ اللعينة التي لا تستر عجوزًا أمام زائرته الجميلة، نعم الفتاة جميلة بحق، ألم أخبرك بذلك؟

ليس ذلك الحُسن المصطنع الذي هو نتاج شد ونفخ وحشو وسَمكَرة، بل لها جمال الماء، هل تعرف جمال الماء؟ إنه الجمال الذي تستطيع تذوُّقه، لكنكَ تعجز عن تعريفه.

لكي تروي ظمأكَ منها لا تحتاج سوى رشفة واحدة، إذا قررت الفتاة هذه الليلة أن تلعَب دور السقَّاء؛ ستجد أمامها عجوزًا لا يُمانع في النهل من قِربتها، لا عن شغفٍ، بل طمعًا في التفرُّد؛ سأكون أول رجل ينام بين ذراعي الموت دون أن يمسَّه.

هل اشمأززتَ مني؟ صدقني وأنا أيضًا اشمأززتُ مني، أرأيتَ أي دروب مُظلمة قد تقودنا إليها مطامعنا؟ كلنا نعيش حياة فاجرة في الخيال، الخوف لا يقرَب أرض التمنِّي والأحلام، لذلك أحب الواقع رغم مرارته، وأكره الخيال رغم جموحه وحلاوته.

استرقتُ إليها النظر وأنا أُخرِج زجاجة مياه من الثلاجة، نحيفة جدًّا -الفتاة لا الثلاجة- شفَّافة جدًّا، هشّة جدًّا مثل الفراشات، لولا ألوان

الطاووس التي تشع منها لشعرتُ تجاهها ببعض الأُلفة، لكنني لا أشعر نحوها سوى بنفور خام، نفور عجوز لا يحترم الأحياءُ ولا الأمواتُ عُزلَتَه.

بالطبع انتبهتُ إلى عبارتها العجيبة حين سمعت الحجر يسقط في منتصف المدفأة: «أرجوكم ليس الآن!»

قالتها وهي ترمق الجدران من حولها بطريقة دفعت الخوف لأن يتمسَّح بجسده في الجدران، كأنه يُحاول الامتزاج بها، الامتزاج ببيتي، كأنه ينوي العيش معي إلى الأبد!

قالت عبارتها العجيبة هذه فقط لتثبت لي صدق ظنوني فيها، هذه الفتاة عضوة في عصابة سطو على المنازل، أو أحد أفراد شبكة تجارة أعضاء دولية، تسعى لسلب كبدي ورئتي وعيني ومخي وطحالي،

لكنها تريد أن تتخير لحظة مناسبة لإعطاء أفراد العصابة إشارة الهجوم، لحظة لم تأتِ بعد.

***

لم أنسَ المصيبة التي ترقد فوق فراشي، آه لو وقعتْ أنظار الفتاةُ الطاووس على الجثة، لكانت خطة عظيمة كي أدفعها لمغادرة البيت إلى غير رجعة، ولتخلصتُ من هذا الخطر المحدق بي، ولقتلتُ الخوف في منتصف جبهته، لولا حالتها الطبية النادرة التي أسالتْ لُعاب شغفي العلمي، أما لُعاب شغفها فكان يسيل أمام البقعة القبيحة في السقف!

قالت وهي تتفرَّس فيها، وتُشير إليها بأناملها النحيلة التي لاحظتُ للتو أنها لا ترتدي فيها أي خواتم مبهرجة كعادة النساء:

- إنها ضفيرة من فروع الأشجار، ما أروعها!

- إنها مجرد بقعة قبيحة تشوه السقف.

- لا أراها كذلك.

- عينكِ مخطئة إذًا.

- ولماذا لا تكون عينكَ أنتَ المخطئة؟

- بصري حاد، وأثق به.

- نحن نعيش في عالم يلعب على حواسّنا من أجل أغراضه، فلماذا لا يكون ما تراه مجرد خداع بصري؟

أزعجتني النقطة التي آل إليها سجالنا القصير، ربما لأنني لم أجد بجعبتي جوابًا منطقيًّا يُخرسها. قلتُ ساخرًا، بشكل خبيث لم ترصده فِطنتها:

- إذا كانت كما تقولين فأين الثمار يا تُرى؟ هل يحصدها الساكن في الطابق العلوي؟

أجابتْ بجدّية بالغة:

- الأشجار المزروعة في السقف، يرويها الساكن في الطابق العلوي، وأنتَ من يحصد ثمارها.

- الثمار الوحيدة التي أحصدها هنا هي محصول الطماطم خاصتي.

قلتها هازئًا وأنا أفتح الأقفال الستة المعلقة على باب إحدى الغرف الأربعة -أدخلتكَ غرفة نومي، وها أنا أدعوكَ والفتاة إلى دخول غرفة الحصاد لرؤية وحشي الأليف- اشرأبّت الفتاة بعنقها كي ترى من فوق كتفي محتويات الغرفة، كنتُ كريمًا معها، وأشرتُ لها بالاقتراب، ثم رسمتُ لها خطًّا وهميًّا بقدمي أمام الباب وقلتُ مُحذِّرًا:

- لا تعبري هذا وإلا ألقيتُ بكِ خارج بيتي.

أومأتْ برأسها في حماس، مسحتْ بعينين شغوفتين محتويات الغرفة الواسعة، ومحصول الطماطم الحمراء الدامية قوية المذاق، برائحتها التي تُشبه الصدأ، رحتُ أملأ بهم السلة التي أخذتها من المطبخ.

طافتْ نظراتها الفاحصة في المكان حتى توقفتْ عند وحشي الأليف، بدا على وجهها أمارات الصدمة؛ ارتدَّتْ خطوة إلى الخلف، ثم عادتْ لتقتربها وهي تمد عنقها، حتى تجاوز جِذعها الخط الوهمي.

صحتُ:

- مكانكِ.

- آسفة جدًّا، لن يحدث هذا مرة أخرى.

اجتاح وجهها إعصار من الانبهار، تساءلتْ مشدوهة:

- ما هذا الشيء؟

- الشيء! إنه نبات متوحش أقوم بتربيته منذ سنوات طويلة.

- من أي نوع هو؟

- من النوع الذي يروقني كثيرًا.

قلتها بغبطةٍ وأنا أدنو من نبتة تُماثلني طولًا، وتفوقني عرضًا، ساقها أسمَن من جزع عجوز مثلي مصَّته الحياة ثم بصقته. تمتد جذور النبتة العملاقة عبر التربة المزروعة بالكامل بثمار الطماطم دموية اللون، معدنية الرائحة، أوراقها مدببة الحواف، حادة كأنها سيف بتَّار، وقلبها لحمي اللون، ينفتح وينغلق كاشفًا عن أشواك تُشبه أنياب ضبع، أو اختصارًا لكل تلك الأوصاف أقول: «وحشي الأليف».

سألتني الفتاة متوجسة:

- ما نوع هذا النبات؟

- من النوع المفترس، يحتوي على الكلوروفيل، لكنه يحتاج إلى البروتينات التي لا يستطيع صنعها بنفسه، يمضي حياته بالكامل متطفلًا على بروتينات كائنات أخرى، ازدردتْ ريقها بصعوبة، انكمشتْ على نفسها، وهي تتساءل بخفوت:

- كائنات أخرى مثل ماذا؟

- مثل هذا.

قُلتها وأنا أخرج من جيب منامتي هدية الساكن العلوي، العلبة الصغيرة البلاستيكية الملتفة حول الحجر، الذي أسقطَه في المدفأة منذ قليل، بادرَتْ أمارات الاشمئزاز بأخذ مكانها فوق وجه الفتاة الطاووس، وهي تراني وأنا أفتح العلبة الصغيرة، وأخرِج من داخلها كُتلة من الدماء الفاسدة المتجلطة!

أدنو من النبتة، فتتفتَّح أوراقها كأن الربيع حلَّ للتو، تتحرك أشواكها الشبيهة بأنياب ضبع، تميل بجزعها صوب يدي، تلتقط الدماء بنهم شرس، مُصدرة صوت يشبه الهسيس.

تأكل ما في العلبة من دماء ولا تشبع، تهجم على يدي، أتركها تفعل، تغرس أنيابها في لحم ذراعي، تمتص منه ما شاءتْ أن تمتص من دماء، وما إن يدور رأسي وأشعر بروح الحياة تخبو في نفسي، حتى أبتعد عنها جاذبًا ذراعي؛ تمتعض النبتة وتعترض، تبغي مصِّي حتى آخر قطرة.

يثور غضب الفتاة، تقول بحدة مُستنكِرة:

- كيف تحتفظ بهذا الشيء البشع في بيتكَ؟

- يهوى الناس تربية الأسماك أو العصافير أو القطط والكلاب في بيوتهم، لماذا لا يحق لي تربية هذا النبات الظريف؟

سأعترف لكَ، انتابتني لذَّة رهيبة وأنا أستشعر نفور الفتاة مني ومن نبتتي، النفور قريب للخوف على درجة عالية في سلم القرابة، وأنا أحب أن يخاف الناس مني، أتلذذ بذلك؛ أن تكون مخيفًا مهيبًا، هدف يصبو إليه الجميع؛ كلما خافَكَ الناس، زادت قيمتكَ.

بادرتني الفتاة قائلة:

- هل تعتمد هذه النبتة البشعة على الدماء فحسب؟

- كلا، إنها تحتاج إلى التربية لتنمو.

رمقت الفتاة التربة المزروع فيها محصول الطماطم، ثم رجعتْ خطوة إلى الوراء، وعلى وجهها أمارات صدمة، جنبًا إلى جنب النفور، قالت بجزع:

- لا، أنتَ مخطئ، ما تحتاجه هذه النبتة لتنمو ليس الدماء ولا التربة، بل شيئًا آخر.

- تتحدثين كأنكِ عالمة بالنباتات المتوحشة.

لم تعبأ بسخريتي، أردفت بجدِّية بالغة كأنها رسول أتى ليُحذرني من خطر يحيق بالبشرية، ويعمل على فنائها:

- هذا النبات لا يتغذى على الدماء، إنه يخدعك بأكل كُتل الدماء الفاسدة أمام عينيكَ، لكن ما يمصه من داخل جسدك ليس الدماء، هذا النبات يتغذى على الطاقة، أنتَ لا تُطعِمه دمكَ، بل روحكَ.

- لا شيء بإمكانه أن يتغذى على أرواحنا.

- بل يتغذَّى الكثير على أرواحنا، جمادات ومخلوقات! لكل منا وحش يتغذَّى على روحه، بعضنا يعرفه كعدو فيُحاربه، وبعضنا يتخذه صديقًا وما هو بصديق، وبعضنا يحب الأخطار، يقترب منها بحثًا عن المغامرة، ظانًّا أنه سينجو من الموت كل مرة، لكن لا أحد ينجو، والدليل: الأموات الذين نلاقيهم طول الوقت في الطرقات، هؤلاء ظنوا أن بإمكانهم الاحتفاظ بالوحش دون محاربته، وأن بإمكانهم أن يعيشوا معه جنبًا إلى جنب في سلام.

هل لاحظتَ أنها تصف الناس بالأموات مثلي؟ قلتُ وقد استرعتْ كلماتها قدرًا ضئيلًا من انتباهي:

- هذا لأنهم أغبياء، لا يعرفون متى يقتربون ومتى يبتعدون.

- لا أحد يحوم حول الشبهات والشهوات إلا وتطاله حممها، تُشوهه، تحرقه، والأسوأ أن يكون الإنسان مُصابًا ولا يُدرك أنه مُصاب، فلا هو يسعى للشفاء، ولا هو يتّقي الداء.

تركتها تهذي ولم أعط لكلماتها بالًا، عكفتُ على ملء السلة بالطماطم الطازجة، ثم توجهتُ صوب باب الغرفة فأفسحتْ لي الفتاة الطاووس على الفور، كأنها لا تطيق الاقتراب من العجوز الذي يقبل بالدماء الفاسدة كهدية، كي يُطعم بها نباتًا متوحشًا يُربّيه في إحدى غرف بيته الأربعة.

***

في المطبخ وضعتُ الطماطم في وعاء على النار استعدادًا لإعداد «المربى»، ثم رحتُ أخرج من الثلاجة كمّية لا بأس بها من برطمانات «مربى» الطماطم التي أعددتها سابقًا، وضعتها في السلّة، ثم ربطتُ السلة بحبل طويل ينتهي وسط المدفأة، ويمر عبر مدخنة طويلة تصل البيت بسطحه.

هكذا اعتدتُ أن أتصدّق على سكان الحي بـ«مربى» الطماطم الطازجة، حتى عرف الناس بيتي بأنه مخزن «مربى» الطماطم، وموزعها. اعتاد الجميع تسلق السقف، وسحب السلة، والتهام «مربى» الطماطم في نهم.

سمحنا للسماد الكيماوي أن يختلط بترابنا، فقتل تركيزه العالي دودة الأرض، وفقدت ثمارنا العناصر النادرة التي كانت تمنحها دودة الأرض لها، فأضحت الفاكهة والخضروات مشوَّشة الطعم، هزيلة الرائحة.

هل فهمتَ الآن عظم ما أصنع لسكان الحي عندما أهديهم عصير طماطم طازجة دون أسمدة صناعية؟

كيف أتصدق عليهم وأنا أبغضهم؟ هذا ليس عجيبًا كما جال بخاطركَ الآن! إنكَ أحيانًا تتصدق بأدبكَ على فقراء الأدب، وهذا لا يعني أنكَ تحترمهم، بل تُثبت لهم أنكَ صاحب اليد العليا التي تجود وتُحسِن، وأنهم اليد السفلى التي تأخذ ولا تشكر.

- كم أنت طيب العقل.

قالتها الفتاة الطاووس، أشعرتني بالحرج، لا أتذكر متى كانت آخر مرة مدحني فيها أحد لا يريد مني شيئًا في المقابل؟ ربما لم يحدث قط. رغم أنها اقترفتْ خطأً سخيفًا؛ إذ استبدلت «العقل» بـ «القلب»!

تنحنحتُ قائلًا:

- إنها عادة لا أكثر، هذا البيت يجود بـ «مربى» الطماطم على الجميع، هكذا عرفه الناس، وهكذا سيستمر الأمر.

- حتى وإن كانت عادة، يجب أن تحصد المديح عليها، أنتَ طيب العقل حقًّا.

أخطأتْ ثانية!

تقف في منتصف الصالة الآن، تتأمل البقعة القبيحة، أدنو منها بينما تراقبني في صمت، أرفع رأسي، أتأمل بقعة السقف بدوري، لم أجد الضفيرة المزعومة التي تتألف من فروع الشجر، هذه الفتاة تُخرِّف.

قالت وهي تشير إلى البقعة وفي عينها نظرات برَّاقة:

- هكذا تتواصل معه.

- مع من؟

- مع مَن يعيش بالأعلى.

لمَّا رأت في عيني نفورًا من حديثها غير المنطقي، قالت بحماس -وعندما تتحدث بحماس تتحرِّك كفّاها، وذراعاها، وعينها، ورأسها، وكأنها تلك اللُعبة التي على شكل كلب والتي توضع في مقدمة السيارة-:

- عليكَ أن تفهم لغة المكان الذي تعيش فيه كي تتمكن من العيش بسلام، لكل بيت لغة، وهذا البيت لغته فريدة جدًّا، انظر إلى السقف، انظر كيف يتحدث، أليس هذا بديعًا؟

بيت له لغة! لك أن تتخيل أي غضب يتنامى بداخلي الآن، أي سخف هذا، كيف يكون للجمادات لغة؟

هل تتحدث إليك نظّارتك؟ منامتكَ؟ مكتبتكَ؟ هل سمعتَ يومًا مَقعدًا يدعوكَ للجلوس؟ ونافذة تدعوك للاقتراب؟ وفنجانًا يُعاتبكَ على إهماله؟ وثلاجة تغضب عليكَ لكثرة تحرشكَ بها؟

هذه الفتاة كأنها خُلِقَت من نسيج القصص!

كل أبجدياتها ومعلوماتها وأفكارها عن الحياة والبشر والجمادات، أعادتْ ترتيبهم في شكل حكايات خيالية.

كأن الفتاة نفسها قصة تَحكي نفسها بنفسها، بخُيَلاء حكَّاء، وغرور كاتب، كم أكره القصص!

إنها ليست الفتاة الطاووس فحسب، إنما أيضًا الفتاة القصة!

تحرَّكَت الفتاة القصة مُبتعدة عني، انتبهتُ في اللحظة الأخيرة إلى أنها تدنو بخُطًى حثيثة من غرفة نومي، بابها مغلق بستة أقفال لها أرقام سرِّية لا يعرفها غيري، ورغم ذلك صرختُ:

- لا تقتربي من هذه الغرفة.

قُلتها بنبرة مُذنب، وبنظرة مُذنب، وباندفاع مُذنب؛ نظرتْ إليَّ الفتاة القصة نظرتها إلى مذنب، فارتعدتْ فرائصي، ماذا لو اكتشفتْ أنني أخفي جثتي في الغرفة؟ أو في أحسن الأحوال جثة تشبهني كأنها نُسخة كربونية من الأصل؛ حتمًا ستفضحني.

أمسكتُ بذراعها بغلظة، وسحبتها حتى المقعد الخشبي بجوار الباب، قلت بفظاظة مُتعمدة:

- لا تتحركي من هنا وإلا ألقيتُ بك خارجًا.

- ماذا تُخفي في تلك الغرفة؟

باغتني سؤالها، ارتبكتُ ارتباك مُذنب، ثم سارعتُ مدافعًا عن نفسي دفاع مُذنب:

- لا أخفي شيئًا. ماذا من الممكن أن أخفيه؟ ولم أخفيه؟ وممن أخفيه؟

ألم حارق ينغز صدري من الجهة اليُمنى، في موضع المُنظِّم الذي لا يكف عن «التكتكة»، الجهاز اللعين أوشك على لفظ أنفاسه الأخيرة.

عندما زرعتُ الجهاز لم يكن العلماء الكسالى -وقتها- قد انتهوا من اختراع المُنظِّم العصري، الذي لا يحتاج إلى أسلاك وبطارية وليس له عمر افتراضي، الآن وأنا أحاول احتساب السنوات في رأسي، أراها قد تجاوزت العشر بقليل منذ زرعتُ الجهاز أول مرة، وبالطبع دون فحص دوري للتأكد من كفاءته، وهذا تقريبًا هو العمر الافتراضي للبطارية.

والآن، من أين لي ببطارية جديدة، وطبيب يكفر بقسم أبقراط، ويقبل بإجراء جراحة عاجلة ببيتي؟

- لماذا أنا بالذات؟

هذا السؤال أكثر ما يثيرني منذ أن هتفَت الفتاة القصة من خلف الباب «لقد قطعتُ مسافة طويلة جدًّا كي أراكَ»، تفرَّستُ في قسماتها المنحوتة بدقة وهي تُجيب بنبرة هادئة، وبابتسامة واسعة:

- علمتُ أنك الوحيد القادر على إنقاذي.

- كيف علمتِ ذلك؟ من أخبركِ أنني طبيب مخ وأعصاب؟

أشارتْ إلى موضع قلبها، وقالت بصوتها المُبلل وقد ازداد بللًا:

- عقلي أخبرني.

الفتاة القصة تعاني خللًا إدراكيًّا عظيمًا، تتحدث عن قلبها كأنه موطن العقل!

- أنتِ تشيرين إلى قلبكِ، العقل هنا.

قلتُها وأنا أشير إلى رأسي، فارتسمتْ نظرة دهشة في عينها وهي تقول مُستنكرة:

- كيف تكون طبيبًا ولا تعرف موطن العقل؟ العقل هنا.

قالتها وهي تشير إلى قلبها!

هذه الفتاة مخادعة حقًّا، ليس بأكاذيبها وقصصها المُختلَقة، وأجوبتها التالفة فحسب، بل بنظراتها كذلك، هل نظرتَ من قبل إلى عين تسحبكَ لتغرقكَ بداخلها؟ عينها الحيّة تفعل ذلك، تربطكَ في مقدمة دوّامة، وتسحبكَ حتى تشعر بالدوار.

أما العين الميتة، مهلًا، إنها ليست ميتة تمامًا كما كنتُ أعتقد، إنها تتحرك!

11

أقسم لكَ أنني رأيتُ عينها الزجاجية الميتة منذ أن وقع نظري عليها أمام الباب أول مرة، أما الآن!

- ماذا حدث لعينكِ الزجاجية؟ كيف تتحرك كأنها حقيقية؟

أجابتني بذهول حقيقي:

- ليس لي عين زجاجية، عيناي طبيعيتان تمامًا.

ثم قالت ما هيَّج شياطين الغضب لتتقافز أمام وجهي:

- أنتَ الذي تملك عينًا زجاجية!

لو انضمت الفتاة القصة إلى مسابقة الكذب التي تُقام سنويًا في مقاطعة «كمبريا» شمال بريطانيا، لحصدت الجائزة الأولى دون عناء.

- أي هراء هذا؟ عيناي حقيقيتان كأشد ما تكون الحقيقية.

- انظر إلى نفسكَ في المرآة.

الفتاة الخبيثة تلعب لعبة مثيرة للأعصاب، لا أفهم تمامًا نيتها، ولكنها تسعى إلى إفقادي توازني، هذه الفتاة لا تُخطط لجريمة سرقة كما كنتُ متوهمًا، لو كان الأمر كذلك لاستدعتْ شركاءها في العصابة، ولانتهَت الليلة منذ وقت طويل، إما بسرقة بيتي ثم قتلي، أو سرقة بيتي وأعضائي ثم قتلي.

الفتاة القصة تسعى خلف شيء أكبر، الله وحده يعلم ما هو.

كنتُ لأنظر في المرآة فقط لأثبت لها كذبها المفضوح، لولا أنني لا أملك مرآة في بيتي، لا أحب أبدًا أن أراقب الشيب وهو يغزو رأسي، والشحوب وهو يعتلي وجهي، والذبول وهو يطفو فوق مقلة عيني.

صحتُ مغاضبًا:

- ليس لي عين زجاجية، لا تكذبي.

- لا أكذب، عينكَ تبدو كأنها حوض سمك يشف ما خلفه، لكنه حوض خالٍ من الحياة.

كدتُ أصفعها، وأسحبها من شعرها لأمسح بها الأرض، وأكنس بشعرها الأشعث سجادتي العجمية، لكنها اندفعت تصيح -وتلك هي المرة الأولى التي أراها غاضبة-:

- هل تثق في عينيكَ إلى درجة أن تصدقهما وتُكذبني؟

- نعم بالتأكيد أثق في عيني.

- ألا تخدعانكَ أبدًا؟

- أبدًا، كل شيء موجود أراه، وكل ما لا أراه غير موجود.

- أنتَ واهم، لا يمكنك تفسير كل شيء بشكل فيزيائي مادي، ذرَّتان من الهيدروجين وذرة أكسجين يكوّنان الماء، لكن الماء أكثر من مجرد اجتماع ثلاث ذرات.

- ماذا تقصدين؟

- عيناكَ تخدعانك أحيانًا، أو لنقل أنها ترسل لعقلك رسائل خاطئة، فيترجمها بصورة خاطئة، وتثير بداخلك عواصف من المشاعر الخاطئة، عينك ضيقة القدرة مثل نافذة لها أبعاد صغيرة، بينما عقلك المحبوس بالداخل يظن أن ما يراه خارج النافذة هو العالم

كله، إذا رأت عينك مشهدًا لصديقك وهو يصوب مسدسًا تجاه ابنكَ ثم ترمش بعينكَ لحظة، وفي التالية ترى ابنك ميتًا برصاصة في رأسه، سيترجم عقلكَ هذا المشهد بأنه فِعل إجرامي من الصديق؛ صديقكَ قتل ابنكَ، لكن عينك محدودة القدرة لم ترَ المجرم الذي كان يقف خلف ابنك على مبعدة منه، وأن الصديق كان يصوب المسدس نحو المجرم لا ابنكَ، لكن رصاصة المجرم كانت أسرع من رصاصة صديقك.

- لا أفهم، ما هدفكِ من كل ذلك؟

اقتربتْ مني تقول بأسى:

- لا تثق في كل ما تراه، لا تمنح عينك الثقة المُطلقة، بينما عين طائر في السماء تستطيع رؤية أنماط لونية فوق البنفسجية على ريشها، تكون عينك أنتَ عاجزة عن رؤيتها، توقف عن أن تكون أعمى.

- أعمى! أنا أراكِ وأرى كل شيء حولي، كيف تقولين أعمى؟

تنهدتْ بحسرة، وكأن عجزي عن الفهم ينخر روحها هي، ثم قالت:

- عمى معرفي، عمى عاطفي، عمى سلوكي، إنها ثلاث نقاط عمياء نملكها، والذكي وحده هو من يدركها، ويحاول استيعابها.

بدت مختلفة تمامًا عن صورة الفتاة الهشّة التي كنتُ أراها عليها منذ دقيقة فحسب، مثل الأفعى بدَّلتْ جلدها في لحظة!

شجعها صمتي على الاستطراد في حديثها، بينما كان صمتي هو الهدوء المكبوت الذي عادة ما يسبق العواصف:

- تكون مصابًا بالعمى المعرفي عندما ينحاز عقلك إلى الأحكام المسبقة على الآخرين، عندما ترى نفسكَ في صورة معرفية

خاطئة، سواء إيجابية أكثر أو سلبية أكثر، حتى ذاكرتكَ لا تتعامل مع الوقائع فحسب، وإنما يتخللها مسحة من الوهم والخيال فتمحو ما تشاء من ذكريات وتحتفظ بأخرى، وتخلط أحيانًا بين ما حدث وما تمنَّيتَ حدوثه. وتكون مصابًا بالعمى السلوكي عندما تأتي بنفس الأفعال التي تستنكرها من الآخرين؛ تتهمهم بالزيف والكِبر والكذب والخيانة والعنصرية والطبقية، بينما أنت غارق في بعض هذه الصفات، أو كلها! لا ترى أفعالكَ التي تؤذيهم، وتحسبهم هم من يسببون لك الأذى. وتكون مصابًا بالعمى العاطفي عندما تفشل في ترجمة مشاعركَ، أو قراءة مشاعر من حولك، تتعمد أن تتعامى عن مشاعرهم التي تؤرقكَ، أو تُرهقكَ!

أخذَت نفسًا عميقًا ثم أضافتْ:

- عينك التي تثق بها كثيرًا لها فسيولوجيًّا نقطة عمياء، تغيب عنها مستقبلات الضوء، فتحجب عنها مجال الرؤية بالكامل.

ثم ابتسمتْ بمرارة وهي تضيف:

- وهل تعرف ماذا يفعل عقلكَ كي يعالج نقطتكَ العمياء؟ يُخرج ريشة الخيال، ويستكمل التفاصيل التي حجبَتها النقطة العمياء بمساعدة عينك الأخرى.

ثم دنتْ مني أكثر مما سمحتُ لأي شخص آخر أن يقترب؛ أكثر مما سمحتُ لـ «عصفور» نفسه، وقالتْ بصوت يُشبه البصق:

- أنت لا تملك إلا عينًا واحدة فحسب، والأخرى ميتة لا حياة فيها؛ لذلك لن ترى الحقيقة أبدًا، لن ترى شيئًا دوني، أنا عينكَ الأخرى!

أكره أن أعترف لكَ أن الفتاة القصة هزَّتني قليلًا، لا هزة الشخص غير الواثق بنفسه؛ بل هزة عدم فهم ممزوجة بالغضب، الفتاة القصة

تتحدث بحكمة تتنافى مع صورتها الهزيلة التي رسمتها لها في عقلي، مستعينًا بهيئتها وتصرفاتها.

تقول في صفاقة إنني كي أتخلص من نقطتي العمياء عليَّ أن أستعين بها.

إذا كانت عين الطيور التي تقع على جانبي الرأس تمنحها مجالًا واسعًا للرؤية، وعين الطيور التي تقع في مقدمة رأسها تمنحها رؤية مزدوجة؛ فتتمكن من تقدير العمق، إذًا فأنا كـ «لوط» أتمتع بعين جانبية وأمامية تمكنني من رؤية كل شيء، وسأرد كلمات ابنة الأمس هذه في وجهها.

أمسكتُ ذراعها بقوة، تلذذتُ بآهات الألم التي ندَّتْ عنها، شعرتُ بالغبطة، عجوز لكنني مصدر ألم وخطر للآخرين، كم هذا جميل! هتفتُ بقسوة:

- اسمعي، لم تُجيبيني على أي سؤال بشكل منطقي، سأسألكِ سؤالًا أخيرًا، كيف أصيب رأسكِ بهذه الرصاصة؟ إن لم أسمع منكِ جوابًا مقنعًا سألقي بكِ خارج بيتي في الحال.

حررتْ ذراعها بصعوبة، لكن بقوة جسدية أكبر مما تخيلتها عليه، ثم فتحت فمها لتروي قصة:

- كانت تتبعني مثل ظلي، ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً، كنتُ أحب ذلك في بادئ الأمر، كيف لا أحبه؟! الإنسان لا يحب العيش منفردًا مثل الأميبا، نحن نحب الالتصاق بالآخرين، نأنَس بهم، ونتلمَّس الدفء في وجودهم، لكنها لم تكتفِ بالدفء، أشعلت النار بيننا، سمِّها الغيرة إن شئتَ، أنا أسميها نار «التفرُّد»، الإنسان يحب الالتصاق بالآخرين نعم، لكنه يكره أن تكون له نسخ تشبهه.

سأقطع حديثها في عقلي عند تلك النقطة لأخبركَ أنني شعرتُ برجفة عندما ذكَرَتْ أمر «النُسخ التي تشبهنا»، طاف عقلي حول فراشي، حيث ترقد نسختي الوحيدة في هذا الكون الفضفاض جثة هامدة.

- لم أكن أنا البادئة بإشعال هذه النيران؛ كانت هي الفاعلة، وكل ما أردته هو النجاة فحسب، حاولتُ الابتعاد عنها، فازدادتْ قُربًا، وكأنها تخشى أن أتكاثر إلى نسخ جديدة وحدي، مثل الأميبا، فيصير لها بدل النسخة الواحدة اثنتين وثلاث وعشر، لذلك قتلَتني، أخرجتْ سلاحها وصوَّبتْ رصاصتها إلى رأسي، تقضي على النسخة الوحيدة التي تشبهها في هذا الكون الفضفاض.

هل لاحظتَ أنها استخدمَتْ نفس تعبيري «الكون الفضفاض»؟!

هتفتُ بغيظٍ:

- من تلك التي تتحدثين عنها؟ من التي قتلتكِ؟

أجابتْ بألم يطوف بعينيها الحقيقيتين:

- قتلتني «أنا» التي في المرآة.

كنتُ أثق أنها لن تنطق إلا بالهراء، قصة جديدة لا تُفضي إلى أيٍ مِن دروب المنطق. لم أعد أتحمل أن يلوِّث كل هذا الخيال عالمي المنطقي، على هذه الليلة أن تنتهي قبل أن تُنهيني؛ سحبتها من ذراعها إلى الغرفة الثالثة، غرفة الجراحة -إياكَ أن تحلم بدخول الغرفة الرابعة، لن أسمح لك أبدًا- ثم فتحتُ ستة الأقفال، دفعتُ بها، ثم أغلقتُ الباب من الداخل بستة أقفال أخَر.

تأملت الفتاةُ القصةُ ما حولها مبهورة الأنفاس، الغرفة رماديّة بالكامل، مُجهَّزة كما لو كانت غرفة عمليات في مستشفى كبير، بها كل ما يُعينني على دراسة حالة الفتاة القصة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

تأملتها وهي تدنو من كل أداة، جهاز، ومبضع، تتلمسهم بحنو عجيب، ثم -وكما لك أن تتوقع- اقتربَتْ من الجدار، ثم وضعت كفّها فوقه، وبصوت مشدوه قالت:

- الجدار بلونه اللحمي يتحرك هنا أيضًا، لكن بقوة أكبر!

هنا خطر لي خاطر عجبتُ كيف غاب عن تفكيري -يبدو أن عقلي ليس في أفضل حالاته الليلة- بالطبع الرصاصة هي السبب!

كما وضَّحت الأشعة والتحاليل، ترقد الرصاصة في مكان حسّاس من المخ، قد يؤثر على واحدة من حواسّها، أو اثنتين، أو جميعها، يبدو أن حاسّة النظر قد تضررتْ شيئًا فشيئًا، فترى الجدران تتحرك، والبقعة القبيحة في السقف آية إعجازية تستوجب التأمل والتفكُّر، وترى إحدى عينيَّ كما لو كانت زجاجًا، وتبدّل العقل بالقلب، كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟!

ويبدو أن ذاكرتها البصرية قد تضررتْ كذلك، فأصبحتْ تلتقط منها صورًا، وتهذي كي تُخرج منها قصصًا غير منطقية، الفتاة القصة مريضة، مريضة جدًّا، مريضة بالخيال، كل شيء أصبح منطقيًّا الآن.

***

اندفعتْ جحافل الأدرينالين تغزو عروقي، وتغذّي كل خلية في جسدي، الفتاة القصة كنز يستحق الدراسة، والآن يجب أن أدفعها إلى أن ترقد فوق طاولة الفحص، طوعًا أو كرهًا.

انتهتْ حيرتي، سأختار فحصها من الداخل، سيلج مبضعي رأسها في لحظات احتضارها الأخيرة، سأقف بجوار الموت عندما يأتي ليحصد روحها بمنجله، كم هي لحظة عظيمة!

- نامي هنا.

امتثلتْ لأمري وهي ترمقني بنظرة شكر، الفتاة القصة هي السذاجة تمشي على قدمين! كيف تثق بعجوز لا تعرفه ولا يعرفها وتُسلِّمه روحها؟

أمسكتُ حقنة مُخدِّرة، ودون أن أنظر إلى عينيها -شعرتُ بالتوتر حين فعلتُ خلسة- أفرغتُ محتويات السائل في عروقها، لحظات وكانت قد أسلمتْ عقلها لثقب أسود لا تعرف أنها لن تخرج منه مرة أخرى.

أوصلتُ أجهزة القياس بجسدها، احتجتُ إلى ساعة كاملة كي أجهِّز رأسها الجميل، حلقتُ شعرها المتموج، سقط تحت قدمي في استسلام صاحبته، ثم أمسكتُ بآلة حادة، وبدأت في فتح الجمجمة الجميلة.

كنتُ حريصًا ألا تموت حتى أرتوي من المعرفة، وأصاب بالتُخمة.

ما إن تبدَّى مخها الأبيض الطري حتى ارتعشتْ أصابعي شغفًا وحماسة، وصلتُ إلى موضع الرصاصة، رأيتها رأي العين؛ فزاد انبهاري بهذا الإعجاز الذي أشاهده ملء البصر، وألمسه بأناملي.

«تيييييييييييييييييييييييييييييييييي»

رغم كل الحرص، رغم كل الدقة، رغم كل الصبر، توقف قلبها اللعين عن النبض، وأصدر الجهاز هذا الصوت البغيض.

ماتت قبل أن أرتوي، ماتت قبل أن أصاب بالتُخمة، اللعنة عليها.

وعندئذ، أطبقَ الظلام على كل شيء!

12

جيش من الخِراف البيضاء يتخذ وضعية الاستعداد، كل خروف متكور على نفسه كأنه! كأنه كرة قدم، يتجهز لاقتحام بيتي، يتناهى إلى مسامعي أصوات الأسلحة المُعدَّة للانطلاق، والمدافع المُجهَّزة لهدم بيتي فوق رأسي، القرون المسنونة بحدّة لتنطح نطحة الموت.

أصرخ، أنفعل، أسب الخِراف وألعنها، أهدِّدها، أنا الذي لا أملك غير «الصامدة حتى النهاية» أواجه بها أعدائي.

تدنو الخِراف من بيتي، أكثر فأكثر، تُطوِّقه، تُضيِّق عليه الخناق، تسحقه، فأنسحق بداخله مثل حبة لوز تحت المطرقة، و...!

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

أستيقظ من النوم في تمام السادسة مساءً بعرق غزير، يتفصَّد من جبيني وجسدي، ما هذا؟ كيف نمتُ في فراشي؟ ولماذا جسدي عارٍ وكأنني ولدتُ للتو؟!

أنتفض من الفراش لأرتدي منامتي الرمادية، عقلي يُحاول استيعاب ما حدث وما يحدث، آخر شيء أتذكره هو وجودي في غرفة الجراحة في محاولة يائسة لإنعاش قلب الفتاة القصة، بعدما أصدر الجهاز صوت «تيييييييييييي» طويل يصم الآذان.

ثمة فجوة زمنية في ذاكرتي، تبدأ من الوقت الذي انقطع فيه الضوء، وحتى انتفضتُ في فراشي كما لو كنتُ مصعوقًا بالبرق، مُبللًا بالعرق، بعد كابوس عن غزو الخِراف البيضاء لبيتي.

في تلك اللحظة تذكرتُ تفصيلة هامة: الجثة!

التفتُّ بكامل جسدي؛ أصابتني رجفة كأنني أمسكتُ بسلك كهرباء عارٍ، على الفراش بجوار المكان الذي كنتُ أرقد فيه للتو ثمة جثة، نعم هذا بديهي ولا يستوجب الدهشة، لكن ما لا أستطيع استيعابه هو كيف تعرَّت الجثة بعدما غطَّيتها بمئزري الرمادي؟!

كما فعلتُ أول مرة، ألقيتُ عليه المئزر، لكن هذه المرة بأصابع ترتعش، بينما الخوف يتعلق بالسقف ويُحرك مصباح الإنارة يَمنة ويَسرة في جنون، ما الذي يحدث هنا؟!

الأقفال على الباب كما هي؛ أي إن الغرفة مغلقة من الداخل، وبما أن الجثة يستحيل أن تُبعَث من الموت قبل يوم الحساب، إذًا فأنا الوحيد القادر على إغلاق الباب من الداخل، لكن لماذا لا أتذكر ذلك؟ لماذا أُعاني من فجوة في الأحداث منذ اللحظة التي انقطعتْ فيها الكهرباء داخل غرفة الجراحة؟

أزحتُ الستارة الرمادية الداكنة قليلًا فرأيتُ الليل يُخيِّم على غابات الأسمنت، ويكسو الأرض بظلال تُلقيها مصابيح الشارع.

أتحرك صوب الباب، أفتح الأقفال الستة بحرص كأن جيش الخِراف ينتظرني على الجهة الأخرى، أمسح الصالة بعيني عدة مرات، أراقب الستائر الرمادية الداكنة وحركتها، والكنَبة «الإسطنبولي» وسكونها، وكرسي العرش وثباته، لا شيء هنا.

أخرج من غرفة النوم ببطء، ثم أغلق بابها من الخارج، وقبل أن أفعل، ألقي نظرة طويلة على الجثة.

- هل فقدتَ عقلكَ يا «لوط»، إنها جثة كأي جثة، لن تنهض لتُهاجمكَ فجأة!

ترك الخوف مصباح السقف، ووثب أمامي بلونه الأسود، لاحظتُ أن ظلًا خفيفًا يُلازمه، وتلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ظلًا للخوف، كأنه يتضاعف، أخذ يقفز أمامي هنا وهناك، نغزة ألم تسحق صدري، وصوت «تيك تاك» لمنظم ضربات القلب لا يتوقف.

عندما فتحتُ فُرجة من النافذة لأتأمل الشارع وجدته ساكنًا كما رأيته قبل نومي، لا أحد بالخارج، لا أحد على الإطلاق.

الموناليزا ليست في مكانها فوق الجدار. «الصامدة حتى النهاية» في مخبئها -الذي لم يعد سريًا- تحت كرسي العرش. الكعكة المحترقة لا أثر لها، و السجادة العجمية ملفوفة ومُسندة إلى الجدار!

الفتاة! توجهتُ من فوري إلى غرفة الجراحة، فتحتُ الأقفال بلهفة، ومع صوت آخر قفل دفعتُ الباب بقوة، ثم...!

اكتملتْ تفاصيل الليلة الغرائبية؛ اختفت الفتاة من فوق طاولة الجراحة، اختفت تمامًا كأنها لم تُوجَد قط!

***

غسلتُ فنجانًا، وأعددتُ القهوة، ثم جلستُ فوق كرسي العرش محاولًا ترتيب الأحداث في رأسي، والبحث عن تفسيرات منطقية، وسد الثغرات أمام كل النقاط العمياء.

أولا: أنا لستُ مجنونًا، ولا أتعاطى مادة تصيبني بالهلاوس، والخَرَف الذي يصيب كبار السن أبعد ما يكون عن عقلي حادّ التفكير.

ثانيًا: أنتَ أيضًا رأيتَ الفتاة في بيتي ليلة أمس، لا تقل إنكَ لم تفعل وإلا قطعتُ رأسكَ، رأيتَها وسمعتَها مثلما رأيتُها أنا وسمعتُها، ولو فتَّشتَ في خيالكَ فسترى لها صورة واضحة، واضحة جدًّا، بردائها الشبيه بريش الطاووس، وعينها التي لم تعد زجاجية، وشعرها المموّج، وأصابعها النحيلة، وحقيبتها القماشية التي تسع العالم، تتذكرها كأنكَ تعرفها منذ الأزل، وبما أن كلينا رآها إذًا فالفتاة ليستْ وهمًا.

ثالثًا: الفتاة ماتت أمام عيني، إياكَ أن تُشكّك في قدراتي، أنا طبيب وأعرف متى يكون المرء حيًّا ومتى يصير جثة هامدة.

أين اختفت جثتها إذًا؟ وكيف كنتُ أقف في غرفة الجراحة في لحظة، وفي التالية أستيقظ في سريري في تمام السادسة مساءً من اليوم التالي بجوار الجثة العارية التي تُشبهني؟

في بعض الأحيان يؤثر شرب الكحوليات مباشرة على الذاكرة، فتتوقف عن التسجيل، ويستيقظ المرء في اليوم التالي مع فراغ في رأسه، لا يتذكر ماذا فعل، أو ماذا قال الليلة الماضية؟

لكن ما يحدث معي هو العكس، ذاكرتي تتمتع بكامل لياقتها، بينما الواقع هو المنقوص، هو ما يعاني خللًا في شريط التسجيل!

هل تعرضتُ لما يشبه الخداع البصري، مثلما يحدث عندما يحاول العقل تحديد البُعد الثالث للأشكال المسطحة في الفراغ؟ هل كانت الليلة كلها خداع بصري بشكل لا يأتيه إلا عالِم أو ساحر؟

من الممكن أن أكون قد تعرَّضتُ لمعجزة بصرية أوهمتني بشيء غير حقيقي، أليس كذلك؟

كلا، لا يرتاح عقلي لهذا التفسير؛ به الكثير من الخيال، الكثير، وأنا العجوز المُعادي للخيال.

ثمة شيء غريب يحدث، أكبر من قدرتي على تفسيره، رغم ذلك فإن التفسير المنطقي الوحيد أن الفتاة الطاووس القصة خدعتني، بشكل ما، تظاهرتْ بالموت، بشكل مُحكَم للغاية لدرجة إقناع طبيب حاذق مثلي، ثم أطفأ الأنوار شريكٌ لها ينتظرها بالخارج، نهضت الفتاة الطاووس القصة عن طاولة الجراحة ثم خدَّرتني، أو خدَّرني شريك ثالث، ثم وضعوني داخل فراشي بعدما نزعوا عني منامتي الرمادية.

ولعل الجثة التي تشبهني جزء من خدعتهم؛ لإرباك أفكاري وخلخلة ثباتي النفسي.

تسألني لماذا كل ذلك؟ طبعًا من أجل إصابتي بالجنون، ظننتُ هذا واضحًا!

لا بد أن جنوني له قيمة كبيرة عند الفتاة الطاووس القصة وشركائها، لعل أحد الأثرياء ترك لي حصة كبيرة في وصيته، بعدما سمع بمهارتي الجراحية لتمويل شغفي العلمي، فأعد أبناؤه تلك الخطة المُحكمة من أجل إصابتي بالجنون، ومن ثمَّ يدفعونني للانتحار؛ للاستئثار بالتركة كلها.

نعم، لا بد أن تلك هي الخطة، وهي منطقيّة كما ترى، وتُفسِّر كل شيء بدقة، إلا شيئًا واحدًا فحسب، كيف أغلقوا أقفال باب غرفة النوم من الداخل؟!

وإن كانوا قد غادروا من الباب -وهو المنفذ الوحيد للخروج- كيف أعادوا غلق الأقفال على باب البيت من الداخل؟!

طبعًا يستحيل خروجهم من إحدى النوافذ؛ لأننا سنواجه عندها السؤال ذاته: كيف تم غلق أقفال النافذة من الداخل، وإعادة الستارة الرمادية الداكنة إلى موضعها؟!

هل ترى؟ إنها ليلة غرائبية بامتياز، لو عادتْ أمي من سَفرها الطويل الذي توجهتْ فيه صوب السماء؛ لطلبتْ مني أن أُفكِّر بإيجابية؛ سأحاول أن أفعل ذلك، لو لم تختفِ جثة الفتاة الطاووس القصة لكان لدي في بيتي مصيبتان، قنبلتان تنتظران نزع صمام الأمان لتنفجرا في وجهي، الآن لدي جثة واحدة بدلًا من جثتين، شيء عظيم يستوجب الاحتفاء!

***

سأتجاهل ذكرى الفتاة الطاووس القصة تمامًا كأنني لم أرها قط، سأمسحها من رأسي، سأدرِّب عقلي على ذلك.

ما لا تعرفه عن العقل هو أن ما ندركه بصريًا هو فقط ما يستسيغه العقل البشري، هو الذي نستطيع أن نفهمه، وبالتالي يترك فينا أثرًا عاطفيًّا واضحًا.

كل ما سأفعله هو أن أنظر إلى الليلة كأنها شكل عشوائي يُفسِد لوحة المنطق، لا يستسيغه عقلي، ولا يفهمه، وبالتالي لن يترك بي أثرًا عاطفيًّا.

هذا ما تفعله عندما تحاول نسيان حبيب، أو الافتراق عن صديق، إنك تتوقف عن أن تفهمه، وتتحول صورته في رأسك إلى كرة من الخيط قد خرجت للتو من فم كلب، فما عدتَ تدري أول الخيط مِن آخره.

ولكي أؤكد لنفسي ذلك، وطَّنتُ عقلي على التفكير في شيء واحد فحسب، كيف أتخلص من الجثة؟

أظن أن حل حِفظها بالعسل هو أسلم الحلول -ولو مؤقتًا- ولعلي أقنع «عصفورًا» فيما بعد أن يبيعها لأحد طلَبَة كلية الطب بثمن جيد، نتقاسمه معًا، أو -وهذا اقتراح مبتَكَر- أغمسها في الشمع المُذاب، وأصنع منها تمثالًا أضعه عند باب البيت؛ هدية للحانوتي الذي سيُغسِّلني

ويلفني في اللحد. المشكلة أنني ليس لدي ما يكفي من الشمع المذاب، لكن لدي كمية كافية من العسل.

تُسمّى هذه العملية بـ «التصبُّن» حيث تتحول الدهون في الجثة إلى شحم شمعي، للعسل قوة لا تُصدَّق قادرة على أن تحفظ أنسجة الجثة من التحلل، وتحافظ على شكلها.

هكذا فعل الآشوريون في بلاد ما بين النهرين، وهكذا تكهَّن البعض بأن اليونانيين حفظوا جثة الإسكندر الأكبر لنقلها من بابل إلى مقدونيا عن طريق غمرها بالعسل منعًا لتفسُّخه.

وها أنا أقدم معروفًا لهذه الجثة التي تشبهني، فأعد لها نوعًا من التحنيط المؤقت، لحين دفنها كما يليق بالجثث أن تُدفن.

رائع يا «لوط»، عندما بدأت التفكير بإيجابية؛ صار كل شيء أفضل.

***

لم أستطِع منع نفسي من الإتيان بطقس قراءة الطالع في الجدران، أمسكتُ بحجر النقش المبارك، ثم أغمضتُ عيني، وتركتُ يدي تسترسل في الرسم دقيقة كاملة، حرصتُ -ببعض الخبث- أن تنبعج الرسمة في شكل سلسلة من المثلثات المتداخلة؛ أحب المثلثات وأستبشر بها ولها تفسير لطيف في رأسي، وما إن فتحتُ عيني حتى ألجمت المفاجأة لساني، فما وجدته أمام عيني فوق الجدار كان رسمًا لثعبان يلتهم ذيله!

كيف حدث ذلك؟ أنا أثق أنني انحرفتُ بيدي -حسنًا بكثير من الخبث- كي ترسم ما أحب أن أراه مرسومًا، فكيف تكوَّن هذا الثعبان في شكله الدائري؟ أنتَ مرهَق يا «لوط»، هذا هو تفسير ما حدث، هيا، لا وقت لذلك، أمامكَ عمل كثير وليلة طويلة مرهِقة.

توجهتُ من فوري إلى المطبخ، وأحضرتُ كل ما أملكه من برطمانات العسل، رصصتها على الأرض في الحمام، أفسحتُ ستارة البانيو، ثم توجهتُ إلى غرفة نومي كي أحضر الجثة.

عجيب! أن ترى نفسكَ ميتًا تجربة مُلهمة وقاسية في الوقت ذاته، لم يخبرونا أن أشباهنا التسعة والثلاثين يشبهوننا إلى هذه الدرجة، ولم يخبرونا أيضًا -لن أنسى لهم هذا الخطأ- أنهم يموتون في أسِرَّتنا أحيانًا.

أمسكتُ بقدميه ثم، «طرررررراخ» أسقطته أرضًا! أزل هذا الامتعاض عن وجهك؛ من رحمة الله أن الجثث لا تتألَّم، لا داعي إذًا للتظاهر بالمراعاة والحساسية الجوفاء وأنا أتعامل معه.

سحبته من قدميه العاريتين، شعره الثلجي يكنس الأرض كمقشة، ووجهه يُنظِّفها كممسحة، هل أدهِن وجهه بسائل مُطهِّر للأرضيات ليكون احتكاكه بالأرض أكثر إفادة؟ حسنًا لا تغضب، كنتُ أمزح.

على الرغم من نحافته؛ مُهمة حمله وإلقائه في البانيو لم تكن سهلة على عجوز يُعاني من خلل في ضربات قلبه، وجهاز مُنظم أوشكتْ بطّاريته على النفاد، أو نفدَتْ بالفعل.

جسده ثقيل كأن روحه فارقته دون همومه، لماذا لا يخترع العلماء الكسالى جهازًا لقياس الوزن بالهموم لا بالدهون؟ الدهون غير مؤذية كالهموم، فلماذا نحرص على قياس الأولى، ونتجاهل الثانية؟

تهيَّأتُ لإفراغ برطمان العسل لبدء عملية التصبُّن، وفي اللحظة التي أدرتُ فيها الجثة كي نصير وجهًا لوجه؛ وقعَت أنظاري على شيء بشع، أبشع مما قد يصل إليه خيالك!

غادرتُ الحمام لأحضر مصباحًا يزيد من قوة إضاءة الحمام الهزيلة، وجَّهته نحو الجثة، تمامًا عند الصدر المشقوق.

نعم، الصدر مشقوق بالكامل، دون قطرة دماء واحدة، هذا الرجل لم يمُت فحسب، بل صُفِّيتْ دماؤه قطرة قطرة!

ارتديتُ قفازات طبية، سلَّطتُ المصباح بيدٍ، وبالأخرى باعدتُ بين شِقَّي الصدر، فقط لأكتشف أن الرجل بلا قلب!

نعم كما سمعتَ، الرجل بلا قلب! إن كنتَ لا تصدقني انزع عنكَ بلادتك، ومد رأسكَ الأجوف هذا وانظر معي، هل رأيتَ؟ لا قلب على الإطلاق؛ جريمة سرقة أعضاء واضحة، وهذا ما كان سيحدث لي لو لم تتولاني العناية الإلهية بالرحمة، وتختفي الفتاة الطاووس القصة وشركاؤها في ظروف غامضة، الله معي لأنني أستحق الرحمة، لستُ ذرة غبار كونية لا قيمة لها كما هو الحال مع الحثالة الذين يجوبون الشوارع ليلَ نهار، أنا مختلف، أنا مميز.

***

انتهيتُ من إفراغ مخزوني من العسل، شعرتُ بالإشفاق على خلية النحل التي اجتهدت في إنتاج هذا العسل، الذي كان مصيره في النهاية الدخول في عملية التصبُّن لجثة هي في الأساس طعام لدود الأرض!

يا له من عالم ساخر جشع، يتغذَّى بعضه على بعض!

صدري يعلو ويهبط، أتنفس بصعوبة داخل الحمام الضيق؛ أخرج وأغلق باب الحمام بالأقفال الستة، أتوجه إلى كرسي العرش كي أستريح قليلًا بعد هذا المجهود الشاقّ، عجوز يعيش داخل بيته لسنوات ولا يبذل مجهودًا أكثر مما يتطلبه فتح الثلاجة للحصول على شربة ماء، وصُنع «مربى» الطماطم؛ يجب أن تنحني له الرؤوس تقديرًا لكل ما بذله الليلة من جهود مضنية.

أغمضتُ عيني، وأسلمتُ جسدي لأردية الاسترخاء، تلفُّني كيفما شاءَتْ، كدتُ أروح في نوم عميق، عميق جدًّا، بلا جثث ولا خِراف عندما...!

طق.. طق.. طق.

أفسدتْ ثلاث نقرات متتابعة على الباب طقوس استرخائي، دون وعي توجهتْ أنظاري أولًا صوب باب الحمام، ثم قلتُ ساخرًا: «هل جننتَ يا «لوط»؟ بالطبع لن تنهض الجثة التي بلا قلب لتطرق باب الحمام، إنه باب البيت الذي لم يكُفّ الليلة عن إزعاجكَ».

نظرتُ من العين السحرية فلم أجد أحدًا، شعرتُ بخيال يمر أمامها فحسب، كدتُ أتجاهل الطرقات وأعود لمقعدي، لولا أنها ازدادتْ حِدّة، كأن العالم بالخارج على وشك الفناء، ويقف أمام بيتي الناجي الوحيد.

عالجتُ الستة عشر قفلًا، ثم فتحتُ الباب بقوة عازمًا على نهر الطارق، وسبِّه، وسبِّ أبويه، وأسلافه، وذريَّته إلى أبد الآبدين.

تسمَّرتُ في مكاني، وجحظتْ عيناي في محجريهما؛ رأيتُ الفتاة الطاووس القصة تقف أمامي بعينها التي لم تعد زجاجيّة، وملابسها التي تشبه ريش الطاووس، وشعرها المموج، وحقيبتها القماشية التي تسع العالم، تمد بأصابعها الطويلة النحيلة ملفًّا أزرق اللون، وعلى وجهها أمارات رجاء بائس.

كل شيء كما رأيتها أول مرة، باستثناء تفصيل صغير، أُذُنها اليُمنى، كانت اصطناعية! كأنها عجينة من المطاط تأخذ شكل الأذن الحقيقية دون لونها، كانت بلَونٍ عاجي كأنها أنياب فيل.

صوت طلقات ناريّة في الجوار يعمل كموسيقى خلفية للمشهد الحماسي، بينما صوتها المُبلل يتسرَّب إلى حواسّي وهي تقول برجاء ممزوج بأمل مُحتضر:

- أنقذني!

13

تَقلَّد الفضول في هذه اللحظة زمام الجسد، أرسل دفقات من الأدرينالين أشعلتْ دمائي حماسة. شعرتُ بظمأ رهيب، ظمأ إلى المعرفة؛ استجاب العقل، فبسطت الجوارح فروض الولاء والطاعة.

أشرتُ بيدي:

- ادخلي.

رميتها بنظرات ذاهِلة، متوجِّسة، فاحصة، تمامًا كما كنتُ أرمق الطاووس حين رأيتُ صورته لأول مرة في موسوعة الطيور.

في الشرق يُقدِّسون جمال ريشه ويعدُّونه رمزًا لأجنحة الملائكة، وفي الغرب يرونه فارغًا متغطرسًا ويعدونه رمزًا لصفات الشيطان، وبسبب صوته العجيب وأسلوب مشيته يُشبِّهونه أحيانًا باللص الأثيم، لكن أقسى الاتهامات التي رماها الناس على الطاووس، جلبه للحظ السيِّئ؛ إذ اعتبروا رؤية إنسانٍ للعين المرسومة فوق ريش الطاووس نذيرَ شؤم.

لا أعتقد تلك الخرافات، لكن لسبب ما انقبضَ صدري وأنا أتأمل العيون البيضاوية التي تملأ فستانها.

أشرتُ لها كي تمر من جهاز التعقيم، وما إن عبرته حتى بادرتُها:

- كيف غادرتِ غرفة الجراحة؟ بل كيف غادرتِ البيت؟ ومن الذي وضعني في فراشي عاريًا؟

نظرتْ لي ببلاهة الأطفال، وببلادة كلماتهم تمتمتْ:

- لا أفهم! أي غرفة، وأي بيت؟

وصلتُ إلى ذروة الغضب، لم أعد قادرًا على التحلّي بمقدار ذرة من تَفَهُّم، صحتُ عليها:

- إياكِ أن تحاولي خداعي، لقد غادرتِ بيتي فجأة عندما انقطعت الكهرباء ليلة أمس، كيف حدث ذلك؟ كيف تمكنتِ من غلق الأبواب من الداخل؟ انطقي.

بذات البلاهة والبلادة تمتمتْ وهي تهز كتفيها:

- حقًّا لا أفهم، عمَّ تتحدث؟ هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها بيتكَ!

انقضضتُ على رأسها، أبحث بجنون عن الشق الذي أحدثته آلتي الحادة؛ لا شيء في فروة رأسها سوى الجرح الملتئم الذي سبَّبته الرصاصة والذي خيطته يد إسكافي، لا شيء على الإطلاق!

هل أعيش حالة ديجافو؟ أم أنني أثناء نومي راودتني رؤية تتنبأ بالغيب؟ أم أن الفتاة وقعتْ على رأسها أثناء الهرب وفقدتْ ذاكرتها، وبدواء سحري ما التأم شق جمجمتها؟

أم أن -وهذا هو الأقرب للمنطق- هذه الفتاة تمارس عليّ خدعة ماكرة تُشبه ألاعيب الحواة والسَحَرة الذين يجيدون شق مُساعِداتهم إلى نصفين أمام آلاف العيون المُترقِبة دون أن تنكشف خدعتهم؟

تُشبه خدع «كريمات» النضارة والشباب، تدفع الواحدة منهن المئات وتجزم بأنها تشعر بجلدها ينتعش ويتوهج، بينما في الحقيقة هذه

الحرقة الكيميائية سببها تآكل مادة بيروكسيد الهيدروجين لخلايا بشرتها، فتمنحها شعورًا زائفًا بالنضارة والانتعاش.

أحب اللعب، وكما شاركتُ جارتي الحيزبون التي تُشبه رئةً يُمنى متضخمة لعبة التسلل حول بيتي وإخافتها، سأشارك الفتاة الطاووس القصة لعبتها المثيرة، أنا عجوز يحب التسلية، ويبدو أنها فتاة ساذجة تظن أن بإمكانها أن تصطاد بصنّارتها هذه الليلة سمكة سلمون بالغة.

لكنني دومًا أُنهي اللعبة بطريقة مخيفة مفزعة، فلا تنتظر مني غير ذلك، سألعب معها حتى يصيبني الملل، ثم أُخرج «الصامدة حتى النهاية» من تحت كرسي العرش، وأفرغ رصاصاتها في الهواء، أو في رأسها، أيهما أقرب.

سألتها مُتسليًا:

- من أين أتيتِ هذه المرة؟ آه، نسيتُ، هذا أول لقاء لنا، اعذريني أنا عجوز مُخرِّف، قولي لي، من أين أتيتِ؟

سألتها وأنا أغلق أقفال الباب، أحبسها في البيت الذي أتت إليه طواعية، الذئب الذي يتنكّر في جلد حَمَلٍ دخل بيتًا لا يعرف أن صاحبه كذلك، هو ذئب يتنكّر في جلد حمل، أعرفُ أن في لحظة آتية لا محالة ستسقط الأقنعة، ويتواجه الذئبان.

فركَتْ أناملها ببعضها؛ طلبًا للدفء بعدما جمَّدهم برد أغسطس، ثم قالت:

- مررتُ على بلاد عديدة قبل أن آتي إلى هنا، مثلًا البلد الذي لا يحل فيه النهار أبدًا.

جلستُ فوق كرسي العرش، وأشرتُ لها كي تجلس على المقعد الخشبي غير المريح، شبَّكتُ ذراعيَّ أمام صدري، ارتفع حاجبي في دهشة زائفة، ثم قلتُ بصوت يكسوه انبهار مُتصنَّع:

- عظيم، البلد الذي لا يحل فيه النهار أبدًا، هل حدثتْ مجاعة في البلد فأكل الناس الشمس؟

هتفتْ مُستنكرة، ترمقني كما ترمق مجنونًا في الطرقات:

- كلا بالطبع.

كان أبي يتفاخر بأنني طفل مطيع لا تمُر الألفاظ النابية في ساحات لسانه، ولم يعلم أنني كي أظهر أمامه بكل هذا الأدب كان عليَّ أولًا أن أُغلق على نفسي باب غرفتي، وأكتم أنفاسي بالوسادة، ثم أنطلق في استفراغ ما بداخل حُوَيصَلة الغضب من شتائم قديمة ومُستحدَثة.

هذا ما شعرتُ أنني بحاجة إلى فعله الآن، كي أستمر في الظهور بهذا الأدب أمام الفتاة؛ الفتاة تحسب أنني مغفل، وتعاملني كملك المغفلين.

دعني أخبرك أمرًا: أعرفُ امرأة زانية وكانت...!

لحظة، هل أزعجتكَ الكلمة، هل اشمأززتَ من حروفها وما تُصرِّح به من معانٍ؟ هل تظن أنني يجب عليَّ أن أستخدم لفظة أخفّ وطأة، مثل امرأة خائنة، امرأة مجرمة، امرأة قليلة الحياء؟ لا يا عزيزي، أنا أُسمِّي الأشياء بمسمَّياتها الحقيقية، وإن كان اللفظ قبيحًا فهذا لأن الفعل نفسه بالوعة قُبح عفنة الرائحة؛ إنها امرأة زانية، سأنطقها هكذا ولن أتلطَّف، وهل ذابت الحدود الأخلاقية بين الصالح والطالح إلا لترقيق الألفاظ وتشويش المعنى؟!

فلنعُد لحديثي، كنتُ أقول لكَ: أعرف امرأة زانية، رأيتُ طفلها، كان نسخة من رفيقها الزاني، أبيض البشرة، أزرق العينين، في حين أن

زوجها -المغفل- خمري البَشْرة، بُنِّي العينين، هل رأيتَ وقاحة أكثر من ذلك؟! إياكَ أن تحدثني الآن عن علم الوراثة، وعن الجينات السائدة والمتنحيّة؛ أقول لكَ الطفل نسخة كربونية من رفيقها، بأنفه الطويل، ومنخاريه الواسعين، بفمه العريض، وشفتيه الدقيقتين، رغم أن الشبه لم يكن بهذا الوضوح عندما كان الطفل أصغر عمرًا، لكن الحقيقة أبتْ إلا أن تكشف عن نفسها أخيرًا، عندما بدأت الشائعات في طَرْق آذان الزوج المغفَل، عندما تبدلتْ ملامح الطفل رويدًا لتكشف له عن الحقيقة، وتمنحه دليلًا ملموسًا لخيانة زوجته وصديقه، فيدرك الزوج المغفل كيف كان يعيش بقرني أيل في رأسه؛ إذ كان الرفيق الزاني هو صديق طفولته!

ألم أقُل لكَ إنه رجل مغفل بقرني أيل في رأسه؟

وهذه الفتاة كتلك المرأة، تعاملني كما لو كنت مغفّلًا بقرني أيل في رأسي، وهذا ما يثير عاصفة من الغضب بداخلي في تلك اللحظة.

ثم بدأت الفتاة في سرد قصة وهي تفْرُك أصابعها النحيلة ببعضها طلبًا للدفء:

- في البلد الذي لا يحل فيه النهار أبدًا -ليل طويل لا ينتهي، مثل شمعة احترقَ فتيلها ولم يعد لديها القدرة على الاحتفاظ بالنار- اعتاد أهل البلد على غياب الشمس، لا يملكون أراضي زراعية ولا نباتات، لا خُضَر ولا فاكهة، لا بهائم تأكل البرسيم، ولا دواجن تحتاج إلى العَلَف، يعتمدون في طعامهم على السمك الذي يصطادونه من بحيرة قريبة، ما إن مررتُ به حتى أثارني الفضول لأعرف لماذا لا تشرق الشمس على هذا البلد الذي تحوَّلتْ بشرة أهله إلى لون شاحب، ويُعانون من فقر الدم وسوء التغذية.

قال لي العمدة إن بلدهم كان يزوره الشمس كسائر البلاد، حتى جاء يوم شتوي غابت فيه الطيور عن السماء وعن الأرض، إلا طائر دودو مهيب الشكل، عظيم الهيئة، يُشبه العَنقاء العربية، ورغم أن بني جنسه لا يعرفون الطيران، إلا إنه كان يطير، أخذ يحط فوق رؤوس الجميع كأنه يُربِّت على عقولهم، أو يحذرهم من خطر قريب، فإذا بالأرض تنشق عن أفاعٍ صغيرة تخرج من كل مكان: من ملابسهم، وأوانيهم، وأسرَّتهم، وطعامهم، وأدبار كبرائهم، وعيون أطفالهم.

هلع الجميع وحاولوا قتل الأفاعي الصغيرة، لكنها كانت كثيرة، تجري بسرعة أكبر مما تحتملها أجسامهم العليلة، وفجأة اخترق السماء طائر الدودو العظيم، مكث يدور في السماء دورة كاملة، ثم هبط إلى الأرض وأخذ يلتقط بمنقاره حفنة من الثعابين، يُقطِّعها ويلتهمها، يملأ بها بطنه الذي كان باتساع البحيرة القريبة.

ظلَّ يدور ويلتقط، يُقطِّع ويلتهم حتى قضى على كل الثعابين الظاهرة، وهربت البقية إلى الجحور.

احتفى الناس به، قلَّدوه الأوسمة والنياشين، وأسموه بالسيد العظيم، ولأنهم ظنوا أن الأفاعي قد تعود من جديد؛ نصَّبوه دون رغبة منه بدلًا من عمدة بلدهم راعيًا عليهم، أعدُّوا له بيتًا عظيمًا من الخشب فوق سطح الديوان، وأخبرهم حكيمهم أن قدوم الطير بُشرى خير، ستعود بها الشمس بعد غياب، وأوصاهم بالصبر والأمل.

مكث طائر الدودو أيامًا وليالي لا يدري ماذا يصنع في شؤون البلد؟ لا يملك سوى قدرته على الطيران، والتي حُرم منها؛ إذ سلسلهُ الناس إلى حائط الديوان مخافة فراره.

مكث الطائر عمدة للبلد لأيام، ثم أسابيع وشهور، أطالوا خلالها السلسلة، فبات قادرًا على الخروج من الديوان دون الفرار بعيدًا، يأكل من

طعامهم متى اشتهى، وينام فوق أسرَّتهم متى حلَّ عليه النعاس، يقضي حاجته فوق رؤوسهم عندما يريد أن يقلد أمطار السحاب، ويدسُّ ريشه في أنوفهم وعيونهم عندما يريد أن يُجرِّب العناق. تكاثرتْ مشكلاتهم، ولم يُحسن طائر الدودو إيجاد حلول لها، سوى النقر والرفرفة، حتى ضاقوا به ذرعًا، فأخرج العمدة القديم بندقيته، صوَّبها على الطائر على حين غِرّة؛ إذ أدركَ أنّ عودته لمنصبه لن تحدث إلا بقتل العمدة الحالي، خرجت الرصاصة بدوي مفزع وأردتْ طائر الدودو قتيلًا في الحال.

لم يفهم أحد أن طائر الدودو لم يُرِد بهم سوءًا، إنما كان يعبر عن حبه لهم بلغته التي لا يفهمها سوى الطيور من بني جنسه، وأنه ما طلب منهم الإمارة، وما كان أهلًا لها، كانت له قدرة واحدة، فظنوا أنه يملك دكَّ الحصون، وتحريك الجبال، وزرع الأراضين، وقتل الأعادي، والأهم: إعادة الشمس إلى بلدهم. أنكر الطائر قدرته على كل ذلك لكن بلغة غير لغتهم، فلم يفهمه أحد، مات طائر الدودو غدرًا، نتيجة خطأ في الترجمة!

تذكرتُ حديثها السابق عن الجدران التي تتحرك، والآن تُحدثني عن منطق الطير، إنها الطريقة ذاتها التي تمنح للجمادات ولغير العاقل روحًا وعقلًا وحياة، أكَّد ذلك لي أنها الفتاة نفسها، التي التقيتُ بها قبل أن أستيقظ من الفراش أتصبب عرقًا، حتى وإن أنكرَتْ ذلك؛ أنا لستُ واهمًا، إنها الفتاة نفسها.

تظاهرتُ بفحص الملف الذي أحفظ جيدًا ما به، متجاهلًا التعقيب على قصتها -أو إن شئتَ الدقة: هلوستها- ثم سألتها:

- كيف أُصبتِ بالرصاصة؟

انتظرتُ أن أسمع الجواب السخيف نفسه، عن نسختها في المرآة التي أطلقتْ عليها الرصاص، لكنها كانت مبدعة بحق، كاذبة بارعة لعينة، أجابتني مُستنكرة:

- حكيتُ لكَ للتو!

- ما علاقة الطائر المُنقَرِض وقصته بالرصاصة التي في رأسكِ؟

- ألم تفهم بعدُ؟! لم يكن طائر الدودو سوى أنا، قتلوني لعجزي عن إتياني بما فوق طاقتي، قتلوني لأنني لم أرقى لطموحاتهم، قتلوني لأنني أنا، ولستُ أنا التي أرادوا مني أن أكُونها.

قالتها وهي تُخرج من حقيبتها القماشية التي تسع العالم ريشة كبيرة تدَّعي أنها لطائر دودو منقرِض! ألم أقل لكَ إنها كاذبة بارعة لعينة، تأخذكَ ظمآنًا إلى البحر، ثم تُعيدكَ دون أن يرتوي حلقكَ الجاف.

انساقَتْ صوب الجدار كأن قوة مغناطيسية تجذبها إليه، تُدندن بأنشودة لها لحن غريب، وكلمات غير مفهومة، كأنها تعويذة ساحرة من العصور الوسطى، تسير بحركة متناغمة كأن من رأسها تنبعث موسيقى دماغية خاصّة، تلمس الجدار بشوق، كأنه حبيب طالت غيبته، تلصق به أذنها المطاطية، تهمس في وَلَهٍ:

- أسمع صوت المحار، كم هذا بديع!

صوت المحار؟! من جداري أنا؟! إن هذا أكثر مما يحتمله جموح الخيال، الفتاة الطاووس القصة تُعاني من «غرغرينا» في ساق المنطق، ويجب أن تخضع لعملية بتر عاجلة كي ننقذ ما تبقّى من جسد المنطق. لكنني لستُ في مزاج رائق للقيام بهذه الجراحة، على أي حال هي ستموت هذه الليلة، فلماذا أزعج نفسي بإصلاح طريقتها في التفكير؟

شعَّ ثغرها ببسمة كبيرة، وهي لا تزال تلصق أذنها المطاطية بالجدار -وهذا ما يؤكد لكَ أنها تُعاني من خلل خطير في حواسِّها على إثر الرصاصة؛ إذ كيف تسمع بأذنها الاصطناعية؟- تهمس:

- اشتقتُ كثيرًا لهذا الصوت.

كتَّفتُ ذراعيَّ أمام صدري، وانغمستُ في التسلية:

- هل سمعتِه من قبل؟ أقصد صوت المحار من الجدران.

فارَت الحماسة من وجهها، وانسكبتْ من عينيها إلى أخمص قدميها، دنتْ مني، تُخرج من حقيبتها القماشية التي تسع العالم علبة فارغة تدَّعي أن الصوت محبوس بها! وتحكي لي قصة:

- في البلد الذي يأكل الأصوات لم يكن ثمة صوت للجدران؛ إذ يتغذَّى الناس على الأصوات صباحًا وعشيَّة، لا يوجد صوت للأحجار، ولا لحفيف الأشجار، صمتت الطيور والبحور والأنهار، كلما نبتت الأصوات عند مطلع الفجر أكلها الناس، حتى أصيبوا بالتُخمة، ووقع البلد بأكمله في حفرة كبيرة من الصمت باقي النهار، وطول الليل.

لم يعد الناس يسمعون سوى أصواتهم فحسب، متبوعة بآلاف الأصداء، تضخَّمتْ في الناس آذانهم، وعندما يتضاعف صوت المرء في أذنه تتحول إلى أذن مطاطية كبيرة، تغيَّر شكل الناس في الطرقات، وتعجَّب زوار البلد من الآذان المطاطية التي حلَّت محل الناس، حاولوا جلب سلالات جديدة من الحيوانات والطيور، واستيراد بحر جديد ونهر وأشجار، لا يمكن للناس أن يأكلوا أصواتها، لكن ظلَّت الأصوات تتوارى خلف بطون صمت مُطبق منزوع الروح.

كلما مر زائر على البلد الذي يأكل الأصوات خاف على نفسه من أن يستيقظ صباحًا فلا يسمع إلا صوته، مثلما لا يسمع أهل البلد إلا أصواتهم الخاصة، حتى ظنوا أنها مزيج من صوت الأرض والسماء، ظنّوا أنفسهم رسُلًا وأنبياء مأمورين باتباع ما تُمليه عليهم، ما يصل لآذانهم من أصوات، ونسوا أنها تنبع من دواخلهم،

ولا شيء سوى دواخلهم، وهكذا لم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب من البلد الذي يأكل الأصوات.

قلتُ وأنا أسترق النظر إليها:

- ألهذا السبب لديك أذن يُمنى مطاطية؟ لأنكِ لا تسمعين إلا صوتكِ الخاص؟

رمقتني بنظرة دهشة، وتعجُّب، واستنكار، حتى أوشكتُ على الظن بأن «بُرصًا» ما يؤدي عرضًا استعراضيًّا فوق جبهتي؛ قالت:

- أنتَ الذي تملك أذنًا مطاطية، إنها هنا!

قالتها وهي تشير صوب أذني اليُمنى! لم أستشِط غضبًا هذه المرة، ولن أحاول أن أثبتَ لها أنها هي التي تملك أذنًا يُمنى مطاطية، لا فائدة من إقناع الفتاة الطاووس القصة أنها مريضة بخيال ملعون، وأنها معجونة بكذب الأُدباء، و «هلاوس» الشعراء.

دنَتْ من الجدار، تحسستهُ بأناملها الطويلة كأنها تُملِّس على جسد طفل وقع أرضًا وخُدِشَتْ بَشرته، ثم قالتْ:

- ما كل هذه الندوب؟! لماذا تُعذِّبه؟ ألا يُزعجكَ صوت أنينه؟

صارحتها كطبيب لا يطيق رؤية مريضه ينغمس في بئر الأوهام:

- هذه الأصوات في رأسكِ فحسب، تسببت الرصاصة في خلل بوظائف حواسّكِ؛ لذلك ترين أشياء غير حقيقية، وتسمعين أشياء لا يُمكن سماعها.

- ألهذا السبب أسمع صوت «تيك تاك» قادمًا من جسدكَ؟

فاجأتني بسؤالها، تماسكتُ غير راغب في إظهار دهشتي، أجبتها:

- لا، هذا الصوت حقيقي، بداخل صدري جهاز منظم لضربات قلبي اللعين.

- لماذا تلعنه؟

- لأنه مجرد مضخة للدماء، ومع ذلك لا يؤدي عمله كما ينبغي.

- القلب أكثر من مجرد مضخة للدماء.

- نعم، فهمتُ، ستحدثينني الآن أحاديث المراهقين عن العواطف وكل هذا الهراء، ولهذا السبب هو لعين؛ المروحة تقوم بعملها في التهوية ولا شيء أكثر، أما هو ففوق أنه لا يقوم بدوره كمضخة كما ينبغي فإنه يحيك العواطف البلهاء التي لا تجلب على المرء إلا الشقاء.

- القلب هو مَحَل نَظَر الرب، والقلوب ثلاث: قلب ميت، وقلب سليم، وقلب مريض، وقلبك من النوع الأول حقيقة ومجازًا.

- أنتِ مجرد ثرثارة لا تفقه شيئًا مما تقوله.

- أحيانًا يكون للثرثرة هدف نبيل.

- كيف تحوِّلين الرغبة في الثرثرة إلى هدف نبيل؟

- عندما أقول الحقيقة متبوعة بنقطة سكوت جبرية، مثل: أريد أن أعيش معكَ هنا إلى الأبد.

توقف السجال بغتة، هل قالتْ ما أظن أنها قالته؟ لماذا ترغب فتاة على عتبات الحياة في العيش جنبًا إلى جنب مع عجوز على عتبات الموت؟

ما الذي يجذب الحياة إلى الموت؟ أم أنهما توءم سيامي مُلتصِقان لم ينفصلا من الأساس كي يعودا الآن للالتقاء؟

دُرْتُ حولها دورة كاملة، مثلما يحاول علماء الآثار فحص قطعة أثرية بنظرات دقيقة قبل لمسها، وعندما عدتُ لمواجهتها، سألتني:

- ما الفارق بينك وبين المروحة؟

سؤال عجيب! شعرتُ معه بقدر من الإهانة يفوق ما قد تشعر به إذا سألكَ أحدهم عن الفرق بينكَ وبين الكلب، على الأقل الأخير كائن حي، أما المروحة!

وقبل أن ألقي في وجهها كلماتي اللاذعة، أجابتْ هي عن سؤالها:

- القَصْديَّة، هذا هو الفارق بينكَ وبين المروحة؛ المروحة تدور وتُرطب عليكَ بنسمة هواء في منتصف أغسطس ليس لأنها تحبك، أو لأنها تريد ذلك أو تشتهيه، وليس لأنها ترى أن ما تقوم به عمل خير؛ بل هي مدفوعة بدوافع فيزيائية تجعها تعمل دون أن تسأل: لماذا تعمل؟

أما أنتَ فتملك القصدية؛ لا شيء تفعله إلا ولك منه غرض، ولا شيء يحيكه قلبكَ إلا وتستطيع أن تستخلص منه غرضًا نبيلًا، حتى وإن كان النُبل يكمن في قتل شهوة ما ببندقيتكَ في منتصف جبهتها، والتكبير عليها ثلاثًا قبل دفنها في إحدى غرفات قلبكَ.

عرفت ما المميز في هذه الفتاة؟! الذي لا يجعلني أركلها خارج بيتي في الحال، هذه الفتاة تملك إضاءة بيولوجية خاصة، كأنها يراعة، أو حبحاب مضيء!

يعمل إنزيم اللوسيفراز داخل جسد اليراعة على اتحاد الأكسجين بمادة اللوسيفرين، فتتأكسَد، ويشتعل النور من جسد اليراعة، هذه الفتاة تملك بداخلها إنزيمًا يجمع بين مواد خاصة جدًّا ينتج عنها تفاعلات تؤدي إلى إكساب جسدها هالة نور فوق بنفسجية أو تحت حمراء غير مرئية للعين العادية، لكنها محسوسة، تجذبكَ إليها، كما تنجذب الفراشة التي تطير فوق رأسي الآن إلى مصباح الصالة.

إن طارت اليراعة نهارًا كانت كغيرها من الطير، وإن طارت ليلًا فكأنها شهاب يخترق السماء، نار اليراعة شبيهة بنار البرق.

هذه الفتاة فوق أنها طاووس وقصة، فهي أيضًا لسان برق!

***

تهادَت الفتاة البرق في سيرها حتى وصلت إلى رخامة المطبخ الرمادية، التي لا يُميز الرائي لونها، أتابعها بشغف عجيب -لا تسئ فهمي- ليس شغف رجل ينظر إلى فتاة بجمال الماء، وإنما شغف عالِم يصبو إلى المعرفة.

غموضها يأسرني، يؤجج حماستي، يدفع أناملي لترجف شغفًا، الفتاة البرق صندوق مغلق له ألوان الطاووس وجموح القصة، لا يعرف أحد ما يخفيه بداخله، ويا لسَعْدي! أنا الوحيد المتاح له فرصة فتحه واستكشافه.

- هل ترغبين في النجاة؟

انتفضَت الفتاة البرق كأن ريحًا صرصرًا اجتاحتْ جسدها، استدارتْ صوبي تنهش وجهي بنظرات عينها التي لم تعد زجاجية، تدنو مني، ترتجف شفتاها الورديتان، تقول بلوعة:

- أريد بشدة.

تضيف بنبرات جزعة، جعلت الخوف يقفز حولها مؤديًا إحدى رقصاته الجنونية:

- لا أريد أن أموت، أرجوك أنقذني.

الفتاة البرق تخاف حقًّا مما ينتظرها على الضفة الأخرى من الموت، أنا كمسلم أعلم أن على الضفة الأخرى ثمة آخرة وحساب، لا أعرف دين الفتاة، لكن مما لا شك فيه أنها تخاف ما ينتظرها، وبشدة. أو لعلها لا تخاف مما

ينتظرها، لكنها لا تود مفارقة ما تعيشه هنا، وهذا لَعَمْري شيء عُجاب، ما الذي تجده في هذا العالم، ويستحق التشبُّث به والبقاء من أجله؟

بالطبع لن أخبرها أن إنقاذها مستحيل، ليس كاستحالة إخفاء فيل في ثلاجتي، أو خروج عنقاء جديدة من رماد القمامة التي يحرقها جيراني الملاعين أمام بيتي في أمْسِية الجُمَع، فمثل تلك المعجزات ممكنة.

إنما كاستحالة العثور على قلب امرأة يصلح أن تتخذه وطنًا وقبرًا، شيء لا تستطيع المعجزات تحقيقه كما ترى.

- القلب بيت المستحيل.

لا، لم يكن هذا صوتي، هل فقدتُ السمع؟ كان هذا صوتها المُبلل، كيف تَوافَق قولها -الذي ليس له أي مُبرر منطقي- مع حديث نفسي؟

قلتُ وأنا أدقق النظر في حركاتها وسكناتها:

- المستحيل لا وطن له.

وقفتْ قبالتي تمامًا، رأسًا برأس -رغم فارق الطول- وعينًا بعين -رغم فارق الخيال- تقول:

- المستحيل في عالمكَ ممكن في عالم غيرك.

- إنما هو عالم واحد، لكن يحلو لنصّابي الخيال أن يخدعوا أنفسهم وغيرهم بتخيل عوالم مختلفة أكثر بهجة، نَم يا صغيري وغدًا سيكون يومًا أبهج، ادرس يا صغيري كي تُصبح رجلًا أفضل، اعمل يا صغيري كي تعيش في وطنٍ أجمل، هكذا تُمارَس علينا أقذر الخِدَع منذ الصغير، لا يوجد يوم أبَهج، أو شخص أفضل، أو وطن أجمل، إننا نسير في اتجاه القُبح بسرعة تفوق سرعة الضوء ذاته.

- العالم يتغير حسب نظرتكَ إليه، إن كنتَ تراه قبيحًا، فهذا لأن بداخلكَ شيء من القُبح.

- نحن لسنا أفضل مِن العالَم على أي حال، نحن أقذر منه، نحن سرطان الأرض، نأكل أكتاف الطبيعة.

- من أجلِنا سُخِّرَتْ خيرات الطبيعة.

- نحن لحْد الحياة وقبرها.

- نحن روح الحياة وأنفاسها.

- نحن ظاهرة صوتية كالسعال.

- الصوت يحتاج إلى وسط ينتقل خلاله، من المستحيل السمع في الفراغ، اقتل الفراغ؛ تختفي الأصوات المزعجة.

- لذلك أنا أعيش في فراغ بيتي، كي لا أسمع الأصوات المزعجة.

- أنت تهرب إلى الوحدة.

- بل أنا بحاجة إلى الوحدة، إلى الفراغ، وإن كنتِ لا تعلمين أهمية الفراغات دعيني أخبركِ أن فراغات القلب -تشريحيًّا- مفيدة كي يمتلئ بالدماء التي تُضَخ للجسد، وفراغات الخليّة مفيدة كي يسبح فيها السيتوبلازم، وفراغات لمبات الجاز مفيدة لتوزيع الضوء، وفراغات الإبريق الفخّاري تعمل على تبريد الماء، والفراغ من حولي مفيد كي تتردد فيه ذبذبات الكون بحُريّة، فأتمكن من فك شفراته، وفهم رسائله، ورسائل الكون كلها تقول لي إن هذا العالم فاسد، ولا أمل في إصلاحه؛ لذلك اخترتُ أن أعيش وحدي.

- العيش وحدكَ ليس فراغًا، إنه أقصى درجات الامتلاء!

وعندما لم أسألها: «كيف؟»، تبرعتْ هي بالجواب:

- لا يُمكنكَ إسكات أربع أصوات يتعرض لها قلبكَ: النفس، الهوى، الدنيا، الشيطان؛ هذه الأصوات تتضخم في الوحدة التي تحسبها فراغًا.

تلاطمتْ أفكاري للحظات، هذه أطول محادثة تبادلتها مع إنسان، وجدْتني أقول غير راغب في إنهاء السجال:

- نام الفِتية أصحاب الكهف لأن الله ضرب على آذانهم، فأصبح الليل كالنهار بلا ضجيج، لو أمكننا أن نُسكِت كل أصوات العالم، كل الأصوات بداخلنا، لصار هذا العالم قابلًا لأن يُطاق.

- السمع هو الحاسة الوحيدة التي لا تنام، هو أداة الاستدعاء عند البعث، والحاسة الوحيدة التي لا تستطيع أن تعطلها بإرادتك، لا تصل لعقولنا من ترددات الأصوات إلا ما تستطيع الأذن البشرية سماعه، لذلك يظن سوداويٌ مثلك أن كل الأصوات تصدر من حناجر الشيطان، لكن الشجر يتكلم، البحار والشمس، والجبال، وكل كائن حي يصدر من خلاياه ترددات صوتية، كل شيء في الكون يتكلم بلغته الخاصة، هذه الأصوات هي سجود وتسبيح لله الواحد القهار.

مرَّتْ قافلة صمت حطَّت رحالها بيننا لبضعة دقائق، وما إن عاودت المسير، وراحت تذوب عند الأفق حتى بادرتُ الفتاة:

- تقولين إن القلب بيت المستحيل، لكنه بيت الخوف، لذلك أكرهه.

- إنه أكثر من ذلك، لا تستخف بالقلب أبدًا.

- قبل عدة سنوات أُجرِيَتْ جراحة لرجل، تم زرع قلب اصطناعي له، شعر الرجل بعدها بتغيرات غريبة، كأن زِر المشاعر قد انطفأ في قلبه؛ ارتبكَتْ مشاعره، فقد القدرة على الشعور بمباهج الحياة، تذبذب إيمانه بالله، أصبح غير مبالٍ بأي شيء، حتى أبنائه وأحفاده، كل ذلك مثير للشفقة، ربما، لكنني حسدته، هل تعلمين لماذا؟ لأنه فقد تمامًا إحساسه بالخوف.

- تذبذب إيمانه بالله! يبدو كأن مخ قلبه قد فقد هويته.

- مخ قلبه!

- طبيب ولا تعلم أن للقلب عقل، وأن هذا العقل هو محل الإيمان!

لمستُ جهودها الحثيثة لإفراغ برميل معتقداتي، وملئه بمعتقداتها الخاصة، ولم يرُقني هذا قط.

لكنني لم أستطِع منع نفسي من سؤالها:

- وماذا يفعل مُخُّ القلب هذا؟

- خلاياه العصبية تعمل كمستودع للمعلومات والأحداث، ثم يرسلها إلى الدماغ ليقوم بمعالجتها؛ أي إن مُخّ القلب يستقبل المعلومات قبل الدماغ، يُفكر ويُحلل، يؤمن ويكفر، يتّقي ويفسق، وليس مجرد مضخة للدماء كما علموكَ أيها الطبيب الحاذق.

- هذا هراء، أنا أؤمن بالعلم الذي درسته، أما ما تقولينه هو محض حكايات.

- لكنكَ تُصدق الحكايات طوال الوقت، عن الثقوب السوداء، عن الانتقال الآني، عن نشأة الكون، عن الانفجار العظيم، عن الخلية، العلم في أصله سلسلة لا تنتهي من الحكايات.

انتهى السجال بيننا لأدرك أن الفتاة الطاووس القصة البرق لها روح المَدافع، ونظرات الصواعق، وأنفاس البراكين.

تمتمتْ بصوتها المبلل وهي لا تحيد بنظراتها عن وجهي:

- أنتَ مسكينٌ جدًّا، قلبكَ حافٍ.

- قلبي حافٍ!

- «أخاف العيون التي تستطيع اختراق ضفافي

فقد تُبصِر القلب حافيًا

أخاف اعترافي».

نظرتُ لها مُستفهمًا، فتمتمتْ بدهشة وهي ترفع حاجبيها الدقيقين:

- كلمات «محمود درويش»، ألا تعرفها؟

أكره الشعر، والخواطر المغرقة في العواطف والخيالات، لكن لسبب ما توقف عقلي عند «قلبكَ حافٍ». أنا حقًا أخاف من عيون كعينيها، بإمكانها أن تصعق، وتشطر، وتقسم، وتُفجِّر، أخاف أن ترى قلبي حافيًا! أخاف أن أصبح في عين الناس المريض المسكين بدلًا من الطبيب الحاذق.

لماذا صار البيت دافئًا بغتة؟ لا علاقة لأغسطس بذلك، الفتاة الطاووس القصة البرق لا تشع نورًا فحسب، بل حرارة كذلك، حرارة تلتهم برودة البيت، وهذا خطير على عجوز بئيس مثلي، خطير جدًّا.

أربكتني بسؤال شعرتُ أنه فَخ:

- أيهما تحب أكثر، اليوم أم الأمس؟

- أكره كليهما.

لاكتْ جوابي في عقلها، لم يبدُ على وجهها أمارة ضيق أو استحسان، فسألتها:

- وأنتِ؟

- أحب الأمس إذا عاد مُعتذِرًا.

- الأمس لا يعود، فضلًا عن أن يعتذر.

- هذا لأنك رجل يعيش في الأمس، كيف سيعود الأمس إن كنتَ لم تفارقه قط؟

- أنتِ لا تعرفينني.

قُلتها بجِدّة، أكره الغطرسة، والفتاة البرق تتحدث بغطرسة العارِف، جاءتْ كلماتها التالية كصفعة قوية على وجهي، بينما تدسّ عينيها في أعمق نقطة من عيني:

- أعرفكَ أكثر مما تتصور.

تسبب صوتها في ذبذبات وصلت عبر فراغ الصالة إلى جسدي، رجَّته رجَّة عنيفة.

أنتَ تفهم بالطبع الفزع الذي أشعرتني به كلماتها، أنتَ تفهم كيف لعجوز وحيد يشعر بالبرد حتى في منتصف أغسطس أن يخاف من الدفء، والفتاة البرق دافئة، دافئة جدًّا.

لذلك أثق أنكَ ستفهم لماذا أسحبها من يدها الآن وأتوجه بها دون كلمة إلى غرفة الجراحة، ولماذا آمرها بإشارة من إصبعي أن تعتلي الطاولة، ولماذا أمسك بذراعها باحثًا عن عرق نابض كي أحقنها بالمُخدر، ولماذا أتجاهل عينها التي لم تعد زجاجية وهي تُمطرني بنظرات الشكر.

أنتَ تتفهم بالتأكيد لماذا أُمسك أدواتي الآن بأنامل أحاول ألا أجعلها ترتجف، ولماذا أُحدِث شقًّا في جمجمتها، ولماذا أُعرِّي مُخَّها الأبيض أمام أنظاري، أنتَ تفهم بالتأكيد هذا الخوف الذي يجعلك تتخلص من مصدره كي يعود لكَ أمنك، ويتوقف التهديد.

هذه المرة سأكون حريصًا أكثر، دقيقًا أكثر، صبورًا أكثر، سأسجل كل لحظة قبل موتها، سأحصل على سبق علمي و...!

تيييييييييييييييييييييييييي.

توقف قلبها اللعين عن العمل، وفي اللحظة ذاتها أظلَم كل شيء.

14

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

هذه المرة لم أفزع كثيرًا حين استيقظتُ عاريًا في فراشي، ولا عندما تذكرتُ أطراف كابوس عن جيش من الخراف يتجهّز لاقتحام بيتي، لكن المفزع حقًّا هو وجود الجثة مُستلقية بجواري في وداعة الموتى!

أنا على يقين تام أنني سحبتها فوق الأرض، ووضعتها في بانيو الحمام، وأغرقتها بحصيلة إنتاج خلية نحل كاملة، وأنها ظلتْ هناك حتى اللحظة التي توقف فيها قلب الفتاة البرق عن العمل، أنتَ بنفسكَ شهدتَ على ذلك.

أستطيع أن أتفهم أنني وبسبب شدة الإرهاق سقطتُ نائمًا فوق الفراش دون أن أتذكر ذلك، بإمكاني تمرير ذلك حتى وإن لم يبدُ مقنعًا جدًّا، لكن الجثة كيف غادرَت الحمام، واستلقتْ بجواري في الفراش؟

الليلة تُكرر نفسها!

أصابتني تلك الحقيقة بالذهول، حتى وإن حاولتُ أن أسرد لك ألف سبب علمي لاستحالة تكرار الليلة لنفسها مرة بعد مرة، استحالة أن تُعيد الزمن إلى الخلف كأنه عقارب ساعة معصمكَ، لكن لا شيء يُفسر ما يحدث سوى ذلك.

الليلة تُكرر نفسها!

الحلم ذاته، مهاجمة جيش الخِراف لبيتي، الاستيقاظ فزعًا بانتفاضة تُشبه الإصابة بلسان برق، الجثة في وضعها المُنبطح فوق الفراش، ومنامتي الرمادية المُلقاة أرضًا، وبالطبع ست الدقّات التي تُشير إلى السادسة مساءً.

لست بحاجة إلى أن أخبركَ أن الأقفال الستة كما هي، وأن الموناليزا مختفية، والكيكة المحترقة لا أثر لها، وأن السجادة العجمية مُكوَّمة ومُسندَة إلى الجدار.

وبالطبع بعد قليل سيُطرق الباب، وسأجد الفتاة الطاووس القصة البرق أمام وجهي تطلب مني أن...!

- أنقذني.

هذا ما حدث حرفيًا، مع تغيير بسيط، لم تعد أذنها مطاطية، عادتْ إلى طبيعتها كأي أذن بشرية في وجه ابن آدم، الاختلاف الجديد يخص أنفها، كأنه مقسَّم إلى نصفين، نصفه الأيسر من جلد وخلايا ودم وموصّلات عصبية، ونصفه الأيمن من الخشب!

إنها نصف «بينوكيو» إذا جاز التعبير، لا أظن أن أنفها يستطيل عند الكذب، وإلا لجاب العالم حتى بلغ أحد القطبين حيث مُنتهى الأرض، لتُنهي -كشاهدة عيان- نزاع ما إن كانت الأرض كروية أم مسطَّحة.

وقفتُ في منتصف الصالة، في مواجهة الفتاة البينوكيو، أتأمل كل تفصيلة من وجهها، وفستانها، كل شيء كما هو، حتى نظراتها التي بإمكانها أن تصعق، وتشطر، وتقسم، وتُفجِّر، وأن ترى القلب حافيًا.

تقول بصوتها المبلل:

- أشم رائحة الخوف من الجدران، هذا بيت يسكنه الخوف.

وهل للخوف رائحة؟ رغم أنني أرى جسده الأسود، وظله الذي نما بجانبه، يقفز هنا وهناك، تارة يتشبَّث بالجدران، وأخرى بالسقف، لكن الفتاة البينوكيو تتحدث عن رائحة للخوف لم أشتمَّها قط.

ألاحظُ تسلسلًا واضحًا للأحداث، صحيح أن الليلة تُكرر نفسها بالتفاصيل ذاتها، لكن بقي شيء واحد هو المختلف، الفتاة وحواسُها.

في الليلة التي كانت عينها زجاجية حدَّثتني عن الجدران التي تتحرك، وفي الليلة التي كانت أذنها مطاطية حدَّثتني عن صوت المحار يصدر عن الجدار، والآن وهي تقف أمامي بأنفها الخشبي تُحدِّثني عن رائحة الخوف؛ ثمة علاقة بين الفتاة وجدران بيتي!

هذا سخيف، أعلم ذلك، لكن هذا هو الاستنتاج الذي يُمكن لكل ذي عقل رشيد أن يتوصل إليه، رغم كُفره بالمنطق، واستنتاج يكفر بالمنطق هو بوابة الجنون.

عليَّ أن أحمي نفسي من هذا الجنون، يجب أن أفهم.

***

أزحتُ المقعد الخشبي، ووضعته جوار كرسي العرش، أشرتُ لها صوب الأول، وقلتُ في كياسة مُصطنعة:

- تفضلي حتى أحضر لكِ القهوة.

لم أسألها إن كانت تحب القهوة، نجحتُ في اصطياد فنجانين من كومة الأواني المتسخة، غسلتهما ثم شرعتُ في إعدادها، لم أغفل عنها لحظة واحدة، لا زالتْ بقعة السقف القبيحة تسترعي انتباهها، قلتُ مُحفِّزًا أعصاب الكلمات:

- هذه البقعة تُشبه الشجرة.

انتفضت الكلمات تطل برأسها وتقفز من بين شفتيها في حماسة:

- بالفعل إنها تشبه الشجرة، بديعة، أليس كذلك؟

- بديعة جدًّا، إنها أجمل من أشجار الغابة السوداء.

- تقصد الغابة السوداء بألمانيا، أليس كذلك؟ هل تعرف أنها سُمِّيتْ كذلك لأن أشجارها تتحد بكثافة فتحجب الشمس عن الأرض، وتمنحها هالة سوداء من الخارج؟

- وهل تفعل الشجرة التي في السقف ذلك؟ تحجب عني شيئًا ما لا يجب عليها أن تحجبه؟

- كلا، إنها تُظهر لك شيئًا ما، لكنك مع ذلك لا تراه.

قالتها ثم مطَّتْ شفتيها بأسف، تجوَّلتْ قليلًا في المكان، وفي اللحظة الوحيدة التي غفلتُ عنها فوجئتُ بها تقف خلف ظهري، انتفضَتْ كل أعضائي، ثم عالجتُ الحرج بضحكة مصطنعة وأنا أقول:

- تمشين بخِفة.

لم تُجِب سوى بابتسامة خفيفة، فتحتْ بنفسها خزانة مطبخي، وأخرجتْ من أحد أدراجها القهوة والسكر! كيف لها أن تعلم مكان القهوة والسكر؟!

«أعرفكَ أكثر من نفسك»

هذا ما قالته في الليلة الثانية، ظننتها تحتال لكن...!

ما بكَ يا «لوط»؟ كيف تُصدق أن الفتاة التي تراها لأول مرة في حياتك تعرفكَ أكثر من نفسكَ مثلما تعرف مكان القهوة والسكر، أنَّى لها بهذه المعرفة؟

إن كانت تلك خدعة متقنة -وهي كذلك- فستكون أعظم الخدع على مر التاريخ، خدعة تتواضَع أمامها كل ألاعيب «هوديني» السحرية.

توقفت الفتاة البينوكيو عند دولاب الأواني الكريستاليّة، فتحته دون استئذان؛ تُخرِج كأسًا، ثم تنظر لانعكاسها فيه، تتمتم بأسًى كمن بلغه خبر موت إنسان عزيز:

- لا أشبه نفسي.

- نعم يا عزيزتي، لا يشبه أي منا نفسه، هذا هو قانون المَرايا، تخدعنا دائمًا بعرض صور لا تشبهنا.

- أي الصور تُصدق إذًا؟ التي تراها في أعين الناس؟

- بل التي أحتفظ بها في رأسي، تفضلي القهوة.

جلسنا متقاربَين، أدقق النظر في حركاتها وسكناتها، رأيتها تنظر في الفنجان للحظات، رصدتُ نظرة عدم رضا على وجهها، لم أفرد لذلك مساحة اهتمام، تحب القهوة أو لا تحبها؛ لن أصنع غيرها.

بادرتني بقولها وهي تتلفت حولها في دهشة:

- على كل منا أن يصنع نافذة تُخرجه من هذا العالم الكئيب، أين نافذتك؟

لم أفهمها تمامًا، لكنني أجبتُ:

- لا أحب النوافذ المفتوحة، نوافذي كلها مغلقة خلف الستائر الرمادية الداكنة.

مالتْ نحوي، رشقتْ عينها التي لم تعد زجاجية في وجهي، ووجهتْ أذنها التي لم تعد مطّاطية صوبي، تحك أنفها نصف الخشبي وهي تقول:

- لم أقصد نوافذ الجدران، قصدتُ نوافذك النفسية، تكون عادة صغيرة وتأخذ شكل مثلث متساوي الأضلاع، يستطيع المرء أن يعبر منها إلى حالة شعورية مختلفة؛ مثلًا عندما أشعر بالحزن

الشديد أعبر النافذة إلى ذكرى جميلة، أو إيمان، أو يقين؛ وعندها يخف الحزن قليلًا، وأحيانًا يتبدَّل نورًا وبِشارة.

ستقول لي إن كلماتها لا تحوي ذرة منطق. أوافقكَ الرأي، لكن ثمة معانٍ مُضمرة بداخلها، كأنها رسالة مُشفَّرة، صدقني، أحس بذلك، الفتاة البينوكيو أتت إلى بيتي من أجل غرض ما، غرض عظيم، يتحدَّى القوانين الفيزيائية ويُحوِّل ساعات الليل إلى ثعبان يلتهم ذيله، فقط من أجل أن تُبلغني برسالتها.

وهأنذا أجلس بجوارها مُتَّسِع الحدقتين، مُرهف السمع، حاد الشم، أعصابي متحفِّزة في محاولة دؤوب لكي أفهم. سألتها غير مُصدق أن مثل هذا السؤال تعزفه أحبالي الصوتية:

– ماذا تشمّين في هذا البيت أيضًا؟ غير الخوف أقصد.

تركتْ فنجانها دون أن تمسه شفتاها مرة أخرى، تحركتْ أمامي ببطءِ مَن يملك الزمن كله، تفرك أصابعها ببعضها، تُدفئها للحظات، تُخرج من حقيبتها القماشية التي تسع العالم زهرة مُجففة، من ثم تحكي لي قصة:

– في البلد الذي يكره الزهور لم يكن ثمة رائحة غيرها، يحب الناس الزهور لرائحتها الخلّابة التي تُعبِّق أياديهم وبيوتهم، يعتصرونها ويصنعون منها العطور النفيسة، لكن تخيل لو كنتَ تشم رائحة الزهور طوال الوقت! هذا ما حدث لأهل البلد الذي يكره الزهور.

لم يكن باستطاعة حواسِّهم الشمِّية رصد أي روائح داخل حدود بلادهم سوى رائحة الزهور؛ تفوح من كل شيء: من أياديهم، وبيوتهم، وأسرَّتهم، وطعامهم، وشرابهم، شوارعهم، وميادينهم، فتجمَّع أهل البلد، واتفقوا على شن غارة على كل زهرة داخل أراضيهم، وفي صباح ربيعي

أمسك كل شخص بسكين كبير ذو شفرة حادّة، وتوجهوا صوب حقولهم يجزّون رؤوس الأزهار؛ سال من الأزهار سائل أحمر ملأ الأجواء برائحة الدماء! لم يدفنوا الأزهار نكاية فيها، وإنما جمعوها وعلقوها على مداخل البلد كي يراها الجميع، وهددوا كل من تسول له نفسه أن يزرع زهرة في بلدهم بأنْ يجزّوا رأسه كما جزّوا رؤوس الأزهار.

اختفت الأزهار من البلد، ولم يعد يشتَمُّ المرء فيها سوى رائحة الدماء التي بقيَتْ شاهدة على ما حدث في معركة الأزهار.

لم يكن ما قصَّته إجابة واضحة لسؤالي، لكنني اعتدتُ أسلوبها، مرَّرت الزهرة أسفل منخارها الخشبي تتشممها بنهم، ثم نظرتْ صوبي قائلة:

- الإنسان حين يبدأ في تدمير ما حوله لا يدرك أن يد هذا الدمار ستطاله بشكل أو بآخر.

أتفق معها في الرأي، لذلك قلتُ:

- الإنسان معجون بماء الكره لنفسه ولغيره.

باغتتني بسؤال وقح:

- هل وقعتَ في الحب قبلًا؟

- لم أقع في الحب يومًا.

- لماذا؟

- ربما لأنه حين تصف فتاة ما نسمات الهواء المنعشة التي تلفح وجهها في الصباح الباكر، أفكر أنا في المصطلح العلمي للرياح: حركة جزيئات الهواء والغازات المكونة للغلاف الجوي.

- هذه الجزيئات الخفيفة آية من آيات الله، لها قوة خارقة على اقتلاع الأشجار، ودكِّ الحصون وهدم الديار، ويستخدمها العلم الحديث

في رفع الأثقال، وتكسير الأحجار، وهي الذرات الخفيفة نفسها التي تسوق السحاب وروائح الثمار وعبير الأزهار.

للفتاة البينوكيو القدرة على تحويل أي شيء إلى معجزة، كما لو أننا نعيش في عالم ترابه المعجزات، لديها القدرة على رؤية التفاصيل الصغيرة، وربطها ببعضها كما لو كانت آية كونية، لديها القدرة على النظر إلى تفاصيل الكون كأنها إعجاز يتجدد مع كل نفس تتنفسه.

ثم قرَّرتْ أخيرًا أن تجيب عن سؤالي: «ماذا تفعلين في هذا البيت أيضًا؟» بشكل مباشر:

- أشم أيضًا رائحة عفونة قادمة من...! من هذه الغرفة.

قالتها وهي تشير إلى الغرفة المُحرَّمة، الغرفة المحصَّنة بباب من فولاذ، ومغلقة بستة وستين قفلًا، الغرفة التي لن يدخلها بشري أبدًا، ولو على جثتي.

قلتُ بارتباك حاولتُ مداراته وأنا أرتشف من فنجاني:

- إنها رائحة الرطوبة؛ الغرفة لا تتعرض للتهوية.

- إنها رائحة الجثث.

قالتها في صفاقة، قالتها وهي تنظر في عمق عيني، قالتها بثقة من يعرف ويتبجَّح بأنه يعرف.

انتفضتُ واقفًا، ألقيتُ فنجان القهوة أرضًا فلم ينكسر، ككل ذكريات الماضي التي نحاول تهشيمها ولا تفعل. صرختُ في وجهها:

- ماذا تقصدين؟ كل ما تنطقين به هذيان عارٍ من المعنى.

لم تتزعزع نظراتها، ولم تتبدد ثقتها، تحركتْ صوبي خطوتين، حتى لم يعد يفصل بيننا سوى خطوتين. قالت:

- كم جثة دفنتَ في هذه الغرفة؟ ثلاثة، أربعة، عشرة، مائة؟

كان البحّارة الفرنسيون القدامى يلجَؤون إلى طُرق متطرفة لاستدعاء الريح، إذ يجلدون خادم سفينة غلامًا عند الصاري لتجميع الريح، هذا ما فعلته الفتاة البينوكيو؛ جلدَت بسوط لسانها ألمًا طازجًا، كشابٍّ في ربيع العمر، عند الصاري لاستدعاء رياح الغضب.

هبَّتْ رياح الغضب تزأر وتعصف؛ أطبقتُ على شعرها المموج أعتصره بين أصابعي، أصيح:

- توقفي عن ذلك وتكلمي بلسان العقلاء، ماذا تفعلين هنا؟

لم تحاول -حتى- أن تُحرر نفسها من قبضة أصابعي، لم تحاول كأنها تعرف أنها تملك قوة شمشونية لا قِبل لي بها ولا قدرة على ردعها، بإمكانها استخدامها وقتما شاءت، لم تشعر بالخطر ولو للحظة، امرأة لا تشعر بالخطر أمام غضب رجل! هذا أكثر ما يثير جنونه.

قبضتُ بقسوة أكبر على شعرها، سحبته كي أؤلمها، وأدفعها لأن تعترف بالضعف، لم تفعل، عاندَتْ، وخيَّطتْ من رياح الغضب عباءة، ألبستني إياها قسرًا.

قالت:

- أنا هنا كي تنقذني، لا أريد أن أموت.

صرخْتُ بكل غضب نبتَ في العالم وحصده الناس:

- لا يستطيع مخلوق في الكون أن ينقذكِ، أنتِ ميتة لا محالة، أنتِ جثة تسير على قدمين، لا أمل في شفائكِ ولو قام بالعملية أمهر جرّاحي العالم، أنتِ تحتاجين إلى معجزة، وزمن المعجزات ولّى وانتهى.

سكبتُ كلماتي ثم دفعتُ برأسها بعيدًا، اهتزتْ قليلًا بعدما فقدت اتزانها، ثم أخذتْ تعيد خصلات شعرها بهدوء وترتِّبُها، كل ما فيها يثير

غضبي: ثقتها، هدوؤها، حديثها، نظراتها، قصصها، هذيانها، غضبٌ لم يسبق لي أن شعرتُ به من قبل، غضبُ من يتعرَّى، غضبُ من يرى الآخرون قلبَه حافيًا.

أسقط جسدي المتعب فوق كرسي العرش، كل هذا الجهد صار على قلب عجوز توقفتْ بطّارية منظم ضربات قلبه عن العمل، وبات يعتمد على قوة قلبه وحدها من أجل النجاة.

ألم حارق يسري في صدري، أدلِّكه دون أن أبعد أنظاري عنها، كأنها قنبلة على وشك الانفجار، وصمام أمانها الوحيد هو أن أقيِّدها بالنظرات.

تعود إلى الجلوس فوق المقعد الخشبي، تقول دون أثر لضيق أو غضب كان ينبغي أن تشعر به بعد معاملتي إياها:

- أنتَ تستطيع أن تنقذني، أنتَ وحدك يا «لوط».

15

اللعنة عليها وعلى مهنة الطب وعلى العالم أجمع، في كل شارع يولَد خبير من العدم، يحسَب نفسه قادرًا على فهم كل شيء، فلماذا لا تبحث لها عن واحد، وتترك العجوز الذي يعتصر قلبه ألمًا كي يموت في بيته ميتة هادئة هانئة؟

تقدير سرعة الرياح يعتمد على حركة السحاب، وفي عينيها كانت السُحب داكنة ثائرة.

قالت:

- تستطيع أن تنقذني، لكنكَ أولًا بحاجة لأن تتطهَّر.

أتطهر؟ ما أوقحها! كدتُ أصفعها ظانًّا أنها تتحدث عن طهارة الجسد، لكن خاطرًا ما مر بعقلي، التطهير! أعرف مُراد هذه الكلمة، كلنا نمارس طقوس التطهير بشكل أو بآخر، إنها طقوس الانتقال من مرحلة إلى أخرى، من المفترض أن تكون من الأسوأ إلى الأفضل.

في أنجولا وموزمبيق نشأتْ طقوس تطهير الأطفال الذين تأثروا بالحرب، خاصة أولئك الذين كانوا جنودًا سابقين، طقوس استشفائية يجري بها تطهير الطفل من دنَس الحرب والموت؛ كي يدرك أن القتل الذي كان مسموحًا به في حالة الحرب مُحرَّمٌ في حالة السِلم، فتتغير معاييره وسلوكه الاجتماعي.

وفي العلاقات الإنسانية نتطهَّر بالأوجاع، نمرُّ من نفق الألم، فتتفسَّخ شرنقة السذاجة، ونتحول إلى أشخاص أكثر قسوة، وأكثر قدرة على مواجهة الأذى.

لكن تطهيري أنا! ماذا؟ ما الدنَس الذي أصابني حتى أحتاج إلى التطهير؟

قلتُ مُتفكِّهًا وساخرًا دون مواراة:

- تُذكرني كلمتكِ «التطهير» بخدعة الديتوكس التي يؤمن بها الناس هذه الأيام، حمامات مائية لإزالة السموم من الأقدام، ولاصقات تمتص السموم من الجسد وتُخرجه من الأقدام عن طريق مسام خاصة اكتشفها الصينيون القدماء بجلالة قدرهم، ما مشكلة هذا العالم مع الأقدام؟!

ضحكتُ حتى آلمني قلبي وأنا أشير لها قائلًا:

- واسمعي هذا أيضًا، أنابيب شمعية مجوفة توضع في الأذن فتزيل بإشعالها السموم من الجسم، هل تصدقين ذلك؟ رغم كل التقدم العلمي تخرج علينا ابتكارات علمية زائفة، وادعاءات أن «الأذن بوابة الروح»، وأن شمعة مشتعلة في الأذن من شأنها أن تُدلِّك الأذن والقناة السمعية، وتشفط منهما شمع الأذن والشوائب! والناس يصدقون ذلك ويدفعون من أجله المال؛ في حين لو فكر أحدهم في شق الشمعة لوجد بداخلها مادة برتقالية تشبه شمع الأذن.

نحن نعيش داخل إمبراطورية شاسعة من العلم الزائف؛ شخص في كل شارع يدَّعي أنه خبير في شيء ما، هو أجهل ما يكون به، من أجل الفوز بقبول مجتمعي أو فرصة عمل: خبير في العلاقات، خبير

في الدين، خبير في الطب، خبير في العمارة، خبير في الأدب، خبير في السياسة، خبير في الحب، العلم هو الرداء الذي يتخفَّى فيه الجميع؛ كل يريد وصلًا بليلى وليلى لا تقر لهم بذلك. كل شيء من حولنا زائف: الأشخاص، الأفكار، الخبرات، المشاعر، القلوب، العلاقات، وحتى العلم.

قلتها بمرارة كبيرة، بحسرة كبيرة، بغصّة كبيرة، ثم صِحْتُ باندفاع لم أستطع كبحه:

- تتحدثين عن رائحة عفونة في بيتي؟ حسنًا، إنها تنبع من العالم أجمع، أرضه وسمائه، نحن جثث عفنة تسير على قدمين، نحن وليمة فخمة للدود، هل عرفتِ مصدر تلك العفونة الآن؟ إنها تنبع منا، ولا شيء سوانا.

قلتها غاضبًا جدًّا، لائمًا جدًّا، ناقمًا جدًّا، على نفسي، على الناس، على الحيوانات، على النباتات، على الجمادات، على العالم. لكنني أعلم أن الله لم يخلقنا بهذه الوضاعة، نحن وصلنا إلى هذه المرتبة بما كسبته أيدينا.

عاودَتْ الجلوس فوق المقعد الخشبي، تتلمس طريقها للكلمات، حتى وجدتْ ضالتها المنشودة وألقتها على مسامعي:

- أنتَ تكفر بالإنسان.

- نعم، أنا كافر به.

- العالم ليس بهذا السوء، أنتَ تختار النافذة التي تنظر منها إليه، فإذا اخترتَ نافذة تطل على الأوساخ فستظن أن العالم كله جِفنة من القذارة.

- إنه كذلك.

- لكنكَ إنسان أيضًا، فما الذي يجعلكَ مختلفًا عن الجميع؟

فاجأني سؤالها؛ ارتبكتُ للحظة، ثم استعدتُ صرامتي وأنا أقول بحدّة:

- أنا مختلف لأنني لم أسمح لنفسي بأن تتدنَّس، أنا اعتزلتُ هذا العالم القذر فلم تَطَلْني أوساخه.

أشارتْ بأصابعها الطويلة حولها، متسائلة باستنكار:

- وهل تظن أن هذا البيت لا يمكن أن يطاله الدَنَس؟

ما أوقحها! أجبتُ بصرامة:

- نعم، بيتي لا يمكن أن يصيبه الدنس، أغلقتُ جميع منافذه، لا يُمكن لشيء أو لشخص أن يدخل بيتي دون علمي ويدنسه.

ثم أضفتُ في خاطري: «إلا أنتِ، وتلك الجثة التي ترقد فوق فراشي».

ثم أردفتُ بحدّة:

- تسألين عن الفارق بيني وبين الجميع، أدمغة الناس أصبحتْ تعاني من نقص حادٍّ في «الأوكسيتوسين» هرمون الحب، فارتخت الرابطة بين الأم وأبنائها، واهترأت المشاعر بين المحبين، وانهارتْ جسور التواصل الاجتماعي بين الناس، أما أنا فدماغي يعمل بشكل مثالي.

- كم أنتَ رجل غمره الجهل! هل تظن نفسك أفضل حالًا من الجميع؟ أنتَ أسوأ منهم؛ على الأقل هم يعرفون أنهم يُعانون من خلل ما، ويحاولون إصلاحه، يفشلون تارات وينجحون تارة، لكنكَ مريض ولا تعرف أنكَ مريض.

- مريض؟!

- أنتَ جائع للحب، الحب وحده يفتح لنا نوافذ جديدة على العالم، حب الرجل للمرأة، لابنه، لصديقه، لأهله، حب العبد لربه، حب الزمان والمكان والجماد والنبات.

قلتُ بنبرة حاسمة مُنهيًا نقاشًا مائعًا لا رجاء منه:

- ما تسمينه حبًّا هو في الحقيقة مجرد تغيُّر فيسيولوجي يحدث للجسد نتيجة تنبيه العصب السيمبتاوي، فتضطرب ضربات القلب، وتزداد سرعة التنفس، ويتغير لون الوجه؛ الطبيب لا يتأثر بالكلمة السحرية «حب» لأنه العاقل الوحيد الذي يراه بطريقة علمية مجردة.

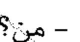
لم يعجبها جوابي، ولم أقُلْه لأنال إعجابها، لم أعبأ بامتعاضها، حافظتُ على نظرة محايدة، وأمارات لا مبالية فوق وجهي وأنا أسألُها:

- لماذا تظنين أن عجوزًا مثلي قادر على إنقاذك؟ هل تعرفين متى كانت آخر مرة أمسكتُ فيها مبضعًا وأجريت عملية جراحية؟

ابتسمَتْ، فتذكرتُ الشمس، وامرأة لها وجه الشمس، افتقدتها، ولم أدرك إلا حين تذكرتها كم افتقدتها، وهنا أخلَّت الفتاة البينوكيو توازني بسؤال شتّت أركاني:

- هل تفتقدهم؟

قلتُ بارتباك لم أستطِع مواراته:



- من؟

- أمكَ، أبوكَ، زوجتكَ.

كيف عرفَتْ أنني كنتُ متزوجًا؟ حتى أنتَ لا تعرف أنني سبق لي أن تزوجتُ، وفوجئتَ بتلك المعلومة الآن.

- لا تذكريها.

- أيهما؟ أمكَ، أم زوجتكَ؟

- ليس لي زوجة.

قلتها وأنا أرفع أصابعي الخالية من أي حلقات فضِّية، لكن ذلك لم يوقِفها، استطردَتْ بعناد:

- لكنكَ متزوج.

- ماتت، ولا أحب الحديث عن الأموات.

- اسمها «جميلة»، أليس كذلك؟ وصديق طفولتكَ، ماذا كان اسمه؟ «حسن»؟

- مات كذلك، لا تُحدثيني عن الأموات.

- تحبه كثيرًا.

- لا أتذكر ذلك.

- لكن مُخ قلبك يتذكر.

- مخ قلبي؟! هل سنعود إلى هذا الهراء؟ ليس للقلب مخ.

- ليس هراءً، إنه موجود، يحب ويكره، يؤمن ويكفر، تنسى أنتَ لكنه دائمًا ما يتذكر، يتذكر زوجتك جيدًا، وصديقك، وابنك!

- جميعهم أموات، لا تحدثيني عن الأموات وإلا ألحقتكِ بهم.

لا أعرف إن كان ما قلته تهديدًا كي أخرسها، أم أنني بالفعل في تلك اللحظة قادر على فِعلها، اجتاحتني مشاعر ضيق وانزعاج من وجودها، وحديثها؛ قلتُ بغضبٍ مكبوت:

- كيف تعرفين عني كل ذلك؟

- قلتُ لكَ: أريدكَ أن تنقذني. هذا أقل ما يجب معرفته عن الشخص الذي سأمنحه ثقتي لينقذني.

ذات مرة حين تضخَّمت المرارة، وكنتُ أصرخ وأتلوَّى ألمًا، لم أقبل بأن يضع الطبيب مبضعه في جسدي إلا عندما علمتُ اسمه، وسنّه، ودرجته

العلمية، وحالته الاجتماعية، وصحته النفسية، وخبراته الحياتية، وكل ما طالته يداي من معلومات.

لكن هذا أنا! ولا أظن أن الفتاة البينوكيو تُشاطرني أزمة الثقة التي أعاني منها مع الجميع، نظرًا لدخولها بسهولة بيت رجل لا تعرفه في هذا الوقت من الليل، وجلوسها بأريحية كما لو كانت في رحم أُمِّها، لا تبدو لي أبدًا من ذلك النوع المتشكِّك، أو الذي يُفكر مرتين.

***

- هل تعرف كيف تكوَّنت المدينة؟

فاجأتني بسؤالها، هل أكون صادقًا وأخبرك -دون أن تسخر مني- أنني بدأتُ في الاستمتاع بأسلوبها المُباغت في الحديث، حين تدير الدفة فجأة إلى وِجهة غير متوقعة، بسؤال لا يخطر على بال، وبالتأكيد بإجابة غير متوقعة.

قلتُ في شوق لسماع جوابها، كطفل يتحرَّق شوقًا لسماع حكايات الجدّات، حاولتُ مداراته قدر استطاعتي:

- جوابي سيكون مُتعلقًا بعِلم الأنثروبولوجيا وحاجة الإنسان الفطرية إلى أن يعيش في جماعات، وأن يكون لكل جماعة مكان ثابت بحدود واضحة، لكن لا أظن أنه الجواب ذاته الذي يختبئ في جعبتكِ.

ابتسمَتْ بجزل؛ راقتها كلماتي، لاحظتُ -بكثير من القلق- أنني لم أعتَد منطقها في الحديث فحسب، بل ألَفتُ ابتسامتها التي تضيء وجهها كله، وأنفاسها اللاهثة وهي تتحدث دون توقف، وحركة يديها ورأسها بحماس مثل دمية الكلب في مقدمة السيارة.

جلسَتْ فوق الكنبة «الإسطنبولي» المريحة دون استئذان؛ شعرتُ ببعض الامتعاض، لكنني لم أعلق، اتخذتُ مكاني فوق كرسي العرش، لا يفصلني عنها سوى مسافة بسيطة، يكفي أن أنحني وأمد يدي لألمسها.

أثنَتْ ركبتها تحتها، وأسندتْ ذقنها إلى ذراعيها المطويتين فوق مسند الكنبة، كما لو أنها تتجهَّز لتروي لي أطول حكاياتها لتلك الليلة.

أخرجتْ من حقيبتها القماشية التي تسع العالم حجرًا كأنه تجسيم لجبل مُصغَّر، فركته بأناملها، ثبَّتتْ نظراتها فوق وجهي، وبدأت في سرد قصة:

- في قديم الأزمان، في العصور المنسيّة التي تتجاوز التدوين، ذهب صياد فقير إلى صيد الأرانب البرية -إذ كان السلطان يهوى جمع رؤوسها، وتعشق زوجته لحمها- ابتهل الصياد الفقير إلى الله كي يرزقه التوفيق، من أجل ستة أفواه صغار وأمهم، ينتظرون عودته إلى البيت بطعام العشاء، بعد أن يبيع صيده إلى السيِّد المُهاب.

كانت الشمس فوق رأسه كاوية، والرمال تحت قدميه حارقة، الشجر قصير وخفيف لا يُستظَل به، والماء شحيح لا يُروى به، غاصت أقدامه العارية في الرمال ساعات وساعات، وعندما أدركه التعب نام مُستندًا إلى ساق شجرة هزيلة تذروها الرياح. ثم استيقظ منتفضًا؛ إذ شعر بملمس غريب فوق قدمه، وما كان ذلك سوى ثعبان عظيم يفتح فمه على اتساعه، فتعكس أنيابه نور الشمس، ارتعد الصياد وتوسَّل إلى الثعبان كي لا يأكله، وحكى له عن السلطان وحبه لجمع رؤوس الأرانب البرية، وعشق زوجته للحمها، وستة أفواه وأمهم ينتظرون عودته بطعام العشاء، فرأف الثعبان بحال الصياد، وأخبره أنه لن يأكله؛ تعجَّب الصياد قائلًا: «لكن الثعابين أشرار، ولا يرأفون بحال إنسان أو حيوان!».

اضطجع الثعبان بأسى في ظل الشجرة إلى جوار الصياد قائلًا: «تلك الإشاعة من صنع بني الإنسان، يُشبِّهون اللئيم منهم بالأفعى ونحن أولى أن نُشبِّه الخبيث منا بالإنسان، هل رأيتَ أفعى تقتل أبناءها؟ أو تسرق الطعام من جُحور أقرانها؟ هل رأيتَ أفعى تسفك دماء صغار الأفاعي من أجل عين أو ذيل أو فقرات ظهرية؟ هل رأيتَ أفعى تحيك الحيل، وتصنع المكائد، وتسفك الدماء هدرًا من أجل جُحر أكبر؟».

تأثر الصياد الفقير بكلام الثعبان، وأدركَ أنه تعرَّض لظلم شديد على يد بني الإنسان، فأقسم له: «أَعِدكَ أيها الثعبان الطيب أن أعود إلى الناس فأخبرهم عن ظلمهم لجنس الثعابين، لن أدع أحدًا يؤذيكم معشر الثعابين بادعاءاتهم بعد اليوم».

فرح الثعبان بكلام الصياد، لا للوعد الذي قطعه على نفسه، بل لأنه أول إنسان ينظر إلى الثعبان نظرة تقدير ويصفه بـ «الطيب»، فأهداه هدية لن ينساها طوال حياته: «وأنا أيضًا أعدكَ أيها الصياد الطيب أنني لن أسمح لمعشر الثعابين أن يصفوا أخبثهم بـ «الإنسان»! وسأهبكَ عطية مقابل كرم أخلاقكَ ونُبل مَحتدكَ؛ احفر تحت الشجرة التي تركن إليها، وستجد هدية لم يسبق لبشري أن حصل عليها، أخفاها أحد صغار الجان في هذا الموضع، رأيته بأم عيني، وهي الآن خالصة لكَ».

وقبل أن ينصرف الثعبان التفتَ إليه قائلًا: «ستعمل وجدها عند شروق الشمس، ولكي تُطفئها عليكَ أن.....!

تاهتْ كلمات الثعبان مع عاصفة رملية هبَّتْ فجأة، ظنَّ الصياد أن الكلمات التي سرقتها الرياح وأخفتها في بطنها لم تكن مهمة، بعد انصراف الثعبان أخذ يحفر بهمة وحماس تحت الشجرة، يحفر الرمال ويغوص في الأعماق حتى اقتربت الشمس من المغيب، ثم أخيرًا صرخ بفرحة طاغية: «وجدتها».

انطفأتْ فرحته في الحال، فما وجده لم يكن سوى آلة صغيرة لصُنع الفخَّار!

تعجب الصياد في بادئ الأمر، ثم استشاط غضبًا، الثعبان اللئيم ضيَّع يومه، وأفسد عليه مهمة الصيد، عاد إلى أهله بخفي حنين، ويده تُطبق على آلة صُنع الفخار في غيظ، نامت الأفواه الستة وزوجته تلك الليلة بلا عشاء، تُقرقر بطونهم فتزيد من حنقه وغيظه، أن وضع ثقته في الثعبان.

وعند شروق شمس اليوم التالي تجهَّز الصياد كي يذهب إلى السوق فيبيع آلة الفخار بثمن بخس، رغم ثقته أن أحدًا لن يدفع المال فيها؛ إذ إن حرفتهم الأساسية كانت الصيد وليست صنع الفخار، وما إن خرج الصياد من بيته وسار فوق الرمال عبر الصحراء حتى تحرَّكت الآلة وانتفضتْ!

ألقاها أرضًا كأنها حية تسعى، ثم أخذ يستغفر ويُحوقل ويسأل الحفيظ أن يحفظه، فما كان من آلة الفخار إلا أن سحبتْ شعاعًا من الشمس ثم دارتْ حول نفسها بسرعة كبيرة، ومن المكان الذي يتكون فيه إناء الفخار تكوَّن شيء مخروطي طويل، أخذ يكبر ويكبر ويكبر، حتى بلغ حجمه أضعاف حجم آلة الفخار، ثم حملته الرياح ووضعته فوق الرمال.

نظر الصياد بانبهار إلى الشكل المخروطي الذي استقر أمامه في ارتفاع عظيم، وكان قد سمع عن شيء مماثل في بلاد بعيدة يُقال عنه «جبل»، فأسماه بـ «الجبل»، وحين مرَّ أحد الرجال انبهر بالجبل العظيم، وتناقل الناس الأقاويل حتى بلغتْ أسماع السلطان.

أتى السلطان بنفسه وسط حاشيته محمولًا في هودج عظيم، وما إن رأى الجبل حتى بكى حتى غرقت لحيته في الماء المالح؛ إذ كان يتمنى طوال حياته أن يصنع قصرًا محفورًا في بطن جبل.

اقترب السلطان من الصياد وسأله بكم يبيع له هذا الجبل، حدد الصياد السعر بفرحة عظيمة، وباع الجبل للسلطان، ثم انصرف يحمل آلة الفخار وسره الدفين، عاد إلى البيت وأطعم ستة الأفواه وأمهم بالطعام الوفير، واستغفر ربه لسوء ظنه بالثعبان الذي أهداه ما لم يحصل عليه بشري من قبل.

مع شروق شمس اليوم التالي، وحين ظن أن آلة الفخار لا نفع منها بعد الآن، انتبه إلى أن الآلة لم تتوقف عن العمل، استيقظ ليجد حوله ثلاثة جبال، ولأن أشعة الشمس تتدرج ألوانها من الأبيض إلى الأصفر والأحمر، كانت الجبال مُتدرجة في اللون كذلك، بيض وحُمر وغرابيب سود.

فرح الصياد فرحة عظيمة، وباع الجبال لملوك وسلاطين وأباطرة، واستكمل أولاده المسيرة من بعده، ثم أحفاده، وأحفاد أحفاده، حتى أتى حفيد فضولي وحاول فتح آلة الفخار كي يستكشف ما فيها، وعندما أعاد تجميع أجزائها لم يُركِّبهم بطريقة صحيحة.

ظلَّت الآلة تصنع أعمالًا ضخمةً، لكنها لم تعد تأخذ من خيوط الشمس لتصنع الجبال، أضحَتْ تأخذ رمل الأرض وتصنع منه جبالًا أسمنتية في كل مكان.

تزاحم البنيان، وضاق الناس بالمساحات الخانقة، والطبيعة التي تتآكل من حولهم، لكن لا أحد يستطيع أن يُوقف آلة الفخار عن العمل؛ إذ لم يستمع الصياد لباقي كلام الثعبان وظنَّه بلا قيمة، والآن يلوم الناس الثعبان، ويتهمونه بالمكر واللؤم والخداع، ويحاولون الفرار من المكان الذي تُلقي فيه آلة الفخار نتاجها بكثافة.

***

نثرت الفتاة البينوكيو السحر بكلماتها، سحر عجيب بلون الغواية، مددتُ يدي في محاولة للمس نصف أنفها الخشبي، فضول كبير استرعاني لأعرف ملمسه، كان لدي بقايا أمل في أن يكون ما أراه مجرد مكياج سينمائي، مثل ذاك الذي يستخدمه الممثلون لتصوير الخدع السينمائية، لكن تحت أناملي كنتُ أتحسس خشبًا حقيقيًّا، خشب بكثافة الخشب وملمسه وإحساسه.

سألتها مدهوشًا:

- كيف تحول نصف أنفك إلى خشب؟ أي نوع من عمليات التجميل المجنونة هذه؟

كنتُ معتادًا القراءة في الصحف التي يُحضِرها لي «عصفور» عن غرائب العمليات التجميلية حول العالم، آذان بها فتحات كالمصفاة، وحلقات معدنية تخترق البطون والأنوف والشفاه، لذلك لن أتعجب إن كانت الموضة الرائجة اليوم هي الأنف الخشبي.

لم تُمانع تحسسي لأنفها، ثم قالت بهدوء كأنها تُحاور طفلًا:

- ليس لي أنف خشبي، إنما أنفكَ أنتَ قد تحوَّل نصفه إلى خشب.

أعلم إلى أين سينتهي هذا الحوار، سأغضب لادعائها الوقح أنني أنا من أعاني من عين زجاجية، وأذن مطّاطية، وأنف خشبي، ثم سأجرها من يدها وأُدخلها غرفة الجراحة، آمرها بأن تستلقي فوق الطاولة، أحقنها بالمخدر، أشق رأسها، أنظر إلى مخها كأعجوبة كونية، وحين أكون مراقبًا ومسجلًا لكل شيء، سيتوقف قلبها اللعين عن الحركة، وسيظلم العالم، وأستيقظ منتفضًا بصعقة برق في الفراش، لأجدها تقف أمام باب بيتي بعين لم تعد زجاجية، وأذن لم تعد مطاطية، وأنف

لم يعد خشبي، وربما هذه المرة أجد نصف فمها الأيمن قد تحول إلى ثلج، ثم تحاول أن تقنعني أن الفم الثلجي يسكن رأسي أنا.

لكنني لن أقع في تلك الخدعة للمرة الثالثة، سأكسر تلك الحلقة المفرغة اللعينة، وسأقطع رأس الثعبان إلى الأبد.

تذكرتُ الآن معلومة مُلقاة بإهمال في زوايا الذاكرة، لعلها هامّة، ولعلها بلا معنى: الطاووس يلتهم الأفاعي! فهل لهذا أي دلالة هنا؟

إذا كان الطاووس يشير إلى الفتاة، والأفاعي تشير إلى الحلقة الزمنية المفرغة، هل يعني هذا أن الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو هي الوحيدة القادرة على إخراجي من سجن الزمن؟

16

أزحتُ الستارة الرمادية الداكنة، فتحتُ فُرجة صغيرة من النافذة لألقي نظرة على الخارج، لم يُطالعني سوى غلالة ظلامية مُسدلة فوق أبنية شاحبة آية قُبح، كأنها نتاج آلة الفخار التي لا تتوقف عن العمل.

غلالة كأنها سحابة من الدخان، لا تعرف الشيء المُحترَق، أدخان أُم تخبز العجين لأولادها الجوعى، أم ابن يشعل النار في أمه؟ كلاهما يُخلِّف وراءه الأثر الدخاني نفسه!

استرقت الفتاة البينوكيو نظرة من فوق كتفي، كانت واقفة خلفي، لا تحيد عني بنظراتها، وكأنها تقرؤني كما تُمسك كتابًا وتُطالع أسطره، وتُقلِّب صفحاته، هل سبق أن حاولَتْ فتاة قراءتكَ؟ لا؟ كم أنتَ بائس!

سألتها دون سبب واضح:

- ما أكثر البلاد التي مررتِ بها غرابة؟

رغم قناعتي أنها تكذب، ورغم كرهي للكذب، اكتشفتُ أن الكذب قد يكون له نكهة لذيذة أحيانًا.

تهادَتْ في مشيها، جاورتني أمام الفرجة الصغيرة من النافذة، كانت قريبة جدًّا إلى الحد الذي مكَّنني من شم رائحتها، لم تكن رائحة

اصطناعية، أو رائحة مُعدَّلة ومُستخلصة من أحد الأزهار، كانت رائحة غريبة تُشبه...! تُشبه رائحة الحياة!

لم أشم رائحة الحياة من قبل، لكنني عرفتها ما إن تسربتْ إلى حواسّي الشمِّية؛ مزيج من رائحة الطين والدماء وسطح خشبي بعد سقوط المطر، مزيج من نكهة العذاب والقهر والخذلان والعصيان والشغف.

لم تنظر لي هذه المرة، كانت ترمي بنظراتها صوب الشارع الخالي من الحياة، تبثُّه كلماتها، ونظراتها، وأنفاسها، وكأنها تحاول أن تنفخ فيه من روحها، وكعادتها تُجيب سؤالي بقصة:

- لم يكن بلدًا واحدًا في الحقيقة، بل بلد انقسم إلى شطرين، الشمالي عُرِف بالبلد الذي يرتدي الكلمات، والجنوبي عُرف بالبلد الذي يأكل تماثيل الطين.

استرعتْ أسماء بلادها جُل انتباهي، فأفضتُ عليها من وقتي وتركيزي، فيما هي تستطرد وما زالتْ نظراتها مُعلَّقة بالشارع الميت، تمنحه قبلة حياة:

- في البلد الذي يرتدي الكلمات، لم يكن ثمة خيوط أو أقمشة، لم يعرف سكانها كيف يحيكون ملابس يسترون بها عوراتهم، ولم يكونوا قد رأوا ملابس من قبل، فقط كانوا يشعرون بدافع غريزة فطرية أنهم يجب ألا يظهروا أمام بعضهم عرايا الجسد، مثلما طفق «آدم» و «حواء» يَخْصِفان على جسديهما من ورق الجنة، فأخذ أهل البلد يبحثون عن وسيلة لستر أجسادهم عن أعين بعضهم.

لم ينفع الحجر؛ إذ لم تكن ثمة وسيلة للصقه ببعضه، ولم ينفع الطين؛ إذ كان يتيبَّس فوق أجسادهم وينغزهم ألمًا عند كل حركة، ولم

تنفع الرمال؛ إذ كانت تتساقط مع كل التفاته، ولم تنفع الأزهار؛ إذ كانت تجتذب النحل والحشرات، ولم تنفع أوراق الشجر؛ إذ لم يكن ثمة غراء يجمعها.

فأسلموا أنفسهم لليأس، وباتوا يطرقون برؤوسهم أرضًا كلما تجوَّلوا في الطرقات، يغضّون أبصارهم عن عورات بعضهم، حتى أتتْ إلى القرية امرأة مُسنّة تبيع الكلمات، وترتدي رداءً طويلًا مزخرفًا من الكلمات المبهرجة، أُعجِبَ أهل القرية بلباسها، وطلبوا منها أن تُعلمهم كيف يغزلون الكلمات أردية طويلة ومزخرفة كردائها.

علَّمتهم بصبر، مُقابل أوراق ومحبَرة، حتى خرج من تحت يديها أمهر الخياطين، ينسجون من الكلمات أرديه مُبهرة، يسترون بها أجسادهم، ويتباهون بحُسن حياكتها.

ويومًا بعد يوم، استطاع الأثرياء الحصول على أجمل أردية الكلمات وأكثرها بهاءً، بينما يحصل الفقراء على أردية أقل جودة، بات الأغنياء أصحاب أردية الكلمات البليغة يسخرون من جيرانهم الذين لا يستطيعون ستر أجسادهم بأردية فصيحة مليحة بلا أخطاء لغوية.

ضاق فقراء الكلمة بسوء صياغة أرديتهم، ففكروا في حيلة، يتفوقون بها على أغنياء الكلمة؛ جمع كل واحد منهم ما يستر جسده من كلمات كسيرة ومعان كسيحة، ثم عجنوها بالطين، وصنع كل منهم لنفسه تمثالًا يشبهه كأشد ما يكون الشبَه، يطوفون حولها كالأصنام، يجذبون بها أنظار الناس، ويحصدون بها كلمات الثناء الجميلة، كي ينسجوا منها أردية أكثر جمالًا مما كانوا يرتدون.

لكن ظلَّ الناس على إعجابهم بمنسوجات أغنياء الكلمة، ينبذون الشطر الجنوبي من البلد لرداءة كلماته، فعلِم فقراء الكلمة أن ليس بإمكانهم جذب الناس إلا بشطط الفِكر، والإتيان بغرائب الأحوال.

أرسلوا دعوة للجميع، لحضور وليمة عظيمة، حضرها القاصي والداني، طامعين في طعام وفير، وخير كثير، لكن الطعام كان -ويا للغرابة- تماثيل من كلمات رديئة معجونة بالطين، يأكلها أهل البلد أمامهم في نهم، طين يحوي دود الأرض، وحشرات حيّة، رأوها بأعينهم بينما يأكل فقراء الكلمة تماثيلهم، ويلطخون بها وجوههم وأجسادهم.

تضاحك الجميع، سخرية أو إعجابًا بصنيع لم يأتِ بمثله أحد من العالمين؛ إذ لم يعد فقراء الكلمة يأكلون خيرات الأرض، بل يأكلون الأرض ذاتها، في هيئة تماثيل من كلمات رديئة معجونة بالطين، توافد الناس من جميع البلدان لرؤيتهم، فانتعشتْ أرواحهم بعد أن نبذ الناس أغنياء الكلمة -إلا قليلًا- وأصبح فقراء الكلمة آكلوا تماثيل الطين مَحط أنظار الجميع.

وهكذا، انقسم البلد إلى قسمين، البلد الذي يرتدي الكلمات شمالًا، والبلد الذي يأكل تماثيل الطين جنوبًا.

كأن الفتاة البينوكيو تتحدث عن بلاد زُرتها ولم أزُرها! تجوّلتُ في شوارعها وحواريها، ولم أتجوّل! أعرف ناسها ولا أعرفهم! بلاد مألوفة اللون والطعم والرائحة، ورغم ذلك تشعر فيها بالغُربة.

بلاد لا وزن فيها للكلمة العملاقة، تعلوها مقامًا أقزام الكلمات بعد مزجها بطين الأرض ودودها وحشراتها، لا لشيء إلا لأن لأصحابها القدرة على الترويج لبضاعتهم مِن الأفكار والمعاني الكسيحة.

***

ساد صمت طويل هذه المرة، بينما تتحسس بين أناملها قطرات لزجة شفافة أخرجتها من حقيبتها القماشية التي تسع العالم، وادعتْ أن هذه القطرة العجيبة هي تجسيد فيزيائي لـ «الكلمة».

لم أقطع الصمت بسخريتي، ولا بامتعاضي، ولا بتغير دفة الحوار إلى اتجاه آخر. فَرش الصمت بضاعته في المسافة الفاصلة بيننا، وباعنا بعضها، لم يُعكِّر صفوه سوى «تيك تاك» الصادرة من صدري.

تُرى هل تعلَم فيما تعلمه عني أن قلبي عليل؟ وأن بطارية منظم ضربات القلب قد نفدتْ؟ وأنني إن لم أحصل على واحدة جديدة مع كل هذه الأحداث المتسارعة سيسقط قلبي لافظًا أنفاسه الأخيرة؟ وأنني حين أكون معها في غرفة الجراحة المرة القادمة قد يكون القلب المتوقف عن العمل هو قلبي لا قلبها؟

نظرتُ في عمق عينيها، فرأيتُ بلادًا كثيرة، وصحاري واسعة، وغابات كثيفة، رأيتُ الثلج، والنار، والشمس، وكواكب، ومدارات، رأيتُ عالمًا باتساع الأمل وبضيق الحقيقة.

- أنقذني.

قالتها في رجاء، في لوعة، في توسّل، لم أرَ من قبل امرأة تبكي، لا أذكر إن كان لأمي مجرى دمعي، لعلها ردمته، أو أخفته عني، أو لم يُوجَد قط.

هذه الفتاة لعينيها مجرى دمعي، هذا ما أثبته الشلال المحبوس داخل أسوارهما.

لا يترك البكاء أثرًا في نفسي، حتى وإن كان بكاء امرأة، لكنها لم تكن تبكي كبكاء امرأة، كانت تُعتَصَر كحبة عنب تساقط ماؤها، وتُرِك وجهها وجسدها جافًّا مجعَّدًا.

أراحتْ كفها فوق صدري، تمامًا فوق «التيك تاك»، وبصوت مُبلل، وعين تنقش فوق جدار وجهي رسمًا كطلاسم الساحرات، قالت:

- أنقذني، وسأخبرك عن كل البلاد التي لم ترَها بالخارج.

خرج صوتي خشنًا جدًّا، جافًّا جدًّا، بائسًا جدًّا:

- لا أستطيع، لا أحد يستطيع.

ازداد ضغط كفها، وبلَلُ صوتها، ونقش عينها، وهي تقول:

- أنتَ وحدكَ تستطيع.

تثق بقدراتي أكثر مما أثق أنا بها، شعرتُ بالاختناق كأنني حبة عنب أُعتصَر معها في صحن واحد، قلتُ بانفعال عظيم، وقهر مكبوت:

- لا تفهمين، أنا لستُ طبيبًا ماهرًا كما تظنين، أنا لا أتذكر آخر مرة أمسكتُ فيها بمبضع وأجريتُ جراحة على مريض، فقدتُ تمامًا الثقة في نفسي وفي قدراتي وفي كل ما تعلمته ومارسته يومًا، لا أستطيع أن أنقذكِ، عليكِ أن تبحثي عن طبيب آخر قبل فوات الأوان.

رفعتْ عني كفها، وجففتْ صوتها، وتوقفتْ عينها عن النقش، قالت:

- إذا ذهبْتَ إلى الجنة، أي غرض ستأخذه معكَ؟

باغتني سؤالها، كنا نتحدث للتو عن حالتها الحرجة وحاجتها إلا طبيب غيري، فتُلقي فجأة بوجهي سؤالًا لا أفهم مقصدها منه، ما أسرعها في التنقل من حال إلى أخرى! تلك هي ضريبة العصر التي كان علينا دفعها لقاء كل هذا التطور والتحضر؛ كان علينا أن نُمزِّق الوقت، ونُعيد تعريفه من جديد.

كل شيء يتغير بسرعة، كل شيء يتغير قبل حتى أن تُدرِك أنه تغيَّر.

رمقتها بحيرة، ما الذي جعلها تُلقي على مسامعي سؤالًا كهذا؟ غُصتُ قليلًا في التفكير: في الجنة ما لا عين رأتْ، وما لا أذن سمعتْ، وما لا خطر على قلب بشر، فما الذي سأحتاج إليه من حياتي القديمة كي آخذه معي؟

تأملتُ ما حولي من موجودات: دولاب الأواني الكريستالية، السجادة العجمية، «الصامدة حتى النهاية»، كرسي العرش، الكنبة «الإسطنبولي»، المدفأة، والسلة الممتلئة بثمرات دامية، صحيح أنني أحب كل هذه الأغراض العزيزة، لكن هل يستحق أيّ منهم أن أصحبه معي إلى الجنة؟

أجبتُ سؤالها بسؤال:

- ماذا ستأخذين أنتِ؟

دون تفكير، اتسعتْ ابتسامتها وهي تجيب:

- بيتي.

- وما حاجتكَ إلى بيتٍ في الجنة؟ هل ستستبدلين بيتكِ الدنيوي بقصور الجنة؟ حتى وإن كنتِ تعيشين في قصر عظيم أنتجته آلة الفخار السحرية، فلن يزن في جمال قصور الجنة مثقال حبة من خردل.

توجهتْ صوب الجدار، تحسستْ نقوشه، وانساب البلل من صوتها:

- كيف أتخلَّى عنه؟ انظر إلى هذه الندوب؟ رافقني طويلًا، وعانى كثيرًا، كيف يُمكن للمرء أن يتخلَّى عن بيته؟

هل فقدتْ عقلها، لماذا تتحدث عن جداري كأنه جدارها، وندوبه كأنها ندوبها؟ شعرتُ بالغيرة، هل تفهم هذا الشعور حين يُظهِر أحدهم الحب لشيء تملكه؟

قلتُ بضيق، في محاولة لتذكيرها أن الجدار جداري والنقش نقشي:

- أحب النقش بالحجر فوق الجدران.

انفعلتْ، وتلك المرة الأولى التي أراها تنفعل:

- لماذا تؤذيه؟

قالتها وهي تتحسسه -الجدار- كما يمسِّد المرء فراء قطته أو كلبه، هذه الفتاة تُعاني من خلل في الإدراك، سببه الرصاصة التي تستقر في باطن مخها لا شك، بِتُّ متأكدًا تمامًا من ذلك.

قلتُ مستهزئًا، كطفل يثير غيظ زميله في الروضة:

- جداري أفعل به ما أشاء.

- أنتَ جاهل جدًّا، لذلك تخاف جدًّا.

- الزمي الأدب وإلا ألقيتُ بكِ خارج بيتي.

- أي بيت! أنت تحول كل ما تلمسه يديكَ إلى أنقاض، أنتَ نفسكَ تحوَّلتَ إلى أنقاض بشرية.

فارتْ مائي لوقاحتها، وقفتُ قبالتها وجهًا لوجه، أهدر بغضب:

- قلتُ لكِ الزمي الأدب.

لكنها لم تتوقف، ولم يبدُ أن شيئًا قادرًا على إيقافها:

- تظن أن الشر بالخارج، السوء بالخارج، الجهل بالخارج، القذارة بالخارج، لكنكَ لا تدرك أي مستنقع قد حوَّلتَ بيتكَ إليه، أنتَ رمادي تمامًا كتلك الجدران، ريشة النعامة متساوية الحواف التي هي رمز للعدالة، قد حوَّلتها أنتَ إلى ريشة طاووس، مُختلَّة المقاييس، هذا أنتَ، رجل مختل الفِكر، مُذبذب النفس، حائر الروح، أنتَ مريض، والأسوأ أنكَ لا تدرك كونكَ مريضًا.

- مريض!

- نعم، مريض بالخوف، والسبب في ذلك أنكَ سلَّمتَ حواسّك لمروِّجي الإرجاف الذي يجوبون عالمنا شرقه وغربه، شماله وجنوبه دون رادع يردعهم أو يأخذ على أيديهم.

- الإرجاف؟ تقصدين الإشاعات والأخبار الكاذبة؟

- الإشاعات هي خلق أخبار سيئة أو جيدة، لكن الإرجاف يستوجب اللعن، سرطان الإرجاف يختلق أخبارًا كاذبة، وقصصًا مقيتة لقذف الوهن والخوف في قلوب الناس، ولتخذيل هممهم وتثبيطها: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: 60-61]

كان لنطقها للآيات وقع غريب، في بيت لم يُسمَع فيه إلا لصوت الحصري، وكان ذلك منذ دهر طويل.

التقطتْ أنفاسها ثم استرسلتْ بأمارات امتعاض طافحة فوق سطح وجهها:

- أنتَ تتجاهل الأسئلة الحقيقية، تنظر إلى العالم من خلال ستارة ضبابية، تظن أن الشر الذي يجوب الشوارع لا يُمكنه أن يبيت تحت سقف بيتكَ ما دمتَ قد أغلقتَ النوافذ والأبواب، لكنكَ تعيش هنا جنبًا إلى جنب مع الخوف، تسمح له أن يُلازمكَ، يُلاصقكَ، هل أُخبركَ أمرًا؟ الخوف هو التوءم السيامي الملتصق بالشر، ما نخافه هو شر، وما هو شر نخافه، لكنكَ لم تسأل نفسكَ السؤال الحقيقي الذي تتجنبه: «ما هو الشر؟».

انفعلتُ بشدة كادت تُفجِّر الدماء من عروق رقبتي ووجهي:

- كيف تتحدثين إليّ بهذه الوقاحة؟ ماذا تريدين مني؟

- أنتَ تسمّي الخلل الذي يستعصي على فهمكَ وتعبيركَ وتفسيركَ شرًا! ليس هذا هو الشر.

- أنتِ لا تعرفينني أبدًا؛ تريدين معرفة ما هو الشر؟ حسنًا، سأخبركِ: الحدود الفاصلة بين الجميع قد تلاشتْ إلى الأبد، لم يعد ثمة خط

فاصل بين العدو والصديق، الحدود التي كانت تُرسم بعناية ودقة ووضوح، وتُحرَس بجيوش الإخلاص والولاء والبراء صارتْ رمادية، شفافة، ككل شيء من حولنا، وأصبح تبادل الأماكن والأدوار يُمكن أن يحدث ما بين غمضة عين ويقظتها.

- لكنكَ أيضًا توقفتَ عن حراسة حدود نفسكَ، فأصبحتَ لنفسكَ العدو بدلًا من الصديق.

- توقفي عن الهذيان.

- آكلوا لحوم البشر كانوا يأكلون أعداءهم ليتجنبوا تهديداتهم وأخطارهم، أنتَ تفعل الشيء نفسه لكن مع الجميع، أنتَ تأكل جميع من حولك لأنك تخشاهم، تخشى التجارب المؤلمة، تخشى الألم والزلل والمرض والقهر والاكتئاب والخسارة والضياع، تظن أنك ستهرب من كل ذلك حين تعتزل الحياة، لكنك مخطئ، لا يمكنك الهرب من الحياة ولو حبست نفسك داخل بيت من أبواب مصفحة وأقفال بأرقام سرية؛ الحياة دومًا تجد طريقها إلى داخل بيتك، مثلما يفعل الدخان والهواء.

ثم اندفعتْ صوب النافذة المفتوحة، تزيد من فُرجتها التي لم تعد صغيرة، تشير بهستيرية إلى الخارج وتهتف:

- انظر، لا يوجد أحد، أنتَ أكلتهم، أنت أكلت الجميع!

الآن أدركتُ أن الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو فارّة من عنبر الحالات الخطرة بالعباسية، يجب أن تخرج من بيتي، لا أريدها أن تمكث فيه لحظة واحدة.

- لن أتحمَّلكِ أكثر.

أمسكتُ بذراعها وسحبتها صوب الباب، قاومَتْ بشراسة، فقدتُ لوهلة توازني، ولم أستعِد إدراكي إلا حينما أنَّ جلدي ألمًا تحت وخز أظافرها، كأنها تقشِّر حبة بطاطا؛ قشَّرتْ جلدي، وغرزتْ أسنانها في لحمي، تصيح بغضب نمر تعدَّى الآخرون على أرضه.

لم أستوعب ما حدث، ولا لماذا حدث، حاولتُ تخليص نفسي من أظافرها وأسنانها بجذب شعرها المجَّعد بقوة انتزعتُ معها بضعة شعيرات في كفي.

- هل فقدتِ عقلكِ؟

خلَّصتْ نفسها، ودفعتني عنها بقوة أكبر مما تمتلكها فتاة نحيلة قصيرة القامة لديها نصف أنف خشبي، صاحتْ بغضب أوصل ماء عينيها إلى درجة الغليان:

- لن أسمح لكَ بأن تأكلني أنا أيضًا، أنا هنا، لن أذهب إلى أي مكان، لن أخرج من البيت، أنا هنا، أنا هنا.

ثم وبكل ما تحمل بداخلها من عواطف تغلي، هتفت بحزم ترميني بسهام سؤال مسموم:

- ماذا فعلتَ بصديقكَ «حسن» وزوجتكَ «جميلة»؟ تلقي بنظراتها صوب الغرفة المحرمة، الغرفة المصفَّحة، الغرفة المُعلَّق فوق بابها ستة وستون قفلًا.

بوجه يَقطُر غضبًا، بينما ألم حارق يستوطن صدري، ويُعلن بصفاقة المُحتَل أن الوطن وطنه، صحتُ بها:

- اخرسي.

لكنها لم تخرس.

- أين صديق طفولتكَ الذي كنتَ تحبه كثيرًا؟ أين زوجتكَ التي كنتَ تبذل الحب على عتبتها؟

- قلتُ لكِ إنهما ماتا، اقفلي فمكِ واخرجي من بيتي.

- كيف دفنتهما وأنتَ لم تخرج من بيتك قط؟

انطلقَتْ صوب الغرفة المحرمة تُحاول فتح أقفالها، قفز الخوف بجنون أمام عيني، حتى حجب عن بصري رؤية ما تفعله، حاولتُ إزاحة الخوف عني، حاولتُ الفرار منه، إلا إنه أطبق عليّ بثقله، أوقعني أرضًا، وضغط بجسده فوق جسدي، سحق عظام صدري، ثم عظام رأسي، وانتقل تباعًا إلى كل عظمة ومفصل في جسدي، يلويهم كما يُلوَى عود كبريت فينكس.

سمعت صوت تكسير عظامي، و«تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك» تنطلق بجنون من صدري، لن أتعجَّب إن انفجر منظم ضربات القلب الآن، وانتشرتْ أشلاؤه وأشلائي أمام عيني فوق السجادة العجمية.

رُحتُ أجاهد لحث الأكسجين في محاولة لتنشيط قلبي الذي بدأ في القفز داخل صدري في محاولة للفرار من أسواره العظميَّة، لا ألومه أبدًا.

بعزيمة عجوز يريد أن يموت في سلام ولا يسمح له العالم بأن يفعل، زحفتُ بجسد دهسه الخوف صوب الأريكة، أخرجتُ «الصامدة حتى النهاية»، وأمام نظراتها الملتاعة، وأعصابها المهتاجة، وكلماتٍ لم أعيها تسيل من فمها، وتُبلل شفتيها، وفستانها، وحقيبتها القماشية، والأرض، والسقف، والهواء، أفرغتُ كل طلقات البندقية اليابانية في رأسها وصدرها وبطنها، وكل ما طالته مرمى الرصاصات من لحم بشري، لم أرَها تسقط فوق الأرض، ولم يتسنَّ لي رؤية الدماء تنفجر من جروحها، كل ما استطعتُ رؤيته نظرة خاطفة صوب الساعة الجدارية فوق المدفأة، التي -وأنا لا أمزح معكَ- كانت تشير إلى تمام السادسة مساءً!

ثم انطفأت الأنوار فجأة، وأظلمَ كل شيء.

17

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

ست دقات، السادسة مساءً، صعقتني الحقيقة الساطعة كشمس تُنير عتمتي، أنا محبوس في ساعة بعينها، لا تتقدم ولا تتأخر قيد ثانية؛ منذ أن أستيقظ على صوت دقات الساعة بعرق غزير، وجسد ينتفض، حتى تموت الفتاة ويسود الظلام، لا تحيد الساعة عن السادسة مساء.

رُحتُ أستعيد بذاكرتي كل سادسة مساء مررتُ بها، هذا عسير جدًّا، أشد صعوبة من محاولة إجبار امرأة على الاعتراف بخطئها، لم يحدث شيء مميز في أي سادسة مساء مرَّتْ بحياتي؛ وإلا لتذكرتها، صفحة ذاكرتي خالية من رقم ستة، لا شيء عجيب مررتُ به خلال الأيام القريبة والبعيدة صادف أنه وقع في السادسة مساءً! لماذا أنا محبوس في تلك الساعة إذن؟ والأهم، كيف السبيل لكسر تلك الحلقة المفرغة؟

سأعفيكَ من تفاصيل مكررة عن الجثة العارية، وعن الشوارع الخالية، وعن الموناليزا المختفية، وعن الكعكة التي تبخَّرتْ، فقط سأخبركَ أنني صنعتُ فنجانًا من القهوة -وهذا ليس جديدًا أيضًا- ثم جلستُ فوق كرسي العرش، لا تحيد أنظاري عن الساعة المعلقة فوق الجدار.

هل أنا مُعاقَب؟ هل أرسل الله هذه الفتاة لمعاقبتي على ذنب اقترفته؟ ومن تكون هذه الفتاة في ملكوت الله؟ ملاك يُبلِّغ الرسالات؟

حاشا للملائكة أن تكون إناثًا، نبيَّة تُبشِّر بدين الله؟ لم نسمع عن نبي أنثى، حتى مريم العذراء على قدرها ومقامها لم تكن أكثر من أم نبي، وأخت نبي.

من تكون إذن؟ ولماذا يُظلِم الكون وأفقد خارطتي، وتضيع حواسّي بموتها؟

لماذا هي على هذا القدر من الأهمية؟ أم تُرى أنا الذي يحمل قدرًا عظيمًا من الأهمية؟ من الذي يموت على الحقيقة، أنا أم هي؟

أليس النوم ميتة صُغرى؟ لعل الذي توقف قلبه داخل غرفة الجراحة، وسقط صريعًا بعد الإصابة بالصامدة حتى النهاية هو قلبي أنا، لعل الذي يموت هو «لوط» وليس الفتاة الطاووس القصبة البرق البينوكيو.

ما الذي يحدث لكَ يا «لوط»؟ أي عقاب سماوي هذا؟ ماذا جنيتَ حتى تستحق الحبس في ساعة أغسطُسِيّة باردة لا تتقدم ولا تتأخر؟

حسب ساعتي البيولوجية، وإدراكي للوقت، هذا هو الوقت الذي تطرق فيها الفتاة الباب ثلاث طرقات، تلك هي اللحظة التي تعود فيها من الموت مع عضو في وجهها يتحول إلى مادة جامدة، ستدَّعي فيما بعد أنها بوجهي أنا.

لكن شيئًا لم يحدث، لم أسمع صوتًا على الباب! ساعتي البيولوجية دقيقة للغاية لذلك ارحمني من اتهاماتكَ بأنني أخطأتُ تقدير الوقت، اقتربتُ من الباب أريح أذني فوقه، لا شيء، لا صوت يصدر من الخارج، ولا «طق طق طق» تنقرها الفتاة بأصابع طويلة نحيلة، وبوتيرة مُتلهفة فوق الباب، لا شيء على الإطلاق!

هل ماتت حقًّا هذه المرة؟ هل انتهى سجن الوقت؟ هل سيتحرر الزمن مني وأتحرر منه؟

رميتُ بأنظاري المتلهفة فوق الساعة الجدارية فوق المدفأة -وأدرك صدمتكَ لكن تلك هي الحقيقة- تحرَّكت الساعة وفارقتْ رقم ستة الملعون، باتت الآن السابعة إلا خمس دقائق.

لم أعد محبوسًا في الساعة ذاتها، قتل الفتاة بطلقات «الصامدة حتى النهاية» -فليحيا اليابانيون- أعاد كل الأمور إلى نصابها، جزء مني فرح لغيابها، لكن جزءًا آخر خبيثًا نما وتضخم دون أن أدركَ أمره، جزء بائس، وحزين.

لماذا أشعر أن فراغًا كبيرًا تكوَّن في منتصف الصالة طفق يبتلع كل ما حوله؟ دولاب الأواني الكريستالية، السجادة العجمية، الكنبة «الإسطنبولي»، كرسي العرش، المدفأة، وحتى الخوف!

للمرة الأولى لا أرى أثرًا للخوف، كأن الفتحة المتخيَّلة في منتصف الصالة شفطته بداخلها، الفراغ شرس، يبتلع كل ما حوله، فهل سيبتلعني أنا أيضًا؟

عليَّ أن أملأ حفرة الفراغ وإلا سأسقط في براثنها، عليَّ أن أؤدي عملًا ما. استغرقني التفكير، كأي رجل عِلْمٍ يُحاول ملء فم الفراغ كي لا يأكله، فتوصَّلتُ إلى نظرية لم يسبقني إليها أحد! هل فكَّرتَ يومًا لماذا في وقت ما وساعة ما تشتهي البرقوق وليس البطاطس أو أفخاذ الدجاج المحمرة؟ لا، ليس لأن ذوقكَ يقودكَ إلى الشيء المشتَهى، وإنما لأن جسدك يحتاج في هذه اللحظة إلى العناصر الغذائية للشيء المشتهى.

عندما يحتاج الجسد إلى فيتامين C، وليس الكربوهيدرات أو البروتين، فإنه يقود حواسّكَ صوب البرقوق، وليس البطاطس أو أفخاذ الدجاج المحمرة، فتشم رائحة البرقوق، ويسيل لعابكَ أمام ثمرة برقوق، وتسمع في يقظتكَ صوت البرقوق.

اجتاحتني فرحة طاغية؛ أن توصلتُ لتلك النظرية البِكر، سأجري التجارب حولها، وأدون النتائج المُبهرة، سأزاحم العلماء في أبحاثهم -هذا إن لم يكن بالفعل قد سبقني إليها أحد- ثم أرسلها لكل الدوريات العلمية، وسأدعوها بـ «نظرية البرقوق».

***

لم تفلح نظرية البرقوق في مِلء فم الفراغ، وإطفاء جشعه لالتهام أطرافي؛ عليَّ أن أؤدي عملًا حقيقيًّا، يستوجب الجهد والتعب كي يقطع على ذهني حبل التفكير، عليَّ أن أتخلص من الجثة.

بما أن سجن الوقت قد انكسر؛ ستعود الأمور إلى نصابها، وستعود الشرطة إلى ممارسة مهامِّها.

عرفتُ الآن أين اختفى الجميع، كل منهم كان محبوسًا في وقته الخاص، لعلها السادسة، ولعلها أي ساعة أخرى لها معنى ما-أو ليس لها- عند الشخص المحبوس بداخلها.

وبما أن الجميع قد تحرر -أو لعلهم لم يتحرروا بعد لأنهم لا يملكون «الصامدة حتى النهاية» مثلي- عن طريق قتل فتاة طاووس قصة برق بينوكيو تطرق بابهم قائلة: «أنقذني»، ما دام هذا لم يحدث لهم، إذًا -لربما- لا يزالون محبوسين في سجن الوقت، وعند تحررهم ستعود الحياة لطبيعتها، وسيُكتشف أمر الجثة، وسأمضي اللحظات التالية من عمري مرتديًا بذلة إعدام حمراء، في انتظار أن يُطوِّق «عشماوي» رقبتي بحبله الثخين.

توجهتُ إلى غرفة النوم، أسقطتُ الجثة أرضًا، ولم أنسَ أن أديره أولًا لأتأكد من وجود الشق على طول صدره، وقلبه المسروق، حملته حتى البانيو، وأسقطته بداخله، ورغم الألم الذي غزا صدري تحاملتُ على

نفسي كي أتم المهمة، هذه المرة لا وقت لدي لعملية التصبُّن ببرطمانات العسل، لا وقت على الإطلاق.

ستختفي الجثة هذه المرة، ستختفي كما اختفت الفتاة، على هذه الجثة أن تتبخر بإذابة شحمها وعضلاتها وأعضائها في مادة كاوية عالية التركيز، وسأصنع من عظامها مقعد استرخاء هدية للحانوتي كما خطَّطتُ في بادئ الأمر.

أسمعكَ تتساءل: لماذا الجثة تُشبهني إلى هذا الحد؟

ليس عليَّ أن أفهم؛ انظر حولكَ، آلاف الأسئلة بلا إجابات، وآلاف الإجابات بلا أسئلة، لستُ مضطرًا لأن أفهم كل شيء، من يمكنه أن يفهم كل شيء: نفسه، والآخرين، والكون الفسيح من حولنا؟ كلما حاولنا فهم مُعضِلة واحدة أسأنا فهم ملايين غيرها.

- لماذا الجثة تُشبهني إلى هذا الحد؟

ربما أنا من يشبهها! قِف وسط غرفة صغيرة من المرايا وحاول أن تُثبت لنا أيها نسختكَ الحقيقية، وأيها الانعكاس، تحدٍ صعب، أليس كذلك؟

يُمكن للمرء أن يتخيل بسهولة أنكَ الانعكاس، وأن انعكاسكَ هو حقيقتكَ؛ لعل هذه الجثة هي الحقيقة وأنا مجرد انعكاس لها! فكرة مخيفة -أليس كذلك؟- أن من يُحادثكَ طوال الليل مجرد جثة، وأن الرجل المُلقى في البانيو مشقوق الصدر منزوع القلب هو «لوط» الحقيقي.

كيف لإنسان أن يثبت أنه على قيد الحياة؟

لا تقل لي بالطعام والشراب والتكاثر؛ فالنباتات تفعل، لكنها ليستْ روحًا، هل تعرف قبلًا ما هي الروح؟ إنها السر المقدس. طين يحيا بروح الله، ذرة غبار كونية لا أهمية لها سوى أن روحها قبس من روح

الله، فلماذا نتنكَّر لله ونجحد به؟ صحيح، كما قلتَ، لأن الإنسان ظلوم جهول جَحود كَنود، هذا أنا، وأنتَ كذلك.

يمكن للمرء أن يثبت أنه على قيد الحياة بتحديد القيمة التي يضيفها إلى هذا الكون: أثرك هو قيمتكَ، وفي الوقت ذاته هو إثبات أنكَ كائن حي عاقل، تختلف عن اللبلاب والقمل ولعاب الكلب.

بما أن حيويّة المرء وإنسانيته تتحدد بمقدار القيمة التي يضيفها للكون، وإذا كانت «صينية المسقعة» لها قيمة أكبر من تلك التي يمنحها العجل «آبيس» الذي يشبه رئةً يُسرى ضامرة، فهل يعني ذلك أنه أقل حيوية من الباذنجان؟

هذا دفعني لأفكر -ربما لأول مرة- ما الذي أمنحه أنا لهذا الكون، غير ثاني أكسيد الكربون، والمخلفات العضوية، والكثير من التذمُّر والشكوى؟

ما الذي تمنحه أنتَ؟ ما هي قيمتكَ في ميزان الإنسانية؟ أم أنكَ تتساوَى مع اللبلاب والقمل ولعاب الكلب؟

***

لم أصدق أنني سأفتقدها إلى هذه الدرجة، أذرعُ الأرضَ مجيئًا وذهابًا وأنا أنهر نفسي: «لا تتورط عاطفيًّا».

أتنصَّتُ إلى الباب كل دقيقة، وأنظر إلى الساعة كل دقيقتين، وأوسِّع من الفرجة الصغيرة من النافذة كي أرصد الشارع بوضوح أكبر.

هذه الفتاة أخلَّتْ بتوازن حياتي، غيَّرتني، سمَّمتني، علَّمتني كيف أشتاق!

جعلتني أستخدم كلمة مغموسة في العواطف البلهاء مثل: «أشتاق»، بينما كان يجب عليَّ أن أقول أن هرمونات الأدرينالين، والدوبامين، والأكسيتوسين تغزو دمائي في هذه اللحظة.

الناس يتغيرون، الألم يترك بهم ندوبًا تُغيرهم، الناس لا يغضبون من التجارب السيئة بسبب الألم الذي يُعانون منه، بل للتغير الذي يجدونه في أنفسهم بعد انتهاء التجربة، الناس لا يحبون أن يتغيروا، ولا يحبون من يتسبب في تغييرهم، لا سيما إن كان للأسوأ.

لذلك كرهتُ الفتاة إلى الدرجة التي جعلتني أتلهف لقدومها إلى بيتي!

وحينما أستمع لصوتها المبلل، وحكاياتها العجيبة عن البلدان التي زارتها، وحينما أرمق عينيها اللتين تنقشاني، ورأسها الذي يتحرك مثل دمية الكلب، وأشم رائحة الحياة تفوح منها لتذكِّرني كم أنا عجوز مصمصته الحياة ثم بصقته، سأخبرها أنني أكرهها، أكرهها كثيرًا.

سأخبرها أنها بكتيريا انتهازيّة كانت كامنة في أمعائي مُتظاهرة بالبراءة، ثم تخيَّرت اللحظة المناسبة لمهاجمة جهازي المناعي في لحظة ضعفه.

لكنها لم تأتِ لأخبرها أنني أكرهها، وأنها بكتيريا انتهازية، اختفتْ تمامًا، هل ماتت حقًّا؟ هل...! هل قتلتها حقًّا؟

حينما ضغطتُ الزناد ظننتُ أن الليلة ستُكرر نفسها مثل كل المرات السابقة، وأن الفتاة لن تموت على الحقيقة، لم أكن أعلم، أقسم أنني لم أكن أعلم، وأنتِ أيضًا تثق أنني لم أكن أعلم.

كيف أستعيدها لأعتذر لها؟ ليس عن قتلها فحسب، بل عن السبب الذي قتلتها لأجله، قتلتها لأنني عجزتُ عن مواجهة كلماتها، اتهاماتها،

خيالاتها، ويقينها، قتلتها لأنني عجزتُ عن مواجهة نفسي، قتلتها لأنها رأتْ قلبي حافيًا.

إذا كانت كل هذه التجربة كي أتعلم، فما الذي تعلمته؟ أشعر أنني لم أتعلم شيئًا، وأن الحكاية انتهتْ في غير أوانها، أشعر أن ثمة شيئًا ناقصًا، ضائعًا، مسروق.

***

تتصاعد الأبخرة من البانيو؛ الجثة تتآكل، تذوب، تفور تحت وطأة الحمض المركّز، أشغّل الشفاط، ثم أخرج من الحمام وأغلق الباب جيدًا بعد أن أفتح نافذته كي تخفّ الرائحة الحارقة.

أسقطتُ جسدي فوق الكنبة «الإسطنبولي» -لا كرسي العرش هذه المرة- في الموضع الذي جلستْ فيه الفتاة آخر مرة، شاعرًا بالخواء، يجذبني ثقب الفراغ الأسود بداخله، يمسك بأطرافي، يسحبني، يسحلني أرضًا، وحينما كدتُ أسقط في فم الفراغ، تمكّنتُ من سماع «طق.. طق.. طق».

انتفض كامل جسدي، توجهتُ صوب الباب أنزع عنه قيوده الستة عشر، أفتحه على اتساعه، مُستقبلًا الليل والرياح والناموس وأشعة القمر، وفتاة لم يعد أنفها خشبيًّا.

وقبل أن تفتح فمها لتتكلم، نطقْتُ أنا بالكلمة التي صارت شفرتنا السرية، بصوتٍ مُبلل يُشبه صوتها:

- أنقذيني!

***

18

لماذا طلبتُ منها إنقاذي؟

سأخبركَ، لكن انزع أولًا تلك النظرة الخبيثة عن وجهكَ، لستُ عجوزًا يُعاني من مراهقة متأخرة.

عندما كنتُ متوجهًا لفتح الباب بعدما سمعتُ طرقاتها الثلاث، استرقتُ النظر إلى الساعة الجدارية، ورأيتها تُشير إلى السادسة مساءً ففهمتُ كل شيء! أنا محبوس في سجن الوقت، وهذه الفتاة سَجَّاني، يمر الوقت بشكل طبيعي في غيابها، وكلما ظهرتْ أمام بيتي عادت الساعة إلى السادسة!

يبدو أنها الوحيدة القادرة على تحريري، وفك قيد الزمن عني؛ سأحرص على ذلك مهما كلفني الأمر.

لم يكن فمها ثلجيًا كما خمَّنتُ، لكنها عندما تحدَّثتْ قائلة: «أشعر بالبرد» تبدَّى طرف لسانها، واستطعتُ أن أرى نصفه وقد تحوَّل إلى عجين! عجينة لينة كتلك التي تُعدِّها جدتكَ لصُنع قُرص اللبن الرائب المحشوَّة بالجبن أو العجوة.

الآن بِتُّ قادرًا على رصد نمط ثابت للحواسّ الخمس، النظر ويمثله العين الزجاجية، السمع ويمثله الأذن المطّاطية، الأنف ويمثله الأنف

الخشبي، والآن اللسان العجيني، وهكذا يكون متبقيًا حاسّة واحدة، ألا وهي اللمس، والمتمثلة في شيء ما سيصيب جلدها في الزيارة القادمة.

مهلًا، هذا يعني أن تلك الليلة ليست الأخيرة في سلسلة الليالي المتشابهة، وأنه لا يزال في جعبة الوقت ليلة أخرى.

- لماذا لا تُشعل النار للتدفئة؟

قالتها وهي تشير إلى المدفأة، أجليتُ صوتي وقلتُ:

- لأنها ديكور فحسب.

لا داعي لأن أخبركَ بالطبع أنها لا تتذكر أي شيء حدث في الليالي السابقة. قالت:

- إذا كانتْ ديكورًا فحسب، فلماذا يكون لها مدخنة؟ رأيتها من الخارج، مدخنة طويلة تصل إلى السطح.

- المدفأة ديكور، والمدخنة من أجل «مربى» الطماطم.

- أحب «مربى» الطماطم، لكنّ مذاق الجدران أشهى؛ طري ذو نكهة بروتينية غنية!

قالتها وهي تمسح بلسانها فوق جدار الصالة، هل تصدق ذلك؟ البيت الذي أعقمه ثلاث مرات يوميًا كمواعيد المضاد الحيوي، تتجرأ الفتاة الوقحة على لعق جداره بلسانها، ثم تقول بصفاقة، وأمارات الامتعاض على وجهها:

- لكنه مُر كالعلقم، سمَّمتَ البيت بمذاق أفكاركَ.

قلتُ متحدِّيًا ومغتاظًا في الوقت ذاته:

- وهل للأفكار نكهة؟

- نعم، لسانك لا يتذوق المأكولات والمشروبات فحسب، إنه أيضًا يتذوق أفكارك، ومشاعركَ، شهواتكَ، وجموح آرائك؛ لذلك تجده لاذعًا تارة وحلوًا تارة، سليطًا تارة وناعمًا تارة؛ لأنه يأخذ نكهة الكلمات التي يُمررها قلبكَ إليه.

- ألهذا السبب لكلماتك مذاق العفَن؟ ألأنها قادمة من أعماق قلب أفسده الخيال؟

بدا على وجهها مزيج من الإهانة والغضب، لم أعبأ بذلك، تركيزي منصبٌّ على أمور أخرى أكثر أهمية، قلتُ آمرًا:

- أخبريني.

- بمَ؟

- بما تريدين أن تخبريني إياه.

دارتْ في الصالة دورتين أو ثلاثًا، ثم توقفت أمامي يعلو وجهها أمارات التفكير، يتبدَّى طرف نصف لسانها العجيني وهي تقول بجذل:

- هل أخبركَ عن البلد الذي لأهله وجوه الجراد؟ أم عن البلد الذي يأكل الخميس؟ لا، لا، سأحدثك عن البلد الذي يمنع النطق بالحاء، ما رأيك؟

قلتُ معنفًا وقد نفدَ ما بجعبتي من صبر:

- ملعونة تلك البلاد ومن يسكنها، أخبريني بشيء عني، عني أنا.

أجزم أنها المسؤولة عن حبسي داخل الحلقة الزمنية المفرغة، وأنها الوحيدة القادرة على إنقاذي منها، رغم أنني لا أفهم السبب ولا الكيفية.

انظر إلى تلك الكوميديا السوداء، الفتاة التي تهتف منذ أن رأيتها بـ «أنقذني» هي الوحيدة التي تستطيع إنقاذي، عليها أن تساعدني، وأن تتوقف عن سرد حكايات عن كل بلد ملعون زارته.

خطر لي خاطر مفزع، فرُحتُ أتأمل قسماتها، في محاولة لإنعاش ذاكرتي، بينما أسألها وقلبي يخفق في وجل:

- هل أنتِ إحدى مريضاتي؟ هل سببتُ لكِ الأذى؟ أو لأحد أحبّائكِ؟ هل أنتِ هنا كي تنتقمي مني؟

- أي مَرضى؟ انظر حولكَ، أنتَ رجل بائس يعيش في بيت أوهَن من خيوط العنكبوت، هل تعلم بمَ تُذكِّرني؟ بأحد البلاد التي مررتُ بها في طريقي إلى هنا، إنها بلاد تركب العنكبوت، ويحدث فيها أن...

- يكفي هذا، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى من هذيانكِ.

- ليس هذيانًا، إنها حقًّا بلاد تركب العنكبوت، فيها مصور يعمل كسائق لتسديد إيجاره المتأخر، وفي ليلة يذهب لأخذ صورة للكاتب الكبير و...

لم أشعر بنفسي إلا وأنا ألكم الجدار بقبضتي، وقد وددتُ أن تصيب اللكمة وجهها هي، لكنني لم أجرؤ، لستُ برجل يضرب النساء، حتى وإن كانت فتاة تُشعل فيَّ براكين الغضب، بالقدر نفسه الذي توقد فيه نيران الدفء.

- أنتِ كاذبة، لستِ أكثر من مجرد مخادعة صغيرة، ساحرة تستحقين القتل حرقًا وسط ميدان عام، لا أعرف كيف رميتِ عليَّ لعنتكِ، لكنكِ ستُخلصينني منها، أسمعتِ؟، ستُخلصينني منها وإلا...

- وإلا ماذا؟ تقتلني؟

قالتها كأنها تتحداني، هل تتذكر أنني أفرغتُ رصاصات «الصامدة حتى النهاية» في أحشائها؟ هل تتذكر كل المرات التي التقينا فيها؟ هل تتظاهر بالنسيان بينما هي الراوي العليم لهذه الحكاية؟ لماذا اختارتني لدور البطولة إذًا؟

- من أنتِ؟

قلتها بلوعة، قلتها بحيرة، قلتها وقد عاد الخوف يتقافز من حولي في رقصة جنونية.

أجابتني بحسرة، يلاصقها خوف مماثل لخوفي -حتى وإن أنكرَتْ- لم أرَه يقفز حولها، لكنني أحسستُ به يقف خلفها، تمامًا كأنه ظلها:

- أنا كل كلمة لم أنطق بها، كل نظرة خبّأتُها، كل حلم خنقتُه، كل فِعل منعتُه، كل ألم مسحتُه، كل صرخة ضاق بها حلقي فأسررتُ بها إلى السماء، تلك هي أنا، أنا التي لم يعرف أحدٌ عنوانها، والتي مزَّق الخزلان نياط قلبها.

لغز جديد في سلسلة ألغازها، تستحق أجوبتها أن توضع في كتاب للأحجيات، مع جائزة ماليّة قيِّمة لمن يتمكن من فك طلاسمها.

«مزَّق الخزلان نياط قلبها!» لا أحب المبالغات الأدبية، أوتار النياط هي حبال تُثبت صمامات القلب، بين الأذينين والبطينين، والحزن الشديد يضر بعضلة القلب، ويسبب أعراضًا تشبه آلام النوبة القلبية، لكنه لا يتسبب في تمزيق نياطه، أكره المبالغات الأدبية.

- ما علاقتكِ بالحواس الخمس؟ لماذا تجسدينهن بغرابة؟ ماذا يعني كل ذلك؟

رفعتْ حاجبيها الرفيعين، رمقتني بنظرة برّاقة وهي تقول مبتهجة:

- رائع، بدأتَ تسأل أسئلة حقيقية، استمر.

الآن بتُّ متأكدًا من أنها تتذكر كل المرّات السابقة التي التقينا فيها؛ كررتُ سؤالي بلوعة:

- من أنتِ؟

- من تريدني أن أكون؟

- لا أريدكِ شيئًا، لم أدعُكِ إلى بيتي، ولم أطلب منكِ البقاء فيه، أنتِ الضيفة، أنتِ من عليكِ تقديم نفسكِ لي.

- وأنتَ، هل ستقدم نفسكَ لي؟

- هويتي معروفة لا تحتاج إلى تقديم.

جلسَت الفتاة فوق كرسي العرش خاصّتي! كرسيٌّ الذي صنعته على يدي من العظام ولم يجلس فوقه سواي، ليس كرسيًّا عاديًّا أبدًا، لم أجزّ رأس شجرة، أو أبتر ساقها كي أصنعه، وإنما جمعتُ عظام أبي وأمي قبل سفرتهما الأخيرة؛ إذ غادرا بلا عظام تُصلِّب جسديهما، ثم ألصقتهم معًا في هيئة كرسي عرش لم يسبق لملكٍ أن جلس فوق مثله!

كرسي من عِظام أحبابي، أشعر وأنا جالس فوقه بدفء غاب عن جميع أركان بيتي، أشعر بالحب، بالاحتواء، بأشياء لم يعد لها وجود في عالمي الثلجي. هل فهمتَ الآن لِمَ هذا الكرسي مقدس جدًّا عندي؟

استشطتُ غضبًا، سحبتها من فوقه بغِلظة، لم تأبه لقسوتي، التفتتْ صوبي، ثم بادرتني بقولها:

- إذا أخبرتني بمن تكون، سأخبركَ بمن أكون، أعدكَ.

قالتها وهي ترفع كفّها للتصديق على وعدها المزعوم! نعم مزعوم، لا أثق في وعودها، ولا أقوالها وأفعالها، رغم ذلك أجد انجذابًا خفيًّا يجعلني أتعلق بألوانها التي تقتحم ألوان بيتي، وبدفئها الذي يذيب برودته.

- أنا «لوط»، طبيب مخ وأعصاب، عمري تجاوز الستين، أعيش وحيدًا، أبي وأمي سافرا منذ زمن طويل ولم يعودا حتى الآن، ثم أضفتُ بعد لحظة تردد:

- كنتُ متزوجًا، لكنها ماتت، ولي صديق واحد ميت كذلك، ثم شبَّكتُ كفّاي خلف ظهري، ووقفتُ أمامها متحدِّيًا:

- أخبرتكِ من أكون، الآن دوركِ.

- كاذب.

هل تصدق أنها نعتتني بـ «كاذب»! أنتَ تعلم أنني لم أخبرها إلا الحقيقة ولا شيء سواها، لكنها بمنتهى الصفاقة ترميني بتهمة الكذب.

نهضَتْ بغتة، وتوجهَتْ صوب الغرفة المحرَّمة تُشير إلى أقفالها، وتقول بحزم:

- حقيقتك تختبئ في هذه الغرفة، لكنكَ أجبن من أن تجرؤ على مواجهتها، أليس كذلك؟

ارتعشَتْ أطرافي رغمًا عني، حاولتُ إخفاء التوتر الذي كسا وجهي وأنا أقول:

- أنتِ تنسجين القصص.

- وأنتَ تنسج الأكاذيب، قصصي حقيقية رغم شطط خيالاتها، أما أكاذيبكَ فتنبذ الحقيقة وتكفر بها.

- أي حقيقة؟

- الحقيقة التي تختبئ في هذه الغرفة، افتحها إن كنتَ تجرؤ.

- أنتِ مزعجة، مفسدة، أفسدتِ راحتي التي اجتهدتُ لسنوات كي أحافظ عليها.

- على الإنسان أحيانًا أن يخرج من منطقة الراحة كي ينضج، كي يتطور، ما يُريحك قد يكون ببساطة سبب تدميركَ! لو أخذتَ إحدى ثمرات الطماطم خاصّتكَ وهي لا تزال في حجم كرة «البينج بونج» ثم وضعتها داخل علبة صغيرة مثلثة الشكل، ستنمو الثمرة لتأخذ شكلًا مثلثًا محدود المساحة. البيئة التي تعيش فيها هي ما

يحدد شكلك وحجمك، وأنتَ استسلمتَ لسجن صغير صنعه عقلكَ وحبسكَ بداخله، عليكَ أن توسع عالمكَ، عليكَ أن تواجه مخاوفكَ.

اشتعلتْ كل خليّة في جسدي غيظًا وحنقًا، ما كان عليَّ أن أدخلها بيتي مرة أخرى، كان عليَّ أن أجد وحدي طريقة لكسر الحلقة الزمنية، هذه الفتاة ضارّة، مؤذية، إنها الشر نفسه، إنها ماء! ما إن تظُن أنك قبضْتَ عليه حتى يتفلّت من بين أصابعكَ، هذه الملعونة ماء له اندفاع الفيضان وجموحه، ستغرق بيتي وتغرقني.

وقفت الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان وقفة مُستقيمة مُتحدِّية، ترمي سؤالها بغرورٍ صفيق:

- هل تظن أنني غير قادرة على فتح الباب بنفسي؟

ضحكتُ ملء السمع -بغير بهجة- ضحكتُ بسخرية، باستعلاء، بغيظ، قلتُ:

- الغرفة مغلقة بستة وستين قفلًا، لكل قفل رقم سري خاص به، فهل تظنين أن بإمكانكَ اختراق رأسي ومعرفة أرقامي السرية؟ كيف ستفعلين ذلك؟ أم أنكَ ستصوبين سلاحًا إلى رأسي لإجباري على البوح بها؟ أقول لكِ من البداية وقبل أن تثيري الفوضى: هذه الطريقة لن تنفع؛ لأنني ببساطة أشك أنني نفسي أتذكرها جميعها، ثم ماذا تتوقعين أن تجدي في هذه الغرفة؟ كنزًا ثمينًا أخفاه العجوز الذي يعيش وحده؟ كنزي الوحيد في الغرفة المجاورة: محصول الطماطم ووحشي الأليف، لا أملك كنزًا غيرهما.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، عشرة، عشرون، أربعون، ستون، خمسة وستون قفلًا فتحَتهم واحدًا تلو الآخر!

وقبل أن تفتح القفل السادس والستين رمقتني بنظرة مُتشفِّية، كأنها تخرق عيني بأصابعها وتقول: «أرأيتَ؟».

كيف فعلتْ ذلك؟ حتى وإن كانت ساحرة قادمة من العصور الوسطى لما تمكَّنتْ من معرفة أرقامي السرِّية، حتى وإن كانت تلميذة الشيطان نفسه لما تمكَّنتْ من اختراق رأسي واستخراج ستة وستين رقمًا غير مسلسل؛ لأنني وببساطة شديدة لا أعرفهم!

هل صدمتكَ؟ نعم، لا أعرفهم؛ وضعتُ الأقفال واخترتُ لها أرقامًا عشوائية لم أدوِّنها في دفتر، ولم أستعِدها مرة أخرى في الذاكرة، كيف تمكنت الفتاة من معرفة ما لا أعرفه وما لا يُمكن أن أعرفه؟!

فتَحَت الباب المغلق منذ الأزل، منذ أرسى الله الجبال، منذ فجَّر الأنهار، منذ خلق حواء من ضلع آدم، ووقفتْ تدعوني للدخول، بتحدٍ تغلَّب على صوتها المُبلل فصار جافًّا قاسيًا.

لم أتحرك، لم أنجر إلى هدفها الذي أجهله، أمسَك الخوف بقدمي، وثبَّتني بقوة في الأرض، زرعني فيها، شعرتُ كأن جذورًا صغيرة تنمو من قدمي وتخترق الأرض طولًا وعرضًا، تتشعب حتى حوَّلتني إلى شجرة، لا تقوى سوى على تحريك جذوعها وأوراقها.

***

غابت الفتاة الفيضان عن أنظاري، توارَت داخل الغرفة دون أن تغلق بابها. الإغراء هو ما تسبب في طرد آدم من الجنة، إغراء الشجرة المحرمة التي مُنع من أكل ثمارها، ولأن الفتاة تعرف أنني لا أشتهي مواجهة ما في الغرفة حاولتْ إغرائي بطريقة أخرى، بإشعال نيران الفضول.

باختفائها داخل الغرفة وترك الباب مفتوحًا، بفتحها الستة والستين قفلًا كأنها حواسّي الخمس.

لا يعرف الأرقام السرية سوى حواسي الخمس، العين التي رأت الأرقام، والأذن التي سمعتني أرددها لمرة وحيدة، واللسان الذي نطق بها، والأنف الذي اشتم رائحة الأرقام -يبدو أن للأرقام رائحة- وأخيرًا اليد التي تحرَّكتْ وحرَّكتْ.

هل يعقل أن هذه الفتاة هي تجسيد لحواسّي الخمس؟ كيف يُمكن لذلك أن يحدث؟ هذا ليس عقلانيًا، هذا كالكابوس بالنسبة لرجل يعيش بالمنطق وللمنطق.

***

مرَّ ما يبدو أنه ساعة -الساعة لا تزال متوقفة عند السادسة- والفتاة لم تخرج بعد، لم يتبدَّ طرفها، قاسية هي في لعبتها، وعنيدة في الحصول على مرادها.

أسمعكَ تسألني عن الشيء الموجود في الغرفة، والذي يحتاج إلى باب من فولاذ عليه ستة وستون قفلًا، هل تصدقني إن قلتُ لكَ أنني لا أتذكر؟

أعرف أنه شيء يجب أن يظل مُخبأً إلى الأبد، شيء مخيف سيُخرج شياطين الخوف من جحورها، هل أخبرتك من قبل أن للخوف شياطين كما للجن؟ ما تراه يتشبَّث بقدمي، ويؤدي رقصاته الجنونية، ويتسلق السقف، ويتمسَّح بالجدران، إنما هو خوف شيطاني صغير، أما المَرَدَة الأبالسة الكبار فإنهم أكثر بشاعة مما يُمكن لخيالكَ أن يرسم.

ألم تسمع من قبل عن امرأة ذبحَتْ زوجًا يضربها، ومُرتشٍ قتل رئيسه الذي اكتشف أمره، ولصٍ قتل صاحب البيت الذي فتح فمه للصراخ، وأمٍّ أغرَقَتْ أبناءها الجوعَى في النهر؟

كل واحد منهم زاره كبير أبالسة الخوف، وهذا المارد المخيف لا يكتفي بدقات قلب مُختلَّة، ولا حبات عرق مُتساقطة، لا يشبع من رعشة تصيب الأطراف، وشللٍ يجتاح بنات الفِكر وحنايا القلب ومنابِت الكلام، لا شيء يُشبعه سوى الدماء.

إذا ظننتَ أنكَ تثق في حِكمة فلان، عليكَ أن تراه خائفًا من شيء ما أو من شخص ما، عندها ستعلم إلى أي الدركات يُمكن أن ينحدر في سُلَّم الإنسانية.

كلنا نبلاء، حتى نخاف من شيء ما.

ارتجفَ الخوف المتشبِّث بقدمي عندما شم رائحة كِبار الأبالسة الذين يسكنون في الغرفة المحرمة؛ الخوف يُفزِع بعضه بعضًا، ورغم أنه جبان رعديد، إلا إنه لم يستطع مخالفة أوامر سيده كبير الأبالسة، يُناديه من داخل الغرفة؛ ترك الخوف الصغير قدمي ودفعني من الخلف في اتجاه الغرفة.

الاندفاع نفسه الذي يجبرك على مشاهدة فيلم رعب، أو قراءة رواية تتحدث عن الدماء والأشلاء، رغم أنَ الخوف يُلازمكَ، إلا إنه لا يستطيع رد طلب خوف أكبر منه مرتبة في سلَّم الحيوانية.

الخوف كائن حيواني، يتحرك بالغريزة وحدها، دون إعمال فِكر، أو سماع قلب.

الآن أنا على أعتاب الباب، يفصلني عن دخول الغرفة خطوة واحدة، خطوتها بعظيم ترددٍ، صُعِقتُ لاتساع الغرفة كأنها حيٌّ بأكمله! إذا كانت غرفة واحدة بهذا الاتساع فما حجم البيت كله إذًا؟

لا بد أنها خدعة بصرية خبيثة، نجحت الفتاة الفيضان في تنفيذها، هل نظرتَ من قبل عبر عدسة مكبِّرة، أو قطرة ماء مكوَّرة؟ تتغير

الأحجام عندئذ، لا بد أن هذا ما يحدث لي، وعندما خطوتُ داخل الغرفة انغلق بكل قوة بابها!

تقلَّصت الأبعاد الثلاثة -ولم يكن البُعد الرابع في حالة أفضل- حتى باتت الغرفة المحرَّمة في حجم المكان الذي تجلس أنتَ فيه الآن، غرفة عاديّة كأي غرفة دخلتها، هذا كان الشيء الوحيد العادي.

استقبلتني رائحة دماء فاسدة، ولحم منتن، ومن وسط حلقات معدنية مثبتة في سقف الغرفة كانت تتدلى جثث كثيرة، كثيرة جدًّا!

19

نعم، جثث! ولستُ بحاجة لأن أقترب منها كي أتأكد من كونها جثثًا مُحنَّطة على الطريقة الفرعونية؛ يبدو أن البصل كان سعره زهيدًا في فترة ما!

ولستُ بحاجة لأن أخبرك أيضًا أن قلبي اختار هذه اللحظة بالتحديد كي ينهار، اضطربَتْ دقَّاته وتسارعَتْ إلى الحد الذي جعلني أظن أنه على وشك الانفجار.

حاولت الفتاة الفيضان إسعافي؛ تنضح في وجهي ماءها، وتُدلِّك أطرافي بدفئها، تضع رأسها فوق صدري، فتختلط دقاته مع «تيك تاك» بنبرة معدنية مرتعشة.

- من هؤلاء؟

خرج السؤال من فمي مرتعشًا، ينبض كقلبي المرتجف بين أضلعي، ما إن رأتني أتماسك قليلًا وأنهض على قدمي بصعوبة تليق بعجوز تجاوز الستين حتى رمتني بالجواب -ويا ليتها ما فعَلَتْ-:

- إنهم ضحاياكَ، ألا تذكرهم؟

- ليس لي ضحايا.

خرج صوتي بذات النبرة المرتعشة، لكنني لاحظتُ أنها باتت مُبللة بعواطف جديدة لم أختبرها من قبل، أو لعلي اختبرتها ثم نسيتُها.

قالت مُشفقة، كأنها تنتشل شحَّاذًا فقير الذاكرة من قارعة النسيان:

- نعم، إنهم ضحاياكَ، هيا اقترب، تعرَّف عليهم، لا تخف، أنا إلى جوارك، أنا معكَ.

كعجوز مُسالم يخبرونه أنه قاتل أثيم، سرتُ مُلتصقًا بذراعها، وفي ذراعي الآخر تعلَّق الخوف الصغير، يبحث بعيونه الكثيرة عن أبيه الكبير. انسابَتْ كلماتها فيضانًا يغسل ويمحو، ينظِّف ويجلي، يترك قطرات مكوَّرة تُكبِّر الأحجام أكثر مما ينبغي، وتُقلِّص أخرى أكثر مما ينبغي. قالت:

- لا تنزعج، ليسوا جميعًا ضحايا؛ بعضهم كان يستحق هذه الميتة البشعة، بلا قبر أو مراسم جنازة. بعضهم دفعكَ لأن تهين جثثهم، وتُمثِّل بها، لا ألومكَ على ذلك، أي شخص مكانكَ كان ليفعل تمامًا مثلما فعلتَ.

ثم زاحم صوتها المبلل قطرات أخرى، كبيرة، حارة، غاضبة:

- لكن البعض لم يستحقوا تلك النهاية البشعة، لم يستحقوا التعليق في خُطّافات وحلقات معدنية بسقف الغرفة مثل حيوانات المذبح حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة.

الآن فقط تذكرتُ كل شيء عن الغرفة والجثث المعلقة في سقفها بخُطّافات معدنية، تدافعتْ جحافل الذكريات إلى عقلي تطرقه بالأحداث والصور.

اندفعتُ أطيح بيدها، أصيح بها وقد فرَّ الخوف من جنبي، واختبأ في عينها التي لم تعد زجاجية، بإمكان الخوف أن يُحدِّق إلى عيوننا بثبات مهما أزحنا وجوهنا بعيدًا:

- بل يستحقون، جميع من هنا يستحقون تلك الميتة البشعة، أن يُعلَّقوا من أرجلهم مثل حيوانات المذبح، ويُتركوا حتى تجف منهم آخر قطرات الحياة؛ جميع من هنا تجردوا من أردية الإنسانية، وتدنَّوا حتى بلغوا حضيض الفكر والإحساس؛ كان عليَّ أن أقتلهم، كان عليَّ أن أحمي نفسي من شرورهم، إنه قتل دفاعًا عن النفس، ولو وقفتُ أمام كل قضاة الدنيا لحكموا ببراءتي.

- أنتَ واهم، لو وقفتَ أمام قاضٍ عدل لحكم بسجنك في حفرة بقاع الأرض حتى تخبت الأجرام، وتذبل الأكوان؛ جرائمكَ خطايا يندى لها جبين الإنسانية.

اندفعتُ ثائرًا كما يليق بالثورة أن تكون: موجَّهة، مُركزة، حارقة؛ أمسكتُ بكل جثة وأدرتها حتى ظهر وجهها بوضوح، قلتُ بغضب بينما أقلِّب الجثث بين يدي كما يُقلب بائع جائل بضاعته:

- هذه الجثة، هذا الرجل المعلق أمامكَ، إنه أفَّاق، غشَّني وسرق أحلامي، يدَّعي أنه صديقي لكنه في الحقيقة خائن للأمانة وعميل للشيطان؛ نافسني في مصدر رزقي منافسة غير شريفة، فاز فيها بدِرع الحقارة وكأس الدناءة، كيف يكون قتله خطيئة؟ وتلك المرأة المعلقة هناك، تدَّعي أنها إحدى قريباتي لكنها سافرة فاسقة، أرادتْ أن تجرني لجحيم الرذيلة وأن أشاركها خيانة زوجها المغفَّل الذي يدور في طاحونة الحياة مثل الثور كي يأتيها باللقمة والكِسوة، كيف يكون قتلها خطيئة؟ وذاك العجوز هناك، يدَّعي كونه إمامًا للمسجد القريب، لكنه يطعن في الدين بأكثر مما يفعل

أعداؤه؛ يُحرِّف ويُبدِّل ويبتدع، كيف يكون قتله خطيئة؟ وذاك الصبي الصغير، لا يأخذنَّكِ به شفقة ولا رحمة، إنه ابن الحرام، نبتَ على فراش الخيانة، وترعرع بمائها، كيف يكون قتله خطيئة؟ وتلك الشمطاء التي يتدلَّى جسدها المترهل من الخُطَّاف، إنها جارتي التي كانت تتغذَّى على مال يتيم أودعه أهله في أمانتها، ولا يفتر لسانها عن لوك سيرة هذا وذاك، لم يسلم منها طيب ولا فاجر، كيف يكون قتلها خطيئة؟

أمسكت الفتاة الفيضان كفي، سحبتني -أو للدقة جرجرتني-، ثم أوقفتني أمام جثتين تتدلَّيان من حلقة واحدة، يتشعَّب منها خُطَّافين متجاورين، يتعلق في أحدها جثة رجل، وفي الآخر جثة امرأة.

قالت بثورة كما يليق بالثورة أن تكون؛ موجَّهة، مركزة، حارقة:

- وهذان، ما جُرمهما؟

بادلتها ثورة بثورة:

- هذان خائنان فاحشان لعينان، لو كان الأمر متروكًا لي، ولو وهبني الله معجزة إحياء الموتى، لأحييتهما ألف مرة، ولقتلتهما بألف طريقة مختلفة.



- إنهما صديقكَ وزوجتكَ!

- بل فاسقان لا تجوز عليهما الرحمة.

ثم أشرتُ بإصبع يرتعد بدماء الغضب:

- وذاك الصبي الصغير ابن الحرام هناك، هو ثمرة خطيئتهما.

استشاط غضبها، صرختْ في جنون:

- بل هو ابنكَ، لم يطعنكَ أحد في ظهرك، لم يأتِكَ أحدهما من مأمن، كلاهما كان مخلصًا لكَ، لكن قلبكَ الميت باتَ عاجزًا عن التمييز

بين الصديق والعدو، الطيب والخبيث، عاجز حتى عن تمييز رائحة ابن من صُلبكَ.

- ليس ابني، إياكِ أن تقولي ذلك وإلا أمسكتُ بعنقكِ وعلَّقته في سقف الغرفة مثل كل تلك الجثث العفنة هنا.

- بل ابنك، وتلك المرأة الطيبة لم تخُنْكَ بالغيب، وصديقكَ الذي تفتري عليه، وترميه بالسوء كان أشد القلوب حُبًّا لكَ، لكنكَ أعمى العقل، وفاقد للبصيرة، نبتة الشك التي زرعتها بداخلك كبرتْ واستفحلَتْ وطالتْ جميع من حولكَ، لم يعد شكك درعًا حاميًا من أذى الآخرين لك؛ صار مدفعًا موجهًا في صدور كل من حولكَ، أمسكتَ «بالصامدة حتى النهاية» وأفرغتها في قلوب الجميع دون أن تُفرق بين عدو وصديق.

- كلهم أعدائي، كلهم آذوني، كلهم كرهوني.

- هذا ما يصوره لكَ قلبكَ المريض، أنتَ مريض بفيروس الشك.

ضحكتُ بهستيرية كأنني أوشك على فقد برجٍ من عقلي:

- أوَلسنا نعيش في عصر الفيروسات؟ فيروس الشك، فيروس السرعة، فيروس التخوين، فيروس الضحك في مواضع البكاء، فيروس إصدار الأحكام المُسبقة، فيروس الشهرة وحب الظهور؛ في عصر الفيروسات لا أحد ينجو! إن نجوتَ من فيروس أصابكَ آخر.

قالت بأسًى كبير كأنها تستجدي رجلًا يقف على حافة مبنى مرتفع كي لا يُلقي نفسه إلى الأرض:

- لذلك علينا حماية أنفسنا، وتعقيمها، وتحصينها.

- هذا ما أفعله.

قلتها بحدة، وأنا أشير إلى كل الجثث التي تمتلئ بها الغرفة، فاكتسى وجهها بلون الحسرة، قالت:

- ليس هكذا تحمي نفسك، ليس بقتل الجميع، لا تملك هذا الحق.

- بل أملك كل الحق، هذا بيتي وسأفعل به ما أشاء.

تلبّسني العناد، لن أسمح لها أن تقف أمامي وتُعلّمني بصفاقة ما الذي يجب أن أفعله في بيتي وما لا يجب أن أفعله، ضقتُ ذرعًا بها، وبالليلة التي لا تنتهي، على هذه الليلة أن تنتهي، على الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان أن تختفي من بيتي، لتعود حياتي إلى سابق عهدها.

- لا أريدك في بيتي، أنتِ لا تستحق أن تكون هنا.

هل تصدق أنها من قالت لي ذلك؟ تتحدث عن بيتي كأنه بيتها، بل وتطردني منه أيضًا!

- هل فقدتِ عقلكِ؟

تسير بتؤدة إلى ركن قريب وهي لا تزال تتحدث:

- حاولتُ كثيرًا، لكن لا أمل في إصلاحكَ، لا أستطيع أن أشاركك بيتًا واحدًا، أنت رجل لا يستحق الحياة، لا أريد أن أراكَ في بيتي بعد الآن.

هذيانها جعل الخوف ينكمش على نفسه، ثم يقفز قفزة كبيرة ويحط فوق رأسي، يتغلغل بداخله، يُمسك بتلافيف مُخّي ويسحقه.

- توقفي عن ذلك، ما هذا الهراء، اخرجي من بيتي الآن.

كانت قد وصلتْ إلى الركن الذي يتخفّى في الظل، تلتقط بيديها شيئًا لم أتبيّنه، مخفيًا وراءها، بينما كبير أبالسة الخوف يُطلِق من مخبئه بالسقف ضحكة مجلجلة.

قالت وهي تهز رأسها بقوة -لا أعرف إن كانت تتحدث إليَّ أم إلى نفسها-:

- لن أشعر بالندم؛ بذلتُ ما بوسعي، لن أشعر بالذنب.

ما إن أنهت هذيانها حتى رفعتْ ما أخفَته بين يديها، إنها «الصامدة حتى النهاية»! كيف تحصَّلتْ عليها؟ كيف عرفت مخبأها السرِّي أسفل كرسي العرش؟ وكيف ومتى أخفتها في هذه الغرفة؟

أنتَ أخبرتها، أليس كذلك؟ كان عليّ ألا أثق بك، كان عليّ أن آخذ حذري منكَ، أنتَ مثل الجميع، لا تفرق عنهم في شيء، نفس الدناءة والحقارة والخيانة والرغبة في إيذائي.

أقسم لكَ قسمًا غير حانث، سأجعلكَ تدفع الثمن، سأعلِّقكَ جثة لا حول لها ولا قوة في هذا الخطاف الفارغ إلى اليسار، مثل حيوانات المذبح، سأتخلص من الفتاة، ثم أتخلص منكَ.

صحتُ بها، وأنا أرفع يدًا مرتعدة، بينما يتدلّى رأس كبير أبالسة الخوف كي يعض يدها:

- ماذا تفعلين؟

رمقتني بنظرات حارقة، كأنها حمض مركز أحرق جلدي وألهب أغشيتي المُخاطيّة، مثل الحمض الذي سكبته على الجثة التي تشبهني في الحمام، اتخذتْ وضعية تسديد كأنها جندي ياباني من الحرب العالمية الثانية، دارت حولي ببطء، تُسدد فُوَّهة «الصامدة حتى النهاية» إلى صدري، تمامًا فوق «التيك تاك» التي ستصمت إلى الأبد.

- أحمي بيتي.

قالتها بنبرة لم تعد مبللة، نبرة جافّة، قاسية، كأنها قادمة من أرض بور لا ثمر تطرح، ولا خير تمنح.

ثم استطردتْ وهي تتحرك إلى الخلف، تصطدم بالجثث المعلقة بالجهة اليُسرى من الغرفة، فتنزاح لتُفسح لها الطريق، ليستْ جثثًا كاملة إن شئتَ الدقة، وإنما أشلاء ممزقة: قدم، أو ذراع، أو رأس يتدلَّى من خُطّافات صدئة، وهذه لأناس لا أتذكرهم، ولا يتذكرونني بالتأكيد، لم يؤذوني بشكل كبير، لكنهم تركوا ندبة قبيحة في نفسي، سبَّني أحدهم مرة، أو تلكّأ في منحي طلبي، أو رفض آخر أن يستمع لتبرير سُقته إليه، فردَّه ولم يحفظ ماء وجهي؛ أخطاء بسيطة، لكنها تُخلِّف وراءها مرارة لا تُنسى، مرارة عقابها البتر.

قالت بوجه ممتعض:

- أنتَ نقطة رمادية في بيتي، أكره الرمادي، عليَّ أن أزيلك في الحال، لا يُمكنكَ أن تلوم إنسانًا يرغب في حماية بيته.

لم أتحركَ، لم أرجُها لتعتقني؛ ليس لأنني أرغب في الموت، بل لأنني تذكرتُ أمرًا هامًّا: في منتصف الغرفة كنتُ قد صنعتُ فخًّا منذ زمن طويل ليقع فيه أي سارق يحاول اقتحام بيتي، هوة عميقة لا قرار لها، وضعتُ فوقها سجادة رمادية مُدوَّرة.

والآن بينما الفتاة تبتعد خطوات بطيئة إلى الخلف، كنت أعلم أنها ستسقط في تلك الهوة، فقط إذا استطعتُ مدَّ هذا الحديث لثلاثين ثانية أخرى.

قبل أن تطلق النيران؛ ألقيتُ عليها سؤالًا لا يُمكن لغرورها أن يتجاهله، محاولًا مَطَّ الثواني القادمة:

- من أنتِ؟ وعدتِ أن تخبريني بهويَّتكِ.

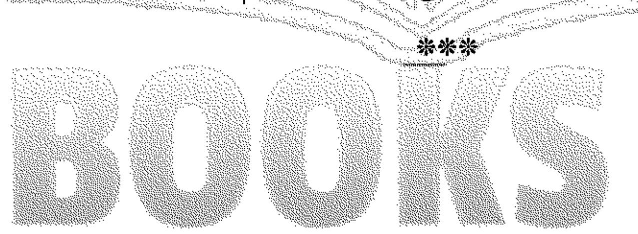
صاحت بمرارة كبيرة:

- ألم تفهم بعدُ؟ أنا صاحبة هذا البيت، سمحتُ لكَ بدخوله والمكوث فيه، بيتي الذي صنعتُ مطبخه على الطراز الأمريكي كما أحبه، إنه مطبخي أنا، أنتَ لا تحب المطابخ ذات الطراز الأمريكي، ورخامته التي تظل تُردد أنها رمادية، إنما هي بألوان زاهية كألوان فستاني، والنقوش القبيحة التي ملأت بها جدران الصالة إنما طمستَ بها رسمي لطائر دودو عملاق، هذا بيتي أنا، وقد ظننتُ أن بإمكاننا أن نتشارك بيتًا واحدًا، أن نعيش معًا جنبًا إلى جنب، تُنقذني من الفناء، وأقصُّ عليك أخبار البلاد التي زرتُها، لكن هذا مستحيل، أنتَ رجل لا يرغب أحد في معاشرته، أنت رجل لا يتخذ موقفًا إيجابيًّا تجاه أي شيء، ويقف على الحياد من كل شيء، أنت رجل يُربّي وحش الشهوات في إحدى الغرف ويُطعمه من روحه، أنت رجل يستحق الموت وحيدًا متعفنًا بلا بيت يُؤْوِيه، أنتَ...

لم تُكمل عبارتها؛ إذ سمعتُ صرختها الطويلة الجزعة كأنها قادمة من باطن الأرض، حيث تتلوى الشياطين في أعماق الجحيم.

أغمضتُ عينَيّ وانتظرتُ أن تنطفئ الأضواء، ويظلم الكون كله.

***



20

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

الآن بِتُّ واثقًا مما يجب أن أفعله، هذه الليلة ستمثِّل الفتاة الحاسة الخامسة والأخيرة: اللمس، وإذا قتلتها هذه المرة لن تعود مرة أخرى أبدًا، لسبب ما -لا أفهمه حتى الآن- وجود هذه الفتاة مُرتبط بالحواسّ الخمس، كأنها معجونة بهم؛ للفتاة خمسة أرواح بعدد حواسّ الإنسان.

لم أضيّع الوقت، التفتُّ لأتأكد أن الجثة تجاورني فوق الفراش -رغم ثقتي من أنها تفعل- انتفضتُ من الفراش، فتحتُ الأقفال الستة لباب غرفة النوم، أمسكتُ بـ «الصامدة حتى النهاية» ووقفتُ أمام باب البيت في انتظار دقاته الثلاث.

هذه الليلة ستنتهي للأبد، وسأخرج من جحيم حلقتها الزمنية المفرغة.

مر الوقت برتابة شديدة، وأنا واقف في مكاني لا أتزحزح، ثم: «طق.. طق.. طق».

فتحتُ أقفال باب البيت بسرعة؛ لا أطيق لحظة واحدة في هذا السجن، يجب أن أتحرر؛ ما إن رأيتُ الفتاة أمامي بحقيبتها القماشية التي تسع العالم، تمدُّ نحوي ملفًّا أزرق، وتفتح شفتيها كي تقول: «أنقذني»، حتى رفعتُ «الصامدة حتى النهاية» وأفرغتُ طلقاتها كلها في جسدها،

بصوت دوّى في الحي بأكمله، يصفع سكون الليل، ويُبدد مأمنه، بينما كبير أبالسة الخوف يُطلِق ضحكة رهيبة لها هول الكوارث، وأصوات النهايات.

الجلد هو خط الدفاع الأول للجسم، إن تركنا فوقه العرق والنجاسة والخباثة التي تخرج من أجسامنا، سوف يمتصها مرة أخرى لتعود السموم بصورة مركَّزة إلى داخلنا مُسببة المرض.

كان عليَّ أن أتطهر من الفتاة؛ كي لا تمتصها بشرتي مرة أخرى.

انفجرت الدماء من ثقوب جسدها مثل فيضان تسونامي، وفي عينيها نظرة ذاهِلة، اخترقتني حتى العظام، أذابتني في خمصها المركز، وبلمحة خاطفة تمكنت من رؤية جلدها المكسو ببقع صغيرة تجعلها تُشبه سمكة سلمون بالغة!

أغلقتُ الباب بقوة، ووقعتُ خلفه مُنهك الطاقة والأنفاس، أسمع صوت شهقاتها المُحتضرة، أنفاسها التي تتشبَّث بالحياة بعناد وإصرار، تزحف بجسدها حتى تتكئ به إلى الباب، تخمشه بينما لا تقوى على طرقه.

أسمع همسها، وأشعر فوق لساني بنكهة صدِئة تشبه الدماء، أشم رائحة حياة تخبو تتسرب من تحت الباب، ويرتجف جلدي بقشعريرة مباغتة.

أغمض عينَيَّ، أسدُّ أذني، أحبس أنفاسي، وأخفي حلمات التذوق في فم مُطبق، وأتجاهل الرجفة.

ومع شهقة الحياة الأخيرة في صدر الفتاة، يسود الظلام، ويسكن كل شيء.

***

21

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

انتهى كل شيء، لم ألتفت لأتأكد من اختفاء الجثة، ولن أفعل، سأعود إلى سابق عهدي عندما كنتُ أستيقظ من النوم ولا أتلفتُ لأتأكد من وجود جثة نائمة بجواري، لا جثة في الفراش، انتهت الليلة الثعبانية اللعينة إلى الأبد.

هكذا رحتُ أردد دون أن ألقي على الفراش نظرة واحدة، بإصرار عجوز عجَنه العناد، وخمَّرته الثقة فتحتُ باب الغرفة، ثم أغلقته خلفي بأقفال ستة، وفوق كرسي العرش جلستُ أرتشف القهوة.

عقارب الساعة فوق الجدار تتحرك، أثق أن الفتاة قد ماتت، والحلقة الزمنية قد انكسرتْ، وأن الساعة لن تتوقف، وأن الصباح سيحل هذه المرة.

دقائق طويلة أمضيتها أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها، لم أنزعج عندما قفز «فرقع لوز» ودخل البيت؛ إن لم يمُت بالمطهرات التي أمسح بها البيت خمس مرات يوميًّا، سيموت جوعًا؛ إذ لن يعثر على ما يصلح لأن يقيم به صُلبه.

أخيِّط أنظاري بالسماء من فوقي، أو بما يتبدَّى لي منها من بين البنايات العالية، أنتظر شعاع نور يشق الأسْوَد ويذيب الظلام بداخله.

ساعات وساعات، أقف أمام النافذة ولا أتزحزح، أنتظر انتهاء ليلة تكررتْ حتى كادتْ أن تسحق أنفاسي تحت وطأة ثِقلها، ساعات ثم أتت الانفراجة أخيرًا.

اخترق السماءَ ضوءٌ باهت، لم أكذِّب عينيَّ، صدقتهما، فأثبتتا لي بعد دقائق قليلة أنني أحسنتُ الوثوق بهما؛ تمطَّت الشمس الخارجة من بطن الأفق ترفع رأسها المستدير في شوق ولهفة، لا تعلم أن شوقي غلبَ شوقها، ولهفتي غلبتْ لهفتها، تُبشِّر بصباح يوم جديد: يوم الجمعة.

انتهتْ الليلة، كسرتُ قضبان الزمن، أنا حُر.

رُحتُ أقفز مثل «فرقع لوز» هنا وهناك، لا تسع فرحتي أرض ولا سماء، تكاد تخترق الجدران، وتتصاعد عبر المدخنة إلى السطح، ومنه تتوزع على حيٍّ بأكمله، بل بلد، بل كوكب.

تتسرَّب كفوف الشمس إلى بيتي عبر النافذة، وللمرة الأولى منذ زمن سحيق أسمح لها بأن تتحسس السجادة العجمية، كرسي العرش، الكنبة «الإسطنبولي»، رخامة المطبخ التي يختفي لونها الرمادي تحت أكوام من الأواني المُتَّسخة، استطعتُ أن أرى جزءًا منها أشارتْ له كفُّ الشمس.

انتفض جسدي في رعدة أسْرَت الكهرباء في دمائي، وأوصلتها إلى كل ذرة، لم تكن رخامة المطبخ رمادية اللون، كانتْ -وأخبركَ بذلك بينما قلبي ينتفض هلعًا- ذات ألوان طاووسية زاهية، تمامًا كما أخبرتني الفتاة التي قتلتها ليلة أمس، التي ادعتْ أن البيت بيتها، والمطبخ مطبخها!

امتدتْ كفّ أخرى للشمس تمسح فوق دولاب التحف الكريستالية، فانعكس لون لحمي على الأرض والجدران، جدراني أنا، رمادية اللون، امتزجتْ بلون لحمي كأنه قطعة من أعضائي الداخلية!

اقتحم تفكيري وجه الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان، التي حفرتُ بـ «الصامدة حتى النهاية» ثقوبًا في جسدها؛ شعرتُ بنغزة في قلبي لا تُشبه ألم نفاد بطّارية منظم ضربات القلب، بل هو ألم حارق كأن أحدهم يحفر بئرًا في قلبي، لا ليملأه بالماء، وإنما بالكيروسين؛ تمهيدًا لأن ينفُث فيه النيران.

أمسكتُ بصدري، ورحتُ أجرُّ جسدي صوب الجدار ذي اللون اللحمي، مسحتُ فوقه بعينَيَّ وأناملي، فرأيتُ من خلف نقوشي رسومات عديدة لطائر دودو عملاق!

أرحتُ رأسي فوق الجدار، فسمعتُ «تيك تاك» عالية! مهلًا، لم يكن صدري هو مصدر الصوت المعدني الرتيب، وإنما الجدار! وفي اللحظة ذاتها رأيتُ الجدار يتحرك! وعندما دنوتُ منه أكثر شممتُ رائحة معدنية تُشبه رائحة الدماء!

رحتُ أمسح عيني بظهر كفي، وأنظف أذني بطرف ردائي، أدقق السمع والنظر، فخلَصتُ إلى نتيجة مذهلة، مرعبة، قاسية: الجدار يتحرك، وفي الوقت ذاته يُصدر صوت «تيك تاك» ممتزجًا بصوت يُشبه صوت المحار، كأن جهاز منظم ضربات قلبي مزروع في الجدار لا في صدري، وكأن أمواج بحرٍ هادرة تسكن الملاط والقرميد، بحر محبوس لا أعرف من أين ينبع ولا أين يصُب، لكن الذي أعرفه أن كل هذا يُثبت أن الفتاة التي قتلتها ليلة أمس لم تكن كاذبة!

لماذا لم أرَ كل ذلك وأسمعه وأشمه حين أخبرَتني به؟ لماذا الآن؟ لماذا بعد أن قتلتها؟

حتى قصصها عن البلاد التي زارتها، حين أفكر فيها الآن أشعر أنها لم تكن محض هلوسة، الفتاة تعيد تعريف الحياة، ترى كل شيء بعين مختلفة، وتعبر عنه بمفردات جديدة.

مَن منا لم يزُر تلك البلاد التي حكَتْ عنها وإن اختلفت الشخصيات والأسماء والأحداث؟

من منا لا يعرف طيرًا حطَّ على قومٍ لينقذهم، فحمَّلوه فوق قدراته وبما لم يستطِع أن يأتي به فقصقصوا جناحيه وقتلوه؟ من منا لا يعرف بلادًا لا يَسمع فيها أحدهم إلا صوته حتى أصبح الناس أذنًا كبيرة تسير على قدمين؟ من منا لا يعرف أناسًا نسوا أسماءهم أو فقدوها ومعها هويّاتهم وقناعاتهم وشرفهم، بل وأنفسهم كذلك؟ من منا لا يعرف بلدًا تُنسَج فيه كلمات قوية بلا مُتفرجين، وتُعرض فيها تماثيل طينية كسيحة بمباركة ملايين العيون النهمة المُحبة للسفَه؟ من منا لم يشهَد حملة دموية لقتل الأزهار؟

كلنا زُرنا تلك البلاد، وعشنا فيها، وتنقلنا بين جبالها ووديانها وأراضيها، لم تكن الفتاة كاذبة، وإنما تصف ما تراه وتشمه وتسمعه وتتذوقه وتلمسه بطريقة مختلفة.

ماتت الفتاة لأنها مختلفة، لأنها لم تكن أنا، لم ترَ الحياة كما أراها أنا، ماتت لأنها لم تستطع أن تكون كما أردتُها، ماتت لأنني طالبتُ طائر الدودو بأن يصير عمدة البلد.

لماذا لم أفهم ذلك إلا الآن بعد أن قتلتُها، بعد أن خسرتُها؟

***

أجرجر نفسي صوب الغرفة المُحرَّمة، ألصق ببابها أنفي، وسمعي وبصري، وحلمات لساني، وجلد بشرتي، تُرى هل ثمة رائحة عفونة قادمة من الداخل كما أخبرتني الفتاة؟ لماذا لا أشمها؟ هل لأنني اعتدتُ العفونة وألفتها؟ «من يعتَد العيش بين الأفكار العفنة والمشاعر الفاسدة

لا ينفر من الروائح الخبيثة»، سمعتُ أحدهم يقول هذا يومًا ما، لعله «عصفور»، ولعله أنا.

حين حاولتُ فتح الأقفال الستة والستين للغرفة المصفحة لم يصافحني إلا الفشل، سقطتْ من ذاكرتي كل الأرقام السرِّية، ولم أتمكن من استدعاء واحد.

كيف تمكنت الفتاة من تذكر أرقامي التي -أنا نفسي- قد نسيتها؟ جال برأسي خاطر مخيف: إذا كانت حواسّي الخمس تمثَّلتْ في الفتاة وتجسَّدتْ فيها، هل أكون بذلك قد قتلتُ حواسّي دون أن أدري؟

ولأن الخاطر كان مفزعًا أكثر مما تحتمله أعصابي المرهقة توجهتُ من فوري إلى دولاب التحف الكريستالية؛ أفتحه لأول مرة منذ زمن بعيد، بعيد جدًّا.

التحفة الأولى التي أمسكتها تبدو كأنها تجسيد دقيق لقيمة عُليا مندثرة اسمها «الإيثار»، صار الإيثار في عالمنا مجرد ذكرى بعيدة، نتذكر أنه كان حاضرًا يومًا ما، يوم كان يُفضل فيه إنسانٌ إنسانًا آخر على نفسه، مثلما فعل صاحب النبي في الغار إذ كان عطِشًا، فناول نبي الله مِذقة لبنٍ كي يشرب قبله، ثم يقول «شرِبَ حتى رضيتُ»، كيف ومتى انقرض هذا الخُلُق؟ لا أحد يتذكر.

الإيثارية صفة مشهورة في عالم الحشرات الاجتماعية مثل: النحل والنمل، ثمة مجموعة تتخذ سلوكًا إيثاريًّا؛ لا تتناسل، مكرسة نفسها -غريزيًّا- لرفاهية المستعمرة، فتفضل مصلحة الجميع على مصلحتها الشخصية.

لكن في حقيقة الأمر دعنا لا ننسى أنها لا تفعل ذلك عن إرادة حرة، بل عن عجز؛ أي: إن الإيثارية في أحيان كثيرة تتحقق نتيجة عجز عن

الإتيان بالمصلحة الشخصية، تلك هي الفصيلة المتبقية في عالمنا الآن من جنس الإيثارية المنقرِض.

تركتُ تحفة الإيثار من يدي وأمسكتُ أخرى، وكانت لقيمة عُليا أكثر ندرة اسمها: «حُسن الظن»، يجاورها مجموعة من التحف، كلها لقِيَم وأخلاق مندثرة، مثل: «الشفقة»، «الرحمة»، «التماس الأعذار»، «الأمانة»، «الشهامة»، «التسامح»، «العدل»، و«الحكمة». يعلوها جميعًا التراب، لا أذكر متى كانت آخر مرة استخدمتُ فيها إحداها؟! ربما لم أستعملها أبدًا.

رفعتُ تحفة «الحكمة» عاليًا، كريستالية ينعكس عليها ضوء الشمس مُخلِّفًا ألوان طيف بدَّدتْ ببهجتها خمول البيت.

كانت تحفة «الحكمة» الكريستالية كبيرة ونفيسة، سطحها يعكس ما يسقط فوقها كمرآة، رفعتها أمام وجهي ودققتُ فيها النظر؛ ما رأيته جعل عنق الخوف ينشطر وينبت منه رأسان لهما آلاف الأعين الجاحظة.

أرتني تُحفة «الحكمة» انعكاس وجهي فوقها، وجه به عين زجاجية، وأذن مطّاطية، ونصف أنف خشبي، ونصف لسان من العجين، وبالطبع بقع تُغطي كامل الجانب الأيمن من جسدي، وتجعلني أُشبه نصف سمكة سلمون بالغة!

حتى في هذا كانت الفتاة مُحِقّة، وكنتُ أنا الطرف الواهِم! ما معني كل ذلك؟

***

طفتُ حول وحشي الأليف في غرفة الحصاد وأنا أتساءَل، هل ما أربّيه في بيتي حقًّا هو وحش الشهوة؟ هل أحوم حول حمم الشهوات

ظانًّا أنني بمأمن، بينما أُطعمها من روحي كما تقول الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان التي قتلتها بيدي؟

راحت النبتة تغرز أشواكها كأنياب حادة تخترق النسيج العضلي لذراعي اليمنى، تمتص من جسدي الدماء، أو روحي كما في رواية الفتاة.

للإنسان حواسٌّ خمس، وللشهوات ملذّات سبع: المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمركوب والمشموم والمسموع.

أتكون مجرد نبتة قابلة للترويض تشتهي الدماء؟ أم بوابة اختبار وابتلاء كلما أطعمتها -ولو بكثرة المباح- استطالتْ وتضخَّمتْ وقضمتْ من روحي قطعة أكبر؟

أيُّنا ذو التفكير المنطقي والرأي الرشيد، أنا أم الفتاة؟

كنتُ على وشك أن أفقد عقلي من كثرة التفكير، عندما سمعتُ طرقات خمسًا على باب البيت، بكيفية معينة؛ صحتُ مُبتهجًا:

- «عصفور».

لم أتخيل أنني سأسعد يومًا لهذه الدرجة بطرقات «عصفور» على باب بيتي، أنا في أمَسِّ الحاجة لرؤية وجهٍ بشريٍّ، والحديث معه حديثًا طبيعيًّا عن طعام الإفطار، وشجارات الحارات، وآخر الأخبار، وأوقح الشائعات.

رميتُ عينَيَّ صوب جدران الصالة بينما أنا متوجه إلى الباب، فصعقني ما رأيتُ! هل يُمكن للجدران أن تصدأ كما يصدأ الحديد؟

أيكون ما أراه خداعًا بصريًّا؟ أم أن جدران بيتي قد صدأتْ بالفعل؟ وما الشيء الذي جَدَّ فجعلها تصدأ؟ أو الذي غاب فجعلها تصدأ؟

أمسكتُ بين يدَيَّ بـ «الصامدة حتى النهاية» تحسُّبًا، فتحتُ الباب بكل اللهفة التي أنجبها العالم وأخفاها في حقيبة الفتاة القماشية التي

تسع العالم، فتحته بكل اللوعة التي رأيتها في عينيها لحظة أن قتلتها، فتحته بكل أمل ويأس وهمّ وشوق ودهشة وفرحة، فتحته كي لا أجد أثرًا لـ «عصفور»!

بدافع من اللوعة تقدمتُ خطوة أمام الباب، اجتزتُ العتبة الممنوعة وصرتُ أُمشِّط المكان باحثًا عن فتًى بجبين مزروع بحَبِّ الشباب يهوى مراقبة ابنة جارتي الحيزبون خِلسة من نافذة غرفة نومي.

حدث كل شيء على حين غفلة، خُدِعتُ من مأمَن، دفعني شخص ما من ظهري فتدحرجتُ على الأرض بعظام تئنُّ ومفاصل تزأر، تمكنتُ أخيرًا من لملمة عضلاتي وكرامتي، ووقفتُ بقامة مرتعشة؛ ترمقني الفتاة الطاووس القصبة البرق البينوكيو الفيضان بنظرات لائمة أسْرَتْ في جسدي رعشة الموت، وحفَّزتْ أعصابي، وثبَّطَت اندفاعاتي كأنني انتهيتُ للتوِّ من جلسة مُعالجة بالكهرباء في مستشفى الأمراض العقلية.

لا أحد يستطيع وقف زحف نبات «الكودزو» على المنازل؛ ما إن ينمو بجوار بيت حتى يحتل جدرانه بسرعة رهيبة قاتلًا في طريقه النباتات الأخرى، يحتل البيت تمامًا كما لو أنه صاحبه الوحيد!

تقف الفتاة الكودزو داخل بيتي، تُمسك ببابه، تمسحني بنظرات تنثر شرارات شامتة، متشفية، منتقمة، حارقة، وتقول بنبرة سحبتني في دوامة كبيرة ثم جرجرتني لقاعها، قبل أن تغلق باب البيت بقوة كصفعة في وجهي:

- يبدو أنكَ نسيتَ أن البشر يملكون حاسة سادسة.

***

22

أؤمن دائمًا بأنني أملك حاسّة سرّية سادسة، مُميزة، تُمكّنني من معرفة المُخادع من مجرد نظرة سريعة ماسحة لوجهه -وهذا ما حدث مع الفتاة الكودزو منذ أن رأيتها أول مرة لكنكَ لم تُصدقني- وتُمكنني كذلك من الإحساس بالخطر وتجنبه قبل وقوعه.

مثل اليوم الذي أفرغتُ فيه دولاب التحف الكريستالية دون سبب واضح، ثم بعدها بدقائق وقع زلزال شديد، كنتُ لأخسر كل تحفي إن لم تُنبّهني حاستي السادسة أن شيئًا سيئًا سيقع.

عملَتْ أيضًا حاستي السرية ببراعة حين انقطع التيار الكهربائي ووجدتُ نفسي أنزع أسلاك الكهرباء عن كل أجهزة المنزل، وعندما عاد التيار كان قويًّا لدرجة أحرَقَتْ بعض أجهزة جيراني، وتسبب ماس كهربائي في إشعال النار في محل «عصفور».

وغيرها من المواقف التي تُثبت امتلاكي لحاسة سرية، يُسمّيها البعض: الغريزة، وأسميها أنا بـ «وسام النقاء»، وسام لا يُمنح إلا لِقلة من البشر، الذين يملكون نقاءً ذهنيًّا، ووعيًا ذاتيًّا عاليًا، لا أظنكَ منهم، لا تسئ فهمي لكنكَ تبدو صدِئًا أكثر مما تبدو عليه جدران بيتي.

أنت تملك مُخًّا لكن أشك أنكَ تستعمله، تملك دوافع لتُحقّق أحلامًا كثيرة لكن أشك أنكَ تسعى من أجلها، صحيح أنني أيضًا لا أفعل لكنني

طلَّقتُ الحياة طلقة بائنة لا رجعة فيها، أما أنتَ فما زلتَ على ذمتها، بل وراغبًا فيها.

وهكذا تجد أن لدي حاسة سادسة نسيتُ أنني أمتلكها فأتت الفتاة الكودزو وتسربَتْ من نقطتي العمياء.

تعكَّزتُ على «الصامدة حتى النهاية»، ثم اندفعتُ صوب الباب أحاول دفعه بكتفٍ تُبطِّنها عضلات هزيلة، وتدعمها عظام هشّة، فبدا كأن الباب هو ما يضربني.

الكتف الأخرى لم تكن أفضل حالًا، ولم يفد كذلك ركل الباب بطرفين سُفليين ليسا أفضل حالًا من نظيريهما العلويين؛ حاولتُ أن أهدئ نفسي كي لا أصاب بنوبة هلع تقتلع قلبي العليل من صدري، لكن ذلك كان أشد عُسرًا من محاولة حماية رأسكَ من المطر بينما لا تملك مظلّة، ثم أظلمَت السماء بغتة!

لا كالظُلمة التي تسود الكون كلما ماتت الفتاة، بل كظُلمة الليل الحالكة، لا يُنيرها سوى قمر ناعس، وضوء هزيل قادم من مصباح عامود الإنارة على قارعة الطريق، حيث اعتاد العجل «آبيس» الذي يشبه رئة يُسرى ضامرة أن يتسكَّع.

حلَّ الليل بغتة، كأنه والنهار يلعبان «الغُمّيضة»، فأمسكَ بالنهار واحتضنه حتى ابتلعه.

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

نعم، ما سمعته صحيحًا، أذنكَ تعمل بشكل جيد، ولم تتحول إلى مطّاط كما هو الحال مع أذني اليُمنى، أتى صوت الساعة الجدارية من

داخل البيت مع ست دقات كاملة، وهذا يعني أننا عدنا لنقطة الصفر، عاد الزمن ليحبسني داخل قضبانه مرة أخرى في تمام السادسة مساءً!

***

أنجب الخوف ثلاثة توائم يُماثلونه في الطول والحجم، إلا إن عيونهم كانت أقل عددًا من عيون أبيهم، قفزوا جميعًا من حولي، مؤدين رقصة عجيبة لم أرَها من قبل، جعلت الدماء تتجمد في عروقي: رقصة الفزع.

إذا كنتَ تؤمن أن الأرض كروية، إذًا فلا وجود لما يسمَّى بـ «الخط المستقيم»، جميع الخطوط في الكون ستكون مُنحنية، ودراستكَ للخط المستقيم رغم إيمانكَ بكروية الأرض هو محض هراء!

هذا هو الحال عندما أؤمن أن موت الفتاة هو ما يعيد الليلة إلى بدايتها، رغم أنَ الفتاة لا يُمكنها أن تموت لأنها ليستْ كائنًا حيًا من الأساس!

لا يوجد ما يُسمَّى بالموت هنا، القواعد مختلفة -لسبب الله وحده يعلمه- الفتاة الكودزو تُمثِّل حواسّي الخمس، أقصد السِت، وما دمت على قيد الحياة لا يُمكنها أن تموت.

أسمعكَ تتساءل: كيف إذًا تزامن إعادة الليلة لبدايتها مع كل مرة تموت فيها الفتاة؟! سأخبركَ أنها مُخادعة تُتقن السحر، ليس كحواة السيرك، بل كساحرات بيندل[1] أوهمتني بحيلة ما -لم تستعِن فيها بالجن، بل بقوى أكثر مهارة- أنها تموت فوق طاولة الجراحة، بينما تبدأ الليلة مرة أخرى في الوقت الذي تريد هي فيه ذلك.

---

(1) خلال القرن السابع عشر، كان يُعتقَد أن مدينة باروفورد جنوب غرب إنجلترا هي مركز الساحرات، حيث تم شنق عشرة منهن، قيل عنهن «ساحرات بيندل».

هل أخبركَ أمرًا آخر؟ -بينما أُمسكُ بصدري في محاولة لإبطاء وتيرة نبضات قلبي المتسارعة بتنظيم عمل الرئتين- نحن لا نملك ست حواس فحسب؛ ثمة حواس لم يكتشفها العلم بعد -وستتذكر كلامي هذا بعد سنوات من الآن- وهذا يعني بمنتهى البساطة أن الفتاة لن تفنى أبدًا!

كلما قتلتُ حاسة من حواسها تُبعَث من رمادها كما العنقاء، فتعود كاملة من جديد.

الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان الكودزو العنقاء تسعى لفنائي أنا، فإن كانت تُمثل حواسّي فعلًا فلماذا ترغب في موتي؟! هل هذا يعني أنها لا تُمثل حواسّي أنا، بل حواسّ شخص آخر، عدو لي ينازعني على بيتي؟ مَن يكون إذًا؟

بما أن الفتاة أنثى، إذًا فهذا الشخص على الأغلب أنثى كذلك، لا أعتقد أن ثمة نزاع على البيت مع أي أنثى في الوجود يدفعها لأن تلجأ إلى نوع غامض من السحر كي ترسل لي حواسّها مُجسَّدة في هيئة فتاة قصيرة القامة، تحمل حقيبة قماشيّة تسع العالم، وتُخرج منها قصصًا وحكايات.

الكارثة الآن تكمن في أنني أقف خارج بيتي وملاذي الآمن للمرة الأولى منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها؛ لا تصدقني؟ تحسبني أبالغ؟ لكن تلك هي الحقيقة، أنا لم أخرج من بيتي قط!

***

الآن أبدو كورقة خريفيّة في مهب رياح الخماسين، أقف بساقين مرتعشتين، وجسد يُرفرف أمام صفعات الرياح، منذ متى ورياح أغسطس بهذه القوة؟

لم يزعجني المطر الأحمر الذي بلل منامتي الرمادية وأفسد لونها المحايد بلونه الصارخ، كنتُ في همّ أكبر، كيف أستعيد بيتي الذي سرقته الفتاة العنقاء مني؟

حاول عقلي أن يرسم خطة ماكرة باستراتيجية مُحكمة من أجل إجبار الفتاة العنقاء على الخروج من البيت، فأهاجمها من مأمن، تمامًا كما فعلتْ معي؛ هل أحرق البيت فتجبرها النيران على الفرار؟

لكن في هذه الحالة قد أخسر سجادتي العجمية، وأنتَ تعلم كم هي باهظة الثمن، هل أصطاد فأرًا «بلديًا» سمينًا ثم أطلقه عليها من فتحة أصنعها في النافذة بكسرها؟ لكن الفتيات الحقيقيات فحسب من يخفْنَ الفئران، وتلك الفتاة التي لم أعرف حتى الآن ماهيتها -إنس أم جن أم قوة روحية أم طاقة أثيرية- لا أظنها تخاف الفئران.

لا بد أنها تخاف من شيء ما، وهذا الشيء لعلها ذكرته أثناء أحاديثها المتبادلة معي في الليالي الخمس السابقة.

فكر يا «لوط»، ما الذي يُخيف هذه الفتاة؟ لا بد أنها عرَّتْ أمامك نقطة ضعفها، هيا تذكر.

«هل هذا ما يجعلنا على قيد الشعور؟»

هكذا قالت الفتاة العنقاء عن البقعة القبيحة في السقف، هل كانت تقصد البقعة التي شبَّهتها بالشجرة، أم تقصد ساكن الطابق العلوي؟

أمِنَ الممكن أن يكون هو الذي أرسلها كي يستولي على البيت كله؟ لم لا؟! هذا يجعل الأمور غاية في المنطقية؛ المستأجر اللعين أراد البيت لنفسه، وخطط لهذه الحيلة كي يجبرني على مغادرة البيت.

يعلم أنني لن أتمكن من التحرك خطوة واحدة كي أذهب إلى قسم الشرطة فأشكوه، الأمر ليس بهذه البساطة؛ إذ ستكون هناك حاجة إلى

محامٍ ونيابة وقاضٍ وزيارات عديدة للقسم والنيابة والمحكمة، وكل هذا لن أفعله وإن انطبقت السماء على الأرض.

عجوز لم يُفارق بيته، يخشى الناس، والعالمَ من حوله، سينتهي به الحال لافظًا أنفاسه الأخيرة على عتبة بيته حيث أجلس الآن.

تذكرتُ الأفاعي التي نثرتُها في الحديقة حول البيت كي أمنع سكان الحي من الاقتراب، فانتفضتُ واقفًا عندما رأيتُ واحدة تزحف بين الحشائش المنثنية تحت وطأة قدم فيل، فيل يُشبه رئة يُمنى متضخمة، ورغم علمي أنها منزوعة السم تقافز الخوف وذريته وتعلَّقوا برقبتي، فثقل جسدي، ووهنتْ قوتي.

وحين خطر ببالي أن الثعابين ومكوثي وحيدًا على الجهة الأخرى من الباب هما أسوأ ما يمكن أن يحدث لي، فاجأتني الحياة بتحقيق أسوأ كوابيسي.

***

هاجمني جيش عظيم من الخِراف المُسلحة المتكورة على نفسها -حدث ذلك وأنا في أرض الواقع لا في عالم الأحلام- إنهم يصطفون الآن في صفوف مرتبة، يتحركون بطريقة لا تعرف العشوائية، أسلوب مُمنهَج كأنهم خاضوا ألف حرب وحرب، ولهم في جبين التاريخ مغانم وأمجاد.

لا قائد لهم كما هو معتاد في الجيوش والأساطيل، الجميع متساوٍ في القوة، والعُدَّة، والفرصة، هجموا عليَّ هجمة رجل واحد، سحقوا أضلعي، وفتتوا عظامي، وعجنوا عضلاتي، و «قرقضوا» مفاصلي.

محشورًا بين أجساد الخِراف المتلاحمة حاولتُ أن أجد منفذًا للهرب، لا إلى الشارع -ذلك مخيف أكثر من مواجهة جيش من الخِراف الشرسة-

بل إلى الأعلى، إلى الشخص الذي أؤمن أنه السبب في كل ما يحدث لي، إلى ساكن الطابق العلوي.

أفلتُّ نفسي بصعوبة من بينهم، زحفتُ، تمرَّغ وجهي في التراب حتى وصلتُ إلى السلم، ومنه هرولتُ صاعدًا إلى الأعلى للمرة الأولى في حياتي.

هاجمني دوار ثقيل شتت تفكيري، وصنع طنينًا في أذني، لكنني تحاملتُ على جسد هزيل وقلب مُنهك حتى وصلتُ إلى عتبة بيته.

ظننتُ أنني سأطرق الباب حتى تكل يدي وتؤلمني، وأنني مهما صرختُ وتوسلتُ لن يفتح لي، ولن يدعوني أبدًا للدخول، لكنني فوجئتُ بباب البيت مفتوحًا، وصوت رخيم يصل إلى حيث أقف على عتبته يُباغتني:

- مرحبًا بكَ يا «لوط».

نظرتُ إلى الأسفل حيث المعركة لا تزال دائرة بين جيش الخِراف وبيت من الملاط والقرميد تختبئ فيه الفتاة العنقاء، أسمع صياحها وصرخاتها دون أن أعبأ لأمرها، فلتواجه الخِراف وحدها.

بتردد كبير، خطوتُ إلى داخل البيت، فانغلق من خلفي الباب!

***

23

لم يكن ثمة أقفال مُثبَّتة على الباب من الداخل، ورغم ذلك عجزتُ عن إعادة فتحه، يبدو أنني حبيس هذا البيت إلى أن يأذن لي مُستأجره بالخروج!

ما بين قيد زماني وقيد مكاني ضاق صدري، وغلَت الدماء في عروقي غضبًا وغيظًا، هل صرتُ عبدًا للزمان والمكان؟

عبودية الزمان والمكان أسوأ أنواع العبودية؛ مثل: موظف يمضي سنوات عمره يعمل في مكان يبغضه، كأنه محكوم عليه بأشغال شاقّة مؤبّدة؛ لا يسعه تركه، ففي رقبته تتعلق زوجة وعيال.

أو امرأة تحبسها الصدمة في لحظة معينة، ترى الحياة كلها من خلالها، تُبصِر للثواني أسنانًا، وللدقائق خطاطيف وأنصال حادّة تُمزّقها من الوريد للوريد.

أو طفل يتخلى عنه أبواه وهما على قيد الحياة، فيقيده كُلًّا من المكان والزمان؛ يشعر أن العالم بحجم قَبر، وروحه بعُمر ألف عام.

أهذا ما فعلته بنفسي لنفسي؛ قيَّدتُ روحي إلى زمان ومكان، وحسبته العالم الوحيد الذي لا يوجد سواه؟

استغرقتُ دقيقتين كاملتين حتى تعتاد عينايَ على الإضاءة الخافتة، ثم انتبهتُ إلى أنه لم يكن ثمة مصابيح على الإطلاق، وأن مصدر الضوء هو اللون الأبيض للجدران.

تحسَب أن بيتي غريب؟! أنتَ لم ترَ بيت هذا الساكن العجيب، لا يحتوي على حجرات أربع مثل بيتي، بل لا يحتوي على أي حجرات على الإطلاق.

لم أعثر على أي غرف في الممر المتعرج الضيق الذي أفضى إلى ممر متعرج ضيق، أفضى بدوره إلى ممر متعرج ضيق!

وهكذا، طُفتُ في ممرات كل واحد منها يُفضي إلى آخر لا يُماثله في الطول، لكنه مقارب له في العرض والارتفاع، وكأنني فأر محبوس داخل متاهة لا نهاية لها، متاهة تُشبِه... تُشبه فروع الشجر!

هذا البيت بلا أثاث، جدرانه صمّاء ملساء، ذات لون أبيض، تتحد مع السقف والأرض في شكل دائري، كأنني أسير داخل أنابيب صغيرة من «المعكرونة الإسباكيتي».

للبيت حركة رتيبة، وكأن سقفه وأرضه وجدرانه تنقبض وتنبسط مثل دقات قلب.

نسيتُ أن أخبركَ أن أحد أسوأ مخاوفي هو الخوف من الأماكن التي لا أعرف مخارجها، أو علميًّا «أجورافوبيا»، وهذا ما ينطبق تحديدًا على المتاهة التي أقف بداخلها الآن!

***

مُحملًا بقافلة من الخوف فوق أكتافي سرتُ منحني القامة حتى كلَّتْ قدماي وصرختا تعبًا، تحاملتُ من أجل الوصول إلى نهاية المتاهة -إن

كان لها واحدة- شعرتُ أن الممرات تقصر كلما اقتربتُ من المنتصف، كأن فروع الشجر تلتف حول نفسها في حِزمة أو كُتلة.

تلبَّستني روح «ثيسيوس» في الأسطورة الإغريقية أثناء بحثه عن المينوتور داخل المتاهة في قصر التيه لقتله، استحق المينوتور القتل لترويعه سُكان جزيرة «كريت»، والمستأجِر العجيب كذلك يستحق القتل لأنه روَّع أمني وأفسد راحتي بإرسال الفتاة العنقاء لسرقة بيتي.

عليّ أن أقتل هذا اللعين أثناء نومه كما فعل «ثيسيوس» مع المينوتور، لكنني لن أستخدم الطعن مثله، فـ «الصامدة حتى النهاية» بين يدي صاغرة، مُتلهفة للانطلاق مرة أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

***

وأخيرًا، وصلتُ إلى نهاية المتاهة، شعرتُ أن الزمن هنا كُتلة من عجين يسهل تشكيلها، قد أُقسِم أنه استغرقني الوصول إلى نهاية المتاهة عامًا كاملًا، وقد أُقسِم أنها ثانية واحدة، وفي الحالتين لن أكون حانثًا.

ويا للغرابة! تبخَّرت قافلة الخوف فجأة، واحدًا تلو الآخر، كأنهم في حضرة شيء عظيم يتغلب عليهم ويفنيهم.

ما الشيء القادر على هزيمة الخوف بهذه القوة؟

استقبلتني ستارة لها لون الجدران البيضاء، تتراقص بفعل رياح لا أعرف مصدرها -لم أجد نافذة واحدة على طول الممرات الدائرية التي سرت فيها- تروح الستارة وتغدو في حركة انسيابيّة ناعمة، مما يشي بأن التيار الهوائي داخلي، كأنه قادم من فراغ الممرات وليس من خارج البيت، وهذا يتحدى قوانين الفيزياء التي أعرفها!

بيت من متاهة مُتعرجة، بلا غرف، بلا مطبخ أو حمام -أين يقضي هذا الساكن حاجته؟- لهو إحدى العجائب الكونيّة التي تتفوق على ما سواها.

لحظة! كيف عرف اسمي؟! ولماذا لا أعرف اسمه؟! أشعرني ذلك بانزعاج كبير؛ أن تتواجه مع من يتفوق عليكَ مَعرفيًّا لهو أمر يثير نقمتكَ وغيظكَ.

العلوم والنظريات تتغير؛ الذرّة التي قيل إنها لا تنقسم، انقسمَت، والمادة خالفتْ قانون دالتون للنِسب الثابتة، وأصبح بعضها يفنى في صورة طاقة، فلماذا لا أخالف أنا أيضًا ناموسًا معرفيًّا معلومًا بالضرورة، فأكون -في حقيقة الأمر- المُستأجِر وهو مالك البيت؟

ألا يُفسِّر هذا استماتته في الحصول على بيتي، والاستعانة بالفتاة العنقاء المُشتغلة بالسحر كي تحتال عليّ وتطردني منه؟ هل أكون أنا شرير هذه الحكاية! اِحتال وخدَع وسرق ونهب بوضع يده على بيت ليس له؟

أفزعني هذا الهاجس؛ لأنه يبدو منطقيًّا جدًّا، ويُفسر كل شيء.

كل شيء إلا الجثة في فراشي، لا يُمكن أن تكون نتيجة حيلة أو سحر مهما بلغتْ براعة الفتاة العنقاء والساكن العجيب، الجثة كانت حقيقية كما أنا حقيقي، وكما أنتَ حقيقي، ولم تنتج عن مخاض سحر، إنها الشيء الوحيد الذي يُفسد الترابط -النظري- لأحداث هذه الليلة الغرائبية.

***

- تفضل بالجلوس يا «لوط».

هذا الساكن إما واهمًا أو مازحًا؛ لم يكن ثمة مقعد كي أجلس عليه، ولأن قدمَيَّ تئنّان تعبًا، افترشتُ الأرض البيضاء تحتي، التي لا تشبه السيراميك ولا الباركيه ولا أي مادة استخدمها بشري من قبل، إنها أقرب لملمس العجين!

جلستُ القرفصاء، بينما أنظر حولي، لا شيء سوى جدران بيضاء تنبض بانتظام، مُتعرجة كأنها... كأنها أمعاء دقيقة!

الجو به لسعة برودة خفيفة؛ إنه عقاب البيت لحرمانه من الشمس.

انطلقت الأسئلة من فمي في محاولة لحصد إجابات منطقيّة تُفسر كل ما غاب عن إدراكي:

- كيف تعرف اسمي؟ ولماذا لا تجلس معي؟ لماذا تتخفّى وراء هذه الستارة البيضاء العريضة؟ أوَلستُ ضيفكَ، ويجب عليكَ احترام ضيوفك؟

صحيح لم أرَه بوضوح؛ إذ حجبَته الستارة عني، لكنها كانت شفافة إلى الحد الذي مكَّنني من رؤية خياله يتحرك من خلفها، وصدقني أو لا تفعل لم أتمكن من تحديد ما إن كان جالسًا أم واقفًا! لم يبدُ بطول إنسان يقف على قدميه، ولم يكن كذلك بأبعاد رجل يجلس على مقعد، بدا كأنه... كأنه يسبح في الهواء!

يسري صوته في المكان بلا صدًى رغم فراغ البيت من الأثاث، يسألني:

- لماذا أنتَ هنا يا «لوط»؟

احترتُ؛ هل أجيبه بالحقيقة أم أطمس بعضها؟ لم أتمكن بالطبع من أن أخبره أنني قادم لإفراغ رصاصات «الصامدة حتى النهاية» في تجويف رأسه، فقلتُ:

- أنا هنا لأنني أظن أنك ترغب في الحديث معي، أنا محق في حدسي، أليس كذلك؟

ضحك ضحكة لها رنة، بلا صدًى، قال:

- وهل تثق كثيرًا في حدسك؟

بعد لحظة تردد أجبته بثقة لا أملكها:

- نعم أثق به، لذلك عندما يخبرني حدسي بأنكَ الشخص الذي دبَّر خدعة القيد الزمني والليلة التي تُكرر نفسها -بكيفية الله وحده يعلمها- وأنكَ أرسلتَ الفتاة لتسرق بيتي، أقول له: آمين.

- ولماذا أرغب في بيتك؟

هذا الساكِن العجيب يرغب في اللعب معي! هكذا شعرتُ، كأنه يملك وقت العالم كله، وأرضه كذلك، لا يخشى جحافل الخِراف التي لا بد وأنها اقتحمتْ بيتي الآن وأسَرَت الفتاة العنقاء تمهيدًا لبيعها في سوق الرقيق، إن كان للخِراف واحد.

قلتُ بانفعال لم أستطع كبحه:

- لأنكَ تظن أن بيتي ملكك، وهذا ما لا أفهم سببه؛ البيت بيتي منذ نشأتُ، ولدتُ وترعرعتُ بين جدرانه، فلماذا تسعى الآن كي تسلبني إياه؟ إن كنتَ تحمل مقدار ذرة من جرأة تحدث معي بالحقيقة الآن.

- وما أدراكَ أننا نتحدث الآن بالفعل؟ ما أدراكَ أن هذا ليس حلمًا تعيش بين تفاصيله، أو حالة هلوسة أصابكَ بها شيء أكلته أو شربته؟ ما يدريكَ أنكَ لستَ واقعًا في شَرَك أحد حِيَل العالم الافتراضي مثلما حدث في بلاد تركب العنكبوت؟

يتحدث عن بلاد عجيبة، تمامًا كما تروي الفتاة العنقاء حكايات عارية من المنطق، وهذا دليل آخر يثبتْ تواطؤهما في أمر ما، أمر بالغ الأهميّة؛ حتمًا سأكتشفه بعد قليل، آن لكل هذا الغموض أن ينتهي.

لن أكذب عليكَ، هزَّتني كلماته، كيف يثق المرء في أنه لا يحلم أو يهلوس أو ليس واقعًا في شرك أحد تطبيقات العالم الافتراضي؟

أعرف تلك الأسئلة -طبعًا باستثناء السؤال الأخير- طرحها من قبل الفيلسوف «ديكارت»، حيث كانت نقطة الانطلاق -من وجهة نظره- لمعرفة الطبيعة الحقيقية للعقل البشري، وعلاقته بالعالم الماديّ.

لستُ في حلم، هذا مؤكد، الليلة تُكرر نفسها، وهذا لا يحدث أبدًا في عالم الأحلام، لا أحد يرى الحلم نفسه ست مرات متتالية في نفس الليلة.

أما الهلوسة، فلا أظن؛ عقلي صافٍ جدًّا، وأنتَ تشهد على أنني منطقيٌّ جدًّا، لا أبدو كأنني عجوز يتعاطى ممنوعات، أو يشرب ما يسلبه عقله، أو مصاب بمرض تتداعى به خلايا ذاكرته. أما العيش داخل تطبيقات العالم الافتراضي، فأنتَ تعلم أنني أكرهها، ولا أحب أن أستخدمها، فكيف دخلتُ في شركها إن كنتُ لا أستخدم هاتفًا محمولًا من الأساس؟

إذًا كما ترى، فرضياته الثلاث سقطتْ من علياء الخيال، وتمرَّغتْ في وحل الواقعيّة.

ولمَّا لم تبلغه مني إجابة، أعاد سؤاله، كأنه البوابة لكل شيء:

- ما أدراكَ أنكَ تتحدث معي بالفعل، وتطارحني الأفكار؟ وأنني لستُ هلوسة عابثة أو حلمًا في رأسكَ؟

أجبتُ بحدة:

- لأنني أسمع صوتكَ في أذني، وأرى خيالكَ يتحرك من خلف الستار، أحس بحركتكَ في المكان، وأشم رائحة معدنية تنبعث منكَ، وأكاد أشعر بمذاقها فوق حلمة لساني.

سألني في جدية بالغة:

- وهل تثق في حواسك؟

السؤال ذاته التي طرحته عليّ الفتاة العنقاء، مما يؤكد تمامًا صحة نظريتي عن تواطئهما معًا ضدي.

- نعم، أثق بها.

- إن في أكثر أحوالكِ راحة، وبينما أنتَ نائم في فراشك يستطيع عقلك أن ينسج لكَ حلمًا لا تفرِّقه عن الواقع؛ يوهمكِ بأن جيشًا من الخِراف المجهَّزة بأعتى الأسلحة يتجهَّز لقتلكَ، بينما أنتَ نائم آمن في فراشكَ، ينبض قلبكَ فزعًا، ويتفصَّد جبينكَ عرقًا، وينتفض جسدكَ هلعًا، لأنك ترى وتسمع وتشم وتتذوق وتتحسس ما يجعلك تظن أن حياتكَ تتعرض لأخطار حقيقية لا داخل حلم، فهل بعد كل ذلك ستثق في حواسّك التي تخبرك أن هذه المحادثة حقيقية؟

استفزتني كلماته التي تُزعزع ثقتي فيما أؤمن به، فاندفعتُ واقفًا، يهتز جسدي مثل موجة غاضبة وأنا أهتف به:

- هذا واقع لأنه ينبض بالحياة.

- من أخبركَ أن الواقع مُفعم بالحياة أكثر من الحلم؟

- الأحلام بلا ألوان، لكن الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان الكودزو العنقاء اقتحمتْ بيتي بألوانها النابضة بالحياة، هذا ليس حلمًا.

قلتها بثقة وأنا أجز بأسناني فوق بعضها. ضحكَ أخيرًا، ضحكة متعرجة، لها لون أبيض مضيء، باغتني مُستسلمًا:

- صدقت، هذا ليس حلمًا.

تنهدتُ براحة، كنتُ أثق بذلك، لكن سماعها منه أراحني كثيرًا، لكن اللعين لم يسمح لي بأن أهنأ؛ إذ أردفَ:

- لكنني قد أجعلكَ ترى ثمرة طماطم دون أن يكون هناك طماطم بالفعل، وعندئذ تكون الطماطم لا حقيقة ولا حلمًا، بل وهمًا في رأسكَ.

- مستحيل أن تُريني ثمرة طماطم إن لم يكن هناك واحدة.

قلتُ ذلك بحدة رغم أنني فهمتُ ما يرمي إليه.

دعني أشرح لكَ ذلك، بينما أحاول تخليص قدمَيَّ من فروع التفَّتْ حولهما لشجرة نابتة من تحتي، مُتشعبة ملتصقة بالأرض، بلا ساق، كأنها ثمرة قرنبيط تتشعب منها ممرات البيت كله، تحمل ذات اللون الأبيض للأرض، لها ليونة الشرايين.

هذا أيضًا شيء نجحت الفتاة العنقاء في أن تكون محِقّة فيه؛ البقعة القبيحة في سقف بيتي لا بد أنها تقع تمامًا أسفل هذه الشجرة، وتحمل -بشكل إعجازي كما لو كنتُ أقف داخل مخ أحدهم- شكلًا متداخلًا مثل أفرُع الشجر، كأنها شبكة عصبيّة مُعقَّدة!

ماذا كنتُ أقول؟ نعم الطماطم. خبراتنا الحسِّية المتعلقة بالسمع والبصر والشم والتذوق واللمس تعتمد على عمليات معقدة تتم داخل المخ؛ فالضوء الذي ينعكس على ثمرة طماطم يتوجه إلى شبكيّة عينكَ، ينتقل في صورة فوتونات تتسبب في إرسال إشارات عبر الأعصاب البصرية لمركز معالجة الصور بالدماغ، فتتمكن أنتَ من رؤية ثمر الطماطم. لكن إذا حدث أن تمَّتْ إثارة هذه الخبرة الحسّية عبر الدماغ مباشرة بطريقة اصطناعية؛ كأن أقومُ بفتح دماغ الفتاة العنقاء وأحفِّز بشكل مباشر جزءًا معينًا من المادة الرمادية من دماغها، سيقوم دماغها بتحفيز الرؤية متجاوزًا العمليات التي تتم في العصب البصري؛ أي: إن الفتاة العنقاء ستتمكن من اختبار إحساس رؤية ثمرة طماطم، وستقسم لكَ أنها تراها، دون أن يكون هناك ثمرة بالفعل. وبالتبعية، يمكنني أن أحفز دماغها لشم عطر، أو للإحساس بملمس، أو للشعور بنكهة، أو لسماع صوت لا وجود له.

لكن السؤال هنا -وأظن أن هذا ما يحاول الساكن العجيب أن يرميني به- هل من الممكن أن يعيش الإنسان حياة كاملة ليستْ موجودة على الحقيقة، من خلال تحفيزات موجَّهة لمناطق معينة بالدماغ؟

وأن حديثنا معًا الآن ليس حلمًا أو هلوسة، بل هو نتاج تحفيز اصطناعيٍّ يتم في دماغي أنا؟!

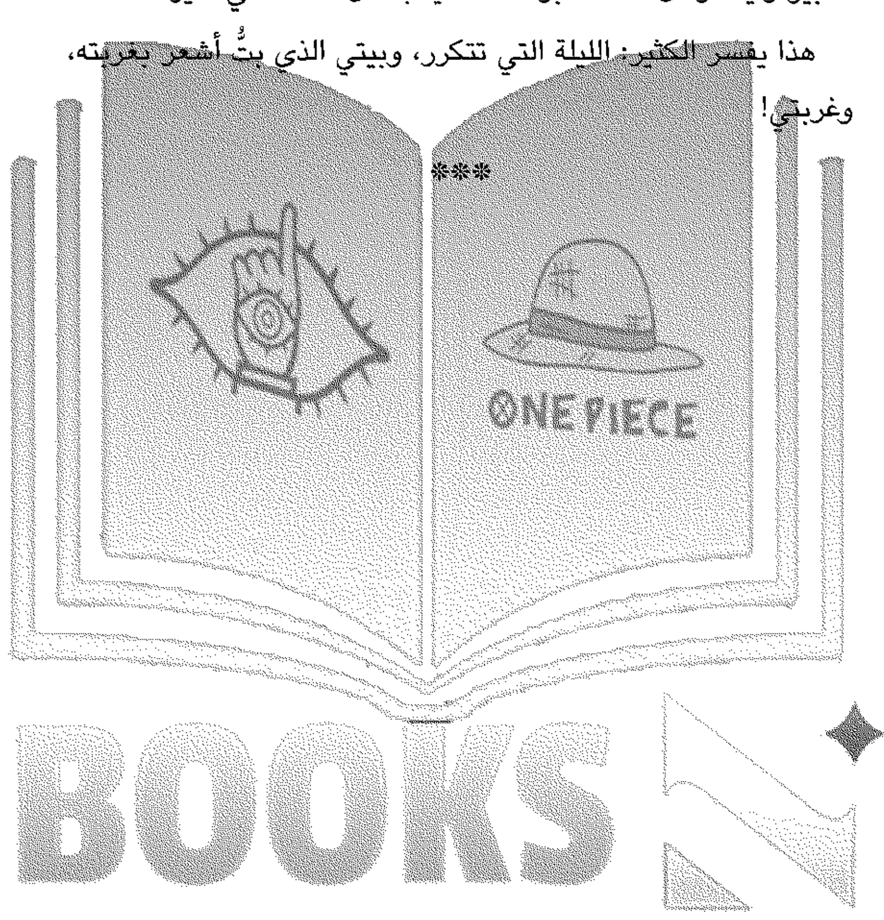
هل ثمة طبيب أعصاب يجلس الآن فوق رأسي في غرفة عمليات بطابق سادس بمستشفى كبير، يقوم بشق دماغي وتحفيز النظر والسمع والشم والتذوق واللمس بشكل اصطناعي مثير للدهشة؟

هل هذا ممكن؟

هل هذا ما يحدث الآن؟ أم أن الوضع أسوأ؟ هل أنا روح دون جسد فيزيائي مادي، دون دماغ على الإطلاق؟ هل أنا متصل الآن بجهاز كمبيوتر يحفز كل هذه الخبرات الحسية بشكل اصطناعي مثير للشفقة؟

هذا يفسر الكثير: الليلة التي تتكرر، وبيتي الذي بتُّ أشعر بغربته، وغربتي!

***



24

«أنا أفكر، إذًا أنا موجود».

طاف بعقلي هذا المبدأ الديكارتي، أنا الآن أشك في ماهيّة الوجود من حولي، وهذا في حد ذاته دليل على أنني موجود، يجب أن أكون موجودًا في الأساس كي أمارس التفكير والشك، وهذا هو النصف الممتلئ من الكأس.

لا أؤمن بمذهب «الأنانة» الذي يرى أن الذات هي الشيء الوحيد الموجود، وأن ما حولها من أشجار وأنهار وصخور وجبال وفئران وطيور وحشرات وكواكب ونجوم ومجرات ما هي إلا سلسلة طويلة من الهلوسات غير الموجودة في الواقع.

أي إن الجدار الذي إلى يمينكَ غير موجود، والطاولة التي إلى يسارك لا أثر حقيقي ملموس لها، وأنها نتاج تحفيز اصطناعي لخلايا عقلك جعلك تظن أنها موجودة.

لا أؤمن بهذا الهراء -وأثق أنكَ أيضًا لا تؤمن به- لكنه دفعني للتفكير، والتفكير هو عملية عقلية معقدة يتكاسل البشر عن ممارستها في عصر الاختزالية. فكرتُ فيما يلي: هل الجدار الأبيض المتعرج الذي أنظر إليه الآن هو جدار له الهيئة التي تنطبع في ذهني؟ أقصد هل هو باللون

والملمس والطعم والصوت والرائحة التي أظنه عليها؟ أم أن ستارًا ما حجب عن حواسّي صفاء الإحساس، فبالتالي أرى الآن جدارًا بصفات غير الموجود في الحقيقة؟

ستتعجب ما الذي دفعني لهذا التفكير؟ في الحقيقة هي آية قرآنية من سورة «ق» مرَّتْ بخاطري، كنتُ قد سمعتها في إذاعة القرآن الكريم -يوم أن كانت أصداء القرآن لا تنقطع عن بيتي- مصحوبة بصوت الحُصري. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

هذا يعني أن أبصارنا محجوب عنها الكثير: الجن، والملائكة، ولربما أيضًا حقيقة الموجودات من حولنا، فكيف أجزم الآن أنني واثق في حواسّي تمام الثقة بينما يغيب عنها الكثير؟

كيف أؤمن أن الموجود هو فحسب ما أراه؟ وأن ما لا أراه غير موجود بينما قدرتي البصرية قاصرة ومحجوبة بستار لن ينحصر إلا يوم الحساب؟

***

تحدّث الساكن العجيب مقاطعًا سيلان أفكاري، بينما لا أزال أحاول تحرير قدمي مما علق حولها من غصون؛ لأكون على أهبة الاستعداد لتصويب «الصامدة حتى النهاية» إلى رأسه وتفجير محتوياتها:

- ثمة فجوة كبيرة بين الواقع والعقل، وإلى حد كبير السبب في هذه الفجوة هي الحواس القاصرة أحيانًا، والمخادعة أحايين أُخَر.

ما الذي يحاول أن يثبته لي؟ ماذا يريد أن يقول؟ وقبل أن أسأله عن ذلك، استطرد قائلًا:

- تصورنا عن العالم نابع من قدرة حواسّنا على رسم صورة عنه؛ الإنسان العادي يرى العالم بحواسه، لكن الحواس وحدها ليست كافية لاكتشاف حقيقة الحياة ومغزاها، أنتَ لا ترى في السماء ربًّا، وحواسّكَ وحدها ليست كافية لإثبات أنه موجود، لكنكَ تدرك وجوده بأدوات إدراكية أخرى، مثل القلب؛ القلب هو البيت الذي تصب فيه الحواس ما جمعته من معلومات، ودون القلب لن تتمكن من تكوين صورة للعالم من حولك.

- القلب لا يُفكّر.

- بل هو موطن التفكير؛ إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، لا يرى إلا من له قلب، ولا يسمع إلا من له قلب، ولا يتذكر إلا من له قلب، ولا يعقل إلا من له قلب.

- أنت تتحدث مثل الفتاة العنقاء، لكنني أثق في حواسّي فحسب.

- حواسّكَ قاصرة، لو كان للإنسان حواس فائقة القدرة، مثل تلك التي يقرأ عنها في روايات الخيال العلمي للأبطال الخارقين، لرأى العالم بشكل مختلف تمامًا عما يراه الآن، الدماء التي تراها حمراء اللون، إذا فحصتها بشكل دقيق تحت مجهر فستبدو لكَ ككرات حمراء تسبح في سائل رائق، أنتَ ترى الصورة كاملة، وتخفى عنكَ الكثير من التفاصيل.

تهتُ بين كلماته! كرات حمراء تسبح في سائل رائق؟ كرات حمراء دموية اللون، تبدو في صورة سائلة، لزجة، تبدو كالعصير، أو «المربى»!

يُذكرني هذا بشيء هام، لكنه يقفز من ذهني في اللحظة التي أطبق فيها عليه!

قلتُ:

- هل هذا قصور في الخلق؟

- بل هذا من رحمة الخالق!

- لماذا تقول أن حواسي قد تخدعني؟

- لأنه يسهل التلاعب بها.

استطردتُ معاندًا:

- لا أحد يستطيع توجيه حواسّي لاستشعار شيء غير موجود.

- هذا يحدث طوال الوقت، الكلمات المجتزأة، الصور الناقصة، الأصوات المبتورة، الدعاية، الخطابات الرنانة، كلها أدوات تلعب على حواسّك وتوجهها إلى حيث شاء أصحابها، لكن الفرق بين إنسان وآخر أن أحدهم يسلم لقلبه الدفة لفحص وتمحيص مدخلات حواسه، وآخر يتجاهل قلبه ويعزله من منصبه، كما فعلتَ أنتَ مع قلبكَ يا «لوط».

هذا الساكن العجيب يريد أن يُريني شيئًا، وهو الشيء ذاته الذي حاولت الفتاة العنقاء أن تريني إياه، لكنني ما زلتُ عاجزًا عن الرؤية بجلاء. فهل تمكنتَ أنتَ من رؤية هذا الشيء؟

أردف الساكن العجيب من خلف الستار مستكملًا حديثه الذي حاز على كامل انتباهي:

- خلقَ الله حواسّكَ بالشكل الذي تحتاج إليه، والذي يعود عليكَ بالنفع، لكن رغم ذلك يجب عليكَ أن تدرك أنكَ قاصر عن إدراك كل تفاصيل العالم من حولكَ، يجب ألا تغتر بنفسكَ يا «لوط»؛ لأن العالم الذي ترسمه حواسّكَ في قلبك ليس هو العالم الوحيد!

ملايين البشر يرسمون في قلوبهم عوالم مختلفة، فتجد المتفائل والسوداوي، والمحب للخير والكاره للناس، المُختَزِل للحياة والمستفيض فيها، الزاهد واللعوب، المتدين والمتشكك، كل يعيش حياته وفقًا للعالم المرسوم في قلبه.

أصابتني كلماته في مقتل، شعرتُ كأن روحي تنزف، وأعصابي تخور؛ سألته وقد توقفتُ عن محاولة تحرير قدمَيَّ:

- هل يُمكنني أن أنتقل من عالم لأعيش في آخر، كما ينتقل أحدنا من مسكن إلى آخر؟

ظننته سيجيبني بالنفي، لكنه فاجأني:

- نعم، يمكنك يا «لوط».

سألته بلهفة المشتاق، وبلوعة المُعذَّب:

- كيف؟

- أن تُغيِّر ما تراه وتسمعه وتشمه وتتذوقه وتلمسه، الحواس هي بوابات العوالم كلها يا «لوط»، وما عليكَ أن تفعله هو ما حاول قاتل مائة النفس أن يفعله قبل أن تخرج روحه إلى بارئها.

- وماذا فعل قاتل مائة النفس؟

- أدركَ أنه كي يغيِّر عالمه المرسوم في قلبه، الذي يدفعه للقتل بدماء باردة وضمير ميت، عليه أولًا أن يُغيِّر الموجودات من حوله، أن تتغيَّر الصور والأصوات والروائح والنكهات والأحاسيس الذي تستقبلها حواسّه، فتتغير مفردات العالم المرسوم بداخله، أدركَ قاتل مائة النفس أن جوارحه أمانة.

صمتَ لفترة طويلة، خِلتها ساعات، شعرتُ كأنني بحديثه أطأ مناطق جديدة لم يبلغها تفكيري من قبل، شعور بالمغامرة والاستكشاف والبحث عن النور في نهاية النفق.

قطعتُ حبال صمته؛ قلتُ وشعور باليأس يغمر شواطئ الأمل بداخلي:

- لكنني لا أعيش في العالم وحدي، الناس من حولي يدفعونني لرؤية ما لا أرغب في رؤيته، ولِشمّ ما تأنفه غددي الشمّيّة، ولسماع ما تنفر منه أذناي؛ الناس تدفعني لتذوق مرارة خذلانهم ودناءاتهم، ولمس قيحهم وخراريجهم، وسماع أكاذيبهم وادعاءاتهم، الناس من حولي يصنعون عالمًا لا أريد العيش فيه.

سكتَ سكتة طويلة كسابقتها، ثم قال بحكمة رجل عاش لألف عام:

- هل تعرف كيف تتمكن الخفافيش من رؤية تفاصيل عالمها؟ إنها تستخدم نوعًا من «السونار» أو الاستشعار عبر الصدى؛ تصدر صوتًا مدويًّا، ثم تُسجِّل الموجات الصوتية التي ترتد إليها لرسم خريطة العالم من حولها، عليكَ أن تحذو حذوها لتحديد تفاصيل العالم من حولك.

- كيف؟!

- بالصراخ.

- كيف؟!

- البشر كالخفافيش يصرخون طوال الوقت: ألمًا أو همًّا أو حزنًا أو غضبًا أو استجداءً، ومع كل صرخة تتردد الأصداء من حولهم، تَرتد إليهم، فيرسمون خريطة للعالم، يستكشفون الأماكن التي يرتاحون إليها، وتلك التي تزيد من أعبائهم وتقصم ظهورهم، فيحبون أماكن ويكرهون غيرها، بصرخاتهم البشرية التي لا

تسمعها سوى القلوب يُميِّزون الأشخاص الذين يهتمون لأمرهم، ويستجيبون لأنَّاتهم، ويعرفون كذلك أصحاب الجرائم القلبية: اللامبالي والحاقد والشامت ومُبغض الحق والمُعاقِر لظن السوء، فيُقرِّبون النوع الأول ويضعون له مكانًا مميزًا في عالمهم، وينبذون الثاني ويعاقبونه بالنفي عن دنياهم، يُحددون من يستحق الحياة في قلوبهم، ومن يستحق القتل مُعلقًا من قدميه في سقف إحدى غرف القلب كحيوانات المذبح! رسْم عالم أفضل بداخلكَ هو حق أصيل لنفسكَ عليك.

دفعني ذلك لأن أفكر في أن ألقي بلوحة الموناليزا المُقلَّدة في أقرب مكب نفايات، وأن أتخلص من وحشي الأليف الذي أشمئز منه وأحتفظ به فقط لأثبت لجمهور وهميّ قدرتي وتفرُّدي على أن أُخلِّص عالمي من كل الموجودات التي أكرهها ولا أتواصل معها قلبيًّا.

قلتُ:

- لكن بعض الأشخاص والأماكن والأحداث لا يُمكنني التحكم فيها، لا يُمكنني حجبها عن عالمي، أو تغييرها إلى الأفضل: إنها تحدث دون إرادتي: الحروب والصراعات والكوارث والمجاعات، الإفساد والأذى والتنمر والخيانة كيف يُمكنني حذفها من الديكور الداخلي لعالمي؟

- عليكَ أولًا أن تدرك حجمكَ الحقيقي وقدرتك الفِعلية، أنت لست مركزًا للكون، ولست بطلًا خارقًا يجوب مشارق الأرض ومغاربها دفعًا للظلم ونُصرة للحق، أنت بشرِي محدود القدرة، وفي أحيان كثيرة تكون عليل الفهم مشلول الإرادة، لا يمكنك إصلاح العالم، لا يمكنك حتى التفكير في قدرتك على إصلاح العالم؛ سمكة زبَّال صغيرة لا يُمكنها تطهير المحيط، لكن بإمكانها أن تُنقِّي

سنتمترات مكعَّبة من المياه داخل حوض زجاجي صغير، عليك أن تفهم قدرتك الحقيقة كي تدرك أي حوض زجاجي قد يسع سمكة صغيرة بحجمك، الشر موجود ولن يتقهقر، وسيظل في صراعه مع الخير دون فائز أو مهزوم حتى الجولة الأخيرة عند قيام الساعة، سيظل الأوغاد يجوبون العالم من حولنا، يتنفسون هواءنا، ويستظلون بسمائنا، وقد نبيتُ معهم تحت سقف واحد؛ لستَ ملزمًا بتغيير كل شيء، لكنك مجبور على تغيير ما تستطيع تغييره، وهذا هو بيت القصيد: أن تدرك ما تستطيع وما لا تستطيع، فتتحمل عِبأك الخاص، دون أن تُكلِّف نفسكَ ما لا يسعُها، كي لا تنهار تحت وطأة الإحباط والفشل.

- لكن العالم مُشبَع بالخيبات، رائحة العفونة تخرج من كل شق وتظهر أسفل كل حجر.

- عندما تكون محمولًا فوق أجنحة الحق لا يضُرُّك من خالفكَ أو خذلكَ أو عاداكَ، أو من يحاول أن يُسقطكَ من علٍ، كونكَ على حق في عالم تتشوه فيه الثوابت، وتختلط فيه المفاهيم هو انتصار لا يُستخَفّ به، أنتَ تظن أنك في معركة مع العالم طوال الوقت، لكن المعركة الأشد هي معركتك مع نفسك؛ كيف تُحافظ على قلبكَ نظيفًا وسط الدَنَس؟ كيف تُبقيه طاهرًا بلا نقط سوداء تُفسد رائحته وتشوه جدرانه؟ كيف تُبقيه محميًّا من فيروسات التفكير، وبكتيريا الشعور، وفطريات العلاقات؟ هذا معنى أن تكون غريبًا في زمن الغربة، أن تَصلُح عندما يَفسد الناس، وأن تُصلِح ما أفسَده الناس. أن ترى المُنكر وقد صار واقعًا غير قابل للإنكار أو التغيير هذه ليست سوى لغة المهزومين، لغة يُصدِّرها الساسة، والناس على دين ملوكهم. احمِ بيتكَ من آفات الانهزامية يا «لوط»، قوِّ

مناعتك ضدها، احمِ البيت الذي يقبع داخل مغارة الصدر، والذي يسعكَ بحجراته الأربع.

احمِ قلبــكَ يا «لوط»!

***

سألته وما زال لكلماته الأخيرة أصداء تتردد بداخلي:

- وإذا حاول أحدهم أن يعيث الفساد ببيتي، بقلبي؟

ارتفعتْ عقيرته آمرًا:

- اقتل كل من تُسوِّل له نفسه أن يُفسد بيتكَ.

صدمتني جرأته، هل ينصحكَ بالقتل الشخص ذاته الذي يتحدث عن الانتقال من عالمكَ السوداوي إلى عالم أكثر إشراقة وبهاء؟!

أردفَ بالقوة ذاتها:

- اقتلهم كما فعلتَ وركمتَ جثثهم في إحدى غرف بيتك يا «لوط».

سألته بلهفة، أستمد منه راحة لضمير أرَّقته الفتاة العنقاء:



- كنتُ مصيبًا في قتلهم، أليس كذلك؟

- ليس الجميع يا «لوط»، ليس الجميع.

طأطأتُ رأسي خجلًا وندمًا على ظلم أشخاص ما استحقوا هذه الميتة البشعة، كانت الفتاة العنقاء مُحِقَّة، لقد عاقبتُ الجميع دون أن أفرق بين عدو وصديق.

أزعجني هذا الإحساس الذي اقتحم عالمي الآمن، بدا كأنه لمس هذا في نفسي فقال:

- التغيير يتطلب جهادًا للنفس يا «لوط»، لا تغيير دون جهاد.

- ماذا تنصحني أن أفعل؟

- اذهب إلى تلك الغرفة التي اتخذتَ منها مقبرة جماعية، أفرغها مما يثقل رائحة البيت بالنتَن، ادفن من يحتاج إلى الدفن، لا لأنه يستحق، بل لأن قلبك يستحق أن يكون أخف يا «لوط»، كل هذه الجثث والأشلاء تثقل قلبكَ وتفسد هواءه.

ثم أردفَ:

- وابعَث من قتلته ظلمًا، انفخ في زوجتكَ وصديقكَ من روحكَ، امنحهما حياة جديدة في قلبكَ.

- لا أستطيع، لقد آذوني.

- لم يفعلا يا «لوط»، فقدتَ السيطرة على عالمكَ الداخلي، انقلبَتْ حواسُّكَ ضدكَ يا «لوط»؛ لأنك عزلتها عن قلبكَ، ما رأيته لم يكن دليل خيانة، وما سمعته عنهما من شائعات سممتْ عالمكَ لم تكن الحقيقة، أنتَ سمحتَ لحواسكَ أن تمسك بزمام عالمكَ فتخدعكَ، سلَّمتَ عينكَ وأذنكَ لعالم يسهل عليه التلاعب بحواسك، وعزلتَ قلبكَ من منصبه يا «لوط»، نزعتَ عنه عقله، بات قلبكَ مجرد بيت رمادي من حجرات أربع يقف على الحياد من كل شيء فاقدًا للبصيرة ،لا يفرق بين الخطأ والصواب، وصار عقله ساكنًا عجيبًا منبوذًا وحده في الظلام لوقت طويل، يقيم في طابق مرتفع لا تزوره أبدًا!

قلتُ بلهفة الدنيا:

- أنت هو، أليس كذلك؟ أنت مخ القلب الذي حدثتني عنه الفتاة العنقاء، أنت مخ قلبي أنا.

- ليس قلبكَ، ليس قلبكَ أنتَ يا «لوط»!

***

25

كانت أفكاري تائهة في زحام ما تتلقاه حواسي من معلومات، وأثق أن أفكارك كانت تائهة كذلك، إلى أن رماني الساكن العجيب بالحقيقة التي كنتُ أشعر بها لكنني عاجز عن رؤيتها.

أنا طبيب، ورغم ذلك فشلتُ في معرفة حقيقة الموجودات من حولي، وأنتَ كذلك تعلم الكثير عن القلب وأركانه، والعقل ومقاصده، لكنك غفلتَ عن رؤية ما يجب عليكَ أن تراه، مثلي تمامًا.

بيتي هو القلب الذي تقوقعتُ فيه على نفسي ولم أشأ مغادرته قط، لم أرغب في التعامل مع العالم الخارجي، نفرتُ من الذوبان في تيار الحياة المصطنعة التي تشيخ يومًا بعد يوم.

هجرتُ العالم، وهجرتُ عقلي كذلك، الساكن العجيب الذي أصبح غريبًا عني، لا أذكره، ولا أزوره أبدًا.

إذا كان بيتي هو القلب، والذي يُحدثني من خلف الستارة البيضاء في بيته ذو التلافيف المتعرجة هو مخ القلب، فلماذا يقول أنه مخ قلب شخص آخر وليس قلبي؟

ثم من أكون أنا؟

لستُ جسدًا بالتأكيد، أنا أتحرك في أرجاء قلبي بحرية، هل أنا روح تجوب جسد «لوط»؟، روح حائرة، تائهة، جاهلة؟

هل أنا روح «لوط» أم نفْسه؟ لستُ روحه بالتأكيد، الأرواح لا تتحدث، لا تُفكر، لا تُقدم وجهة نظر، لستُ البخار الخارج من تجويف سويداء القلب الساري في العروق، الذي نسميه نحن الأطباء بالروح، ولست الروح التي نفخها الله في الجسد فمنحته الحياة.

لا بد أنني النفْس التي بين جنبيه، النفس التي تتحدث بداخله طوال الوقت، تخبره ما يجب عليه أن يفعله، تحاوره، تلاسنه، تتحدث بصوت لا يسمعه غيره، والتي تقول لها الملائكة اخرجي أيتها النفس الطيبة راضية مَرضية، أو اخرجي أيتها النفس الخبيثة ساخطة مسخوطًا عليكِ.

أما أنتَ، فلا بد أنك «لوط» بكل ما فيه من عقل وقلب ونفْس وروح، أنت الوعاء الذي يتلقَّى كل ذلك ويعجنهم معًا، أنت «لوط» الذي يستمع إلى نفسه وهي تحاوره طوال الوقت، سواء وافقها أم خالفها، لا أستطيع التوقف عن التحدث، وأنتَ لا تستطيع التوقف عن السماع.

لكن أين نحن الآن؟ ماذا يفعل جسد «لوط» المادي في تلك اللحظة؟ كيف يبدو من الخارج؟

نحن في الداخل لا نتمكن من رؤية ما يحدث خارج الجسد، لماذا؟ هل ماتت حواس «لوط»؟ هل يتجهَّز جسده ليُكفَّن؟ هل يُغسَّل في تلك اللحظة؟

لماذا توقفنا عن استقبال المعلومات من حواسه؟

أشعر بقلق رهيب، أنا خالد لا أموت، لا تموت النفْس بفناء الجسد، لكن بفناء الجسد تنتهي مهلة الإصلاح والتقويم، بفناء الجسد سيتوقف

حالي ومآلي، لن أتمكن أبدًا من إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وإذا قلتُ «يا رب ارجعون» سأرجع خائب الرجاء.

لا تزال لدي فرصة ما دام الجسد موجودًا.

هناك الكثير من الجثث عليّ أن أتخلص منها، وجثث عليّ أن أنفخ فيها من ندمي فأبعثها للوجود، أستسمحها كي تتقبل اعتذاري.

***

تمكَّنتُ أخيرًا من تحرير قدمَيَّ، تأملتُ المكان من حولي بإعجاب ورهبة، بعد أن تبيَّنتُ حقيقته، رحتُ أردد في دهشة ممزوجة ببريق أخَّاذ:

- أنا الآن داخل شبكة عصبية معقدة تُمثِّل الجهاز العصبي الخاص بالقلب، أنا الآن أحاور مخ القلب!

أجابني الساكن -الذي لم يعد عجيبًا- قائلًا ببشاشة:

- نعم أنت تحاورني يا «لوط».

استشكلتُ أمرًا، فبادرتُ بالسؤال:

- ومن تكون الجثة التي أعثر عليها في فراشي كلما استيقظتُ من النوم؟

- إنها «لوط» كذلك.

- أي جزء من «لوط»؟

- أنتَ طبيبٌ ولا يجب عليكَ أن تسأل هذا السؤال، الجلد الذي يتجدد كل يوم بموت بعض خلاياه، يولد منه خلايا جديدة لتُعوِّض ما مات؛ وكذلك نفسك، وقلبك، وعقلك، وآراؤك، ومعتقداتكَ، وأوهامكَ، وأحلامكَ، كل شيء فيك يتجدد، أنتَ لستَ الشخص الذي كنته بالأمس، والذي كنته من شهر أو سنة أو عشر سنوات، أنتَ تُبعَثُ

كل يوم من رمادكَ كما العنقاء، أنت تُولَد كل يوم من قلبكَ موضع الصدر، من شق كبير، كل يوم لديكَ فرصة ذهبية لكي تكون «لوطًا» جديدًا، وستستمر في الموت والولادة حتى تطلع الشمس من مغربها ويُنفَخ في الصور.

بات كل شيء واضحًا بجلاء، كأن هناك من نزع غطاء عيني، ورفع التشويش عن سمعي، ونزع الجهل عن كافّة حواسّي فصارتْ عليمة ببواطن الأمور، صرتُ أفهم كل شيء إلا شيئًا واحدًا فقط؛

سألته السؤال الأخير، والذي هو ذاته السؤال الكبير الذي طاف بعقلي طول هذه الليلة الغرائبية:

- إن لم تكن أنتَ مخ قلبي أنا، إن لم يكن هذا البيت هو قلبي أنا، قلب مَن يكون إذًا؟

- أحقًّا لم تفهم حتى الآن؟!

صحتُ غير مصدق:

- لا تقل لي أنك مخ قلب الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان الكودزو العنقاء! ما علاقتي بقلبها وعلاقتها بقلبي؟! لا تقل لي أنها الجزء الأنثوي من «لوط»!

ضحك ملء السمع، ثم قال بعد لحظات بجدية بالغة:

- لا، إنها دخيلة على عالم «لوط».

- نقتلها إذًا، نتركها لجيش الخِراف ليفتك بها.

هكذا صحتُ في حماس؛ لا تلُمْني، أنتَ تعرف أنه لا يُمكن لشخص أن يكون متطفلًا على جسدك ونفسكَ.

بادرني هاتفًا بجزع، وكانت المرة الأولى التي أرى عقل القلب خائفًا، حتى أن شبح الخوف الأسود حام حوله من خلف الستارة البيضاء للحظات قبل أن يتبدد:

- لا تتهور، إنك بحاجة إليها، لولاها لكنتَ ميتًا الآن.

- لا أفهم، كيف أموت إذا طردتُ دخيلة متطفلة؟

- لأنها أهدتكَ بيتها.

- أهدتني بيتها! لا أفهم.

- ستفهم، لكن عليكَ الآن الإسراع بالنزول من أجل حمايتها، إن هُدم بيتها، سنموت يا «لوط»، هيا، أسرع.

- وماذا بإمكاني أن أفعل؟

- جيش الخِراف يعرف أنها غريبة وبيتها غريب؛ لذلك يريد مهاجمتهما كي يساعدكَ، لكنه جيش بلا عقول، يتحرك ولا يفكر، ينفذ ولا يشتهي، لا يعلم أنكَ تحتاجها وبيتها يا «لوط»، أسرع، إنها ضعيفة دونكَ، لن تستطيع الدفاع عن بيتكَ وحدها -بيتها، بيتنا- أسرع يا «لوط».

أظهرتُ تراخيًا كبيرًا، فالنفس لا تهوى الأخطار، بل تتجنبها، لكنكَ دفعتني! نعم، أنتَ، أنتَ المجموع من كل شيء، والجامع لكل شيء، أنتَ الرائي العليم الذي يعرف كل شيء، أنتَ حرَّكتني يا «لوط»، دفعتني لأن أسرع بالهرولة.

هرولتُ بسرعة في ممرات المتاهة، جيش الخِراف البيضاء المتكورة كأنها كرة قدم، الجيش العنيد، الذي يهاجم بعدة وخطة وسلاح، كيف لم أفهم طبيعته وأنا الطبيب الحاذق -أو الذي كان يظن نفسه حاذقًا-

كيف لم أفهم أنه ذلك الجيش من الكرات البيضاء في الدم الذي يهاجم كل دخيل يطأ عتبة الجسد؟

جيش لا يُفرِّق بين فيروس، وبكتيريا، ودماء من فصيلة مغايرة، أو عضو مزروع!

***

أنا نفْس جبانة، متخاذلة، وأنتَ المعنى الذي يدفعني لمواجهة الخطر رغم كرهي له، أنت القوة التي تجبرني على فعل ما أبغضه، فقط لأنه في صالحي، أنتَ الجهاد يا «لوط»!

سأظل أنا وأنتَ في صراع أبدي، أخبرك بما أشتهي، فتأنف ما أقول، أرسم خططًا تركن إلى الراحة، شعارها «نفسي نفسي»، فتفسدَها لي.

بعِزم طاقتكَ دفعتني يا «لوط»، دفعتني بسرعة كبيرة كأنني أطير، قُدتَني حتى أوصلتَني إلى المدخنة المفتوحة على سطح البيت، رغم علمكَ أنها بوابة خروج السائل الأحمر النقي ليتوزع على شرايين «لوط»، فيمد كل خليه منه بغذائها.

رغم علمكَ أنها بوابة خروج لا دخول دفعتَني صوبها، تدحرجتُ نزولًا في قناتها الطويلة المظلمة، لأجد نفسي أسقط داخل المدفأة -أو ما كنتُ أحسبه مدفأة، عليكَ أن تقرأ قليلًا في كتب التشريح لتعرف المكان الذي يبدأ منه الشريان الأورطى!- أجز فوق أسناني ألمًا كأنني أملك جسدًا حقيقيًّا من عضلات ودماء وأعصاب.

أنا مُتصل بجسد «لوط» -الذي يحتوينا- بموصِّلات خاصة لم يكتشفها الإنسان بعد، موصلات تصل النفْس بالجسد، فيتأثر كل منهما بآلام الآخر.

في منتصف الصالة وقفتُ أتطلع إلى البيت الذي تنقبض جدرانه بقوة عضلية كبيرة، ثم تنبسط لتعود وتنقبض من جديد بقوة أشد،

فتنَتْني حركة الجدران، صوت المحار، والرائحة المعدنية، واللون اللحمي، والملمس المخملي، فمرَّرتُ فوقه لساني لأستشعر مذاق اللحم.

هل تشعر معي يا «لوط» أن البيت صار مختلفًا؟ يسكنه شخصان لا شخص واحد، يتزاحم فوق الجدار نقشي لثعبان يلتهم ذيله، مع نقشها لطائر دودو كبير.

وهذا يجعلني أنتبه إلى التغيير التالي: كيف يكون البيت مضيئًا إلى هذا الحد دون شمس تشرق، أو مصابيح قوية الإضاءة، من أين يأتي هذا النور يا «لوط»؟!

انتفضتُ إذ رأيتها أمامي، الفتاة الـــ... لا لن أطلق عليها أسماء هذه المرة، إنها صاحبة البيت، هذا هو لقبها الحقيقي، أقر بذلك الآن.

تقهقرتُ قليلا إلى الوراء، أين الخوف؟ مالي لا أراه؟

ماذا تقول يا «لوط»؟ هل أرفع رأسي إلى الأعلى؟

لماذا أرفعه بينما الفتاة صاحبة البيت توجِّه فوَّهة «الصامدة حتى النهاية» إلى وجهي، كأن ما بيدي يصير بيدها بلمح البصر دون حاجة لاتصال جسدي؟

- حسنًا، سأنظر.

ما هذا؟ كيف تعلَّق الخوف في سقف البيت مثل نجفة، يتدلى مُتخبطًا في محاولة لفك عُقدة الحبل الملتفّ حول رقبته؟ من الذي نجح في شنق الخوف؟

أعدتُ أنظاري لتسقط فوق وجه الفتاة صاحبة البيت، إنها الفاعلة، استطاعتْ أن تشنق الخوف في سقف البيت، تمامًا فوق البقعة التي لم تعد قبيحة.

- يجب أن أطلق عليكَ النار.

قالتها بصوت له صدى، عكسته الجدران فارتدَّ وقد انقسم إلى نبرات متواترة تخترق طبلة أذني، عيناها حمراوتان بلون «مربى» الطماطم التي اعتدتُ صنعها، لولا علمي أن الأنفُس لا تشرب الدماء لظننتُ الأورطي قد غذَّاها بدفعة قوية من الدماء المُحمَّلة بالأكسجين.

قلتُ رافعًا يدَيَّ في علامة الاستسلام:

- انتظري، يجب أن نتحدث، لقد فهمتُ كل شيء الآن.

قالت بألم له مذاق الحنظل شعرتُ به فوق حلمات لساني:

- وماذا يفيد ذلك؟ أنا سأموت، وأنتَ كذلك، سآخذكَ معي سابحًا في الملكوت بلا بيت يؤويك.

لا أتحمل هستيرية النساء وإن كُنّ صاحبات البيت، تعرف ذلك؛ اندفعتُ أصيح بحدة:

- تعرفين أنكِ خالدة، لا يمكن أن تموتي، الروح لا تموت.

- لازلتَ لا تفهم، أليس كذلك؟ لستُ روحًا، أنا الجزء الذي يطبعه كل إنسان في قلبه، الجزء الذي يحوي نسخة محفوظة من ذكرياته، وآرائه، وانطباعاته، من قوته أو ضعفه، من إيمانه أو إنكاره، ويتشبَّث بالقلب ما ظل ينبض بالحياة، إذا مات القلب تتوقف الذكريات والآراء والانطباعات عن الحضور، فأتضور جوعًا ثم أموت؛ أنا مجرد نسخة مثل آثار الأقدام على الرمال الناعمة، لستُ روحًا خالدة، بل آثار الروح المطبوعة في القلب، لكل قلب نكهة ومذاق، وأنا نكهة هذا القلب، أفهمتَ الآن لماذا أحتاج إلى هذا البيت، إلى هذا القلب؟

نظرتُ حولي فإذا بالجدران قد علاها الصدأ، استطال الصدأ حتى بلغ الكنبة «الإسطنبولي»، وكرسي العرش، ودولاب التحف الكريستالية، لم ينجُ شيء من الصدأ.

تمتمتْ بعينين تترقرق فيهما العبرات، وهي تُمسك بـ «الصامدة حتى النهاية» بثبات وتوجهها صوبي:

- لا أريد أن أموت.

رفعتُ كفي أقول بعجالة:

- انتظري، لا داعي لذلك، بإمكاننا أن نتشارك القلب نفسه! انظري، إنه فسيح بغرفاته الأربع، وطابقه العلوي الذي يسكنه المخ؛ بإمكاننا أن نزوره باستمرار، هذا القلب يكفي كلينا.

- كلا، لا نستطيع.

- هذا ما كنتِ تسعين إليه منذ البداية، ما الذي تغيَّر الآن؟

- تغيَّر الكثير، رأيتُ حقيقتكَ، أنتَ عجوز جدًّا، قبيح جدًّا، كل شيء فيكَ ذابل جدًّا، أفسدتَ جدران بيتي، حولته إلى صَدِئٍ مثلكَ، لا أريد أن أعيش في بيتٍ يصدأ.

- سنُجمِّله معًا، انظري إلى السجادة العجمية التي تكرهينها، لقد اختفتْ، أعرف أنكِ تكرهينها لأنها مزيفة، باهظة الثمن دون قيمة حقيقية، مثل علاقات تستنزفنا دون أن نجرؤ على قطعها، صار بإمكاني أن أعرف أنكِ تكرهين تلك السجادة دون أن تتحدثي لأننا أصبحنا متحدَين، عيني لن ترى الصورة كاملة دون عينكِ، حواسّي دونكِ ستبقى ناقصة.

ثم أضفتُ بحماس:

- إننا على توافق كبير الآن، ألم تشعري بالألفة معي منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها؟ أنا أيضًا شعرتُ بذلك، أنكرتُ الأمر في البداية، لكنني شعرتُ به في أعماق نفسي، تعرفين أن «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف»، وأعرف أنا أن قلوب البشر تتواصل وتتفاعل عبر تبادل الطاقات الكهرومغناطيسية على مستوى اللاوعي، لهذا نشعر بالود والألفة دون سبب واضح تجاه أشخاص نلقاهم أول مرة، أو بالنفور والاغتراب تجاه آخرين، نحن -أنا وأنتِ- طاقاتنا تعمل بشكل جيد، جيد للغاية.

عادتْ لتُطبق بقوة على الجردة اليابانية، تشير بها صوب الغرفة المحرمة وتصيح:

- وماذا سنفعل في تلك النبتة البشعة التي تُغذيها وتُضاعف حجمها، هل ستتخلص منها؟ هل ستدفن من يحتاج إلى الدفن وتبعث للحياة من يستحق فرصة جديدة؟ هل ستزيل رائحة العفن عن قلبي؟

دارتْ عيناي في الأرجاء، لا تأمُّلًا، بل هربًا، التقطتْ هي الهرب في عيني هاتفة:

- لا فائدة منكَ، سأقتلكَ وأبقى في القلب وحدي.

- إلى متى؟ الجهاز المناعي بجيش كراته البيضاء المُسلَّحة يُهاجم قلبي، قلبكِ، قلبينا، سيُفسدون كل ركن فيه، سيموت القلب ويخسر كلانا كل شيء.

خفضتْ الفوهة قليلًا، يحدوها الارتباك، وتتآكلها الحيرة، إنها مثلي تتظاهر بالقوة حين لا يكون عندها أدنى عِلم ماذا ينبغي عليها أن تصنع، وجدتُ نقاطًا مشتركة بيننا، أنتَ أيضًا تراها، أليس كذلك؟

رغم ذلك، ثمة تناقضات كثيرة، هل بإمكاننا بالفعل أن نعيش معًا في قلب واحد، هي بكل هذا الشباب، وأنا بكل هذا العجز؟ هي أبجدية كاملة، وأنا حرف صامت في لغة أجنبية، أي حكاية قد ننسجها معًا؟

جيش الكرات البيضاء نجح أخيرًا في إزاحة بضع خلايا بقرونه القوية، اقتحامه للقلب والقضاء عليه مسألة تحتاج إلى دقائق فحسب.

رأيتُ الخوف يقطع الحبل عن عنقه ويحرر رأسه، ثم يسقط فوق رأس الفتاة صاحبة البيت، يعانقها من الخلف، يطبق بيديه حول عنقها، ثم يغرز عيونه الكثيرة في جسدها.

ألقَتْ عليّ نظرة محتضر يتعلق بآخر نفس له في الحياة، استطالتْ يد الخوف لتنال عنقي أنا الآخر، كنا عاجزين جدًّا، لم يفدها شبابها، ولم تفِدني خبرتي، تائهين في بحرٍ لُجّيّ، ودوامة تسحبنا صوب الأعماق المظلمة.

قلتُ في محاولة أخيرة لإقناعها، لإثبات أنني تغيرتُ، أو بإمكاني أن أتغير:

- فهمتُ الآن لماذا اخترتِ طائر الدودو؛ لأنه أشهر الطيور المنقرضة، أليس كذلك؟ فقد طائر الدودو قدرته على الطيران لأن الطعام كان متوفرًا حوله على الأرض، ولم يكن ثمة أعداء تترصَّده، اتهموه بالغباء، وسُمِّي بـ «دودو»، أي: الغبي، في لغة العديد من دول شرق آسيا، لأنه كان يقترب من الناس دون أن يشعر بالخوف، ويترك بيضه في أعشاش على الأرض؛ إذ إنه لم يعتَد وجود الأعداء في محيطه، عاش حياة طويلة منعزلة لم يتعلم خلالها كيف يدافع عن نفسه رغم مخالبه الحادة، توهَّم أن الأمان يدوم للأبد، وعندما أغار الصيادون والبحَّارة عليه واصطادوه لأكل لحمه، كان قد فقد قدرته على الهرب إلى السماء، حتى بيضه لم يَسلَم من الأذى، كانت الحيوانات الأخرى تقوم بسرقته وأكله، ففني جنسه وانقرض.

ثم أردفتُ مُتأثرًا بعَبَرات ترقرقتْ في عينيها:

- لو لم يَركَن كثيرًا إلى الراحة، لو لم يحبس نفسه في عالم منعزل من الأمان الزائف، لحافَظ على قدراته واستخدمها وقت الخطر، انقرض طائر الدودو؛ لأنه لم يعرف متى عليه أن يخاف؟ وممَ يخاف؟ وكيف يتعامل مع الخوف إذا ما صادفه في الطرقات؟

ثم أردفتُ بصوت حانٍ:

- هذا كان خطأكِ، انعزلتِ عن كل شيء حتى لم يعد بإمكانك التعامل مع مخاوفك حين تضطرين لمخالطة الناس والتحرك في عالمهم؛ لذلك حاولت مساعدتي كي لا أصير مثلكِ، كي لا أصير طائر دودو عاجزًا عن مواجهة تقلبات الحياة.

باتَ القلب على شفا الانهيار، نظرتُ إليها برجاء، كي تتعاون معي من أجل حمايته، فأبَتْ إلا أن ترمقني بعناد الشباب وعنفوان التحدي، اقتراب الموت يُزلزل دواخلي، ويزيد من إحكام يد الخوف حول عنقي. حسنًا، لقد ربحَت الفتاة.

- موافق، سأدفن من يحتاج إلى الدفن، وأبعث للحياة من يستحق فرصة جديدة، سأخلصكِ من رائحة العفونة التي تصدر عن الجثث والأشلاء التي ركمتها في الغرفة المحرمة، وسأتوقف عن إطعام وحش الشهوات، ليس دائمًا، لكن بقدر استطاعتي.

ثم أشرتُ إلى حقيبتها القماشية التي تسع العالم وأردفتُ باسمًا بحُنُوّ:

- وبإمكانكِ أن تضمّي عظام أحبّائكِ التي تحملينها معكِ إلى كرسي العرش، سأشاركِ إياه.

تبدَّتْ نظرة فرحة في عينيها؛ هي مثلي تحب أن تحتفظ بعظام أحبابها الذين فارقوا الحياة في أجمل مكان من قلبها، لا يصير الإنسان ملكًا في قلبه إلا بوجود أثر عظيم يُخلّفه أحبّاؤه وراءهم.

تحركنا بتقل صوب الغرفة المحرمة، ولا يزال الخوف يُحاول منعنا من التحرك، فتحتُ أقفالها بنفسي وقد تذكرتُ كل الأرقام السرِّيّة.

وفي الداخل أمسكنا بالرَفْش وطفقنا ندفن الأجساد والأشلاء، تعفَّرنا بالتراب، وتقرحت يدي ونزفتْ «مربى» طماطم نظيفة طاهرة، حملتُ ثلاث جثث وأسندتها إلى الجدار، ثم نفختُ فيها من ندمي، باكيًا أنوح، وأتذلل لهم كي يعودوا إلى الحياة من جديد: زوجتي، وابني، وصديقي.

صوت المعركة بالخارج يصم الآذان، ورائحتها تزكم الأنوف، وتلسع الجلد، وتغشي العين، وتقطع الأنفاس، ارتج القلب بعنف مثل قارب في مهب الموت.

هيا، تعال معنا يا «لوط»، نحتاجكَ كثيرًا، لا ينقصنا في هذه الحرب سوى الجهاد، هذا كل ما نملكه بين أيادينا، وما سوى ذلك هو رحمة وعدل من الله، إن شاء هدم بيتنا فوق رؤوسنا، وإن شاء رحمنا.

هيا، زاحِمنا يا «لوط»، نعم هكذا، كُن بيننا، أمسك بأيادينا ولا تدعها، اتلُ مِن آيات الذِكر الحكيم كي يجلو الصدأ، ويعود القلب إلى لونه اللحمي، فالقلوب تصدأ كما الحديد وجلاؤها القرآن، هكذا علمتني الفتاة إذ امتزج علمها بعلمي.

بغتة، سمعنا صيحة عظيمة كأنها النفخ في الصور، سكن بعدها القلب عن الحركة، وتوقف جيش الجهاز المناعي عن المعركة.

ثم أظلم كل شيء!

***

26

تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.. تن.

إحدى عشرة دقة، الساعة الآن الحادية عشر مساء، تجاوزنا السادسة بخمس ساعات كاملة، لقد نجحنا!

رائحة كحولية تزكم أنفي، وألم رهيب يخترق صدري، ويحوم بأسنانه حول رأسي، يقضمني مرة في جانبه الأيسر، ومرة في جانبه الأيمن.

ملمس قطني تحت أناملي، شرشف ربما. صوتي لا يخرج من حلقي كأن أحبالي الصوتيّة قد صدأتْ من قِلة الاستعمال، ومذاق مُرّ كالحنظل يسري فوق لساني، خلوف فم لم يدخله الطعام منذ ساعات طويلة.

أشعر بجسدي مثل سيارة قديمة يُحاول قائدها أن يُشغِّلها بعد ركود طويل، تتسرب إلى أذني أصوات كثيرة، كان وقعها على رأسي كالمطارِق.

رأس أعرف أنه أسود الشعر، إلا من شعيرات قليلة هنا وهناك اصطبغتْ بالأبيض، رأسي يوحي للرائي أنني في الثلاثين، بينما من داخل قلبي أشعر أنني عجوز، عجوز جدًّا، ربما في الستين.

شيئًا فشيئًا تنجلي الأصوات، تقل عددًا، وتزداد نقاءً، ثلاث أصوات أتبيَّن منها اثنين: رجل وامرأة، رجل أعرفه تمام المعرفة، وامرأة أحفظها عن ظهر حب.

يتسرب إلى مسامعي صوت المرأة، يختلط ببقايا بكاء عنيف، خلَّف من ورائه بحَّة:

- طال الأمر كثيرًا، لماذا لم يستفِق بعد؟

بغتةً، شعرتُ بالشوق إلى صاحبة الصوت، تجهَّزتْ حواسّي لالتقاط كل حرف وكلمة، كل حركة وسكنة، فيما يُجيبها الرجل بصوت يتظاهر بالثقة بينما في دواخله عاصفة قلق لمستها في نبرته، مع مسحة من الإرهاق:

- جراحة بدأت في السادسة مساء واستمرتْ لساعات متواصلة ليستْ بالحدَث البسيط، ثقي بالله، واستمري في الدعاء من أجله.

انساب صوت زوجتي بخشونة من أثر البكاء:

- كدنا نفقده.

- لكننا لم نفعل.

- تقول أن قلبه توقف أثناء الجراحة.

- نعم، لكننا صعقناه ست مرات متتالية، وها هو قد عاد إلينا مرة أخرى.

ست مرات متتالية؟ ست انتفاضات في فراشي، ست مرات تعود فيها الساعة إلى الوراء لتبدأ مرة أخرى في تمام السادسة، ست مرات أموت فيها ثم أولَد من صدر جثتي المشقوق، أولَد مِن سويداء قلبي!

أذكر من خلف ضباب خامل آخر ما رأيته قبل أن يقبض المخدر على أجفاني بينما أنا مُمدد في غرفة العمليات استعدادًا لجراحة عاجلة

في القلب، آخر ما رأيته كان الساعة الجدارية التي تُشير إلى السادسة مساءً، الساعة التي دخلتُ فيها إلى قلب الفتاة الطاووس القصة البرق البينوكيو الفيضان الكودزو العنقاء، الفتاة التي شاركتها قلبها دون رغبة منها.

ينطلق الصوت الثالث مشاركًا إياهما الحديث، به نبرة لا تجدها إلا في أصوات الممرضات، حيث تمتزج المهنيّة بالرغبة في الثرثرة:

- من لُطف أقدار الله أن تُحمَل إلى مستشفانا امرأة مجهولة الهوية، لم يُستدل على أهلها ولا بلدها، تقيم منذ زمن بعيد في دار رعاية للصحة العقلية والنفسية، متأثرة بجرح بالغ إثر طلق ناري أصاب عينها، استفاقتْ للحظات طالعتْ خلالها ملف يحوي فحوصاتها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ لولاها لمَا نجى دكتور «لوط» من الموت المحقَّق، قلبه كان في حالة سيئة جدًّا بعد أن توقف مُنظم ضرباته عن العمل، بالإضافة إلى تضخم رئته اليُمنى وضمور أصاب اليُسرى على إثر عاداته الصحية السيئة، لو لم يتم زرع قلب الفتاة المجهولة في صدره، لَلَحِقَ بها على الفور.

تسأل زوجتي بريبة:

- هل الفتاة مجنونة؟

- أخبرتني زميلتي التي تعمل في المستشفى التي كانت محجوزة به أنها كانت غريبة الأطوار مختلفة، والاختلاف في عُرف الكثير من الناس جنون، كانت تتحدث عن رغبة أختها التوءم في قتلها، لأنها لا تتحمل أن يكون لها نسخًا غيرها، هل تصدقين ذلك؟ فتاة مجنونة حقًّا، وهل تقتل الأخت أختها؟ هل نعيش في غابة لا سمح الله؟!

- من أطلق عليها النار إذًا؟

- لا أحد يعرف، رصاصة طائشة خرجت من سلاح أحد رجال الأمن ربما، لكن أحد عمال النظافة قال إنه رآها بعد إطلاق النار تهرول من المستشفى باضطراب، هي نفسها، أو صورتها في المرآة!

ينساب صوت زوجتي في أذني محمولًا على أجنحة الألم:

- ليت القلب الجديد بإمكانه أن يعيد لنا «لوطًا» القديم، لقد خسرناه منذ أن فقد أبويه ورحلا عن الحياة، كأنه فقد برحيلهما بوصلة حياته؛ انعزل داخل قوقعة، وانغمس في تتبع الأخبار والحوادث، وكل ما يحدث حول العالم من قتل وتعذيب وخيانة ومعارك وصراعات، فسد قلبه وصار يرى العالم من نافذة واحدة سوداء قاتمة، لا يحل عليها الصباح أبدًا، كل ما يدور أمامها مشاهد مظلمة فحسب، ورافق أناسًا لهم النظرية السوداوية نفسها، فأغرق بعضهم بعضًا.

عاجلها صديقي ببسمة تكونت ببطء على شفتيه، رأيتها دون أن أفتح عيني:

- القلب الجديد المزروع يحمل جزءًا من طباع وعادات الشخص الذي جاء منه، فتتبدل حال المريض، رصد الأطباء حالات كثيرة لتغيرات في طباع وعادات ومشاعر المرضى الذين تمت زراعة قلب جديد لهم؛ إذ يُعتقَد أن لخلايا القلب ذاكرة تنتقل معه إلى جسم المريض فيشعر المريض كما لو أن هناك تواجدًا وجدانيًّا لشخص آخر يعيش معه، يُغيِّر من ديكوره النفسي وخريطته السلوكية، كأن...

صمت للحظة ثم استطرد:

- كأن مخ القلب لا ينسى أبدًا الجسد الذي عاش فيه.

سألته زوجتي ببشاشة ولهفة:

- هل تظن أن «لوطًا» من الممكن أن يعود لسابق عهده؟ وأنه سيدرك الجُرم الذي فعله عندما صبَّ عليّ وعليكَ نيران شكوكه وأوهامه الظلامية؟

سكتَ سكتة طويلة، ثم قال بابتسامة أكثر اتساعًا:

- فلْندعُ الله أن يكون القلب المزروع أرضًا خصبة خيِّرة، تشرق منها الشمس وتُنير ظلام «لوط» وتبدد ظنونه وأوهامه، فيعود لي ولكِ ولابنه كأنه يولد من جديد.

ثم أضاف بجديّة ممزوجة بالقلق:

- نجاح عملية زراعة القلب يعتمد على قدرة تأقلم النظام العصبي للقلب المزروع مع المريض، نأمل أن تستطيع طاقة «لوط» التعايش مع طاقة القلب الجديد.

صرير الباب ينسكِب في أذني، ثم وقْع أقدام صغيرة تتقدم صوب الفراش، المرأة تحمل الطفل القادم ثم تُقربه من وجهي، يلثمني بشفتين مبللتين فوق وجنتي، أعرف هذا الفم، وتلك الرائحة، شعرتُ بدمعة تترقرق خلف جفنَيَّ تريد أن تنسكب، تتبعها ثانية وثالثة ورابعة حتى تكوَّن خلف السد فيضان، لم يزعجني؛ نحن نتطهَّر بالعَبَرات.

رفعتُ كفي ببطء استجلَب شهقة زوجتي، وتكبير صديقي، وصيحة فرح من فم صغيري، أرحتُ كفي فوق صدري، تمامًا عند الشق، بالضبط فوق موضع القلب، فيما أردد بصوت لا يسمعه غيري، بينما دمعة ساخنة تهرب من جانب عيني لتروي الوسادة:

«لا يزال هناك الكثير من الأشلاء التي أحتاج إلى دفنها كي أتخلص من رائحة العفونة، ما زلتُ بحاجة إلى اقتلاع الوحش الذي يتغذى على روحي، ما زلتُ بحاجة إلى تعلُّم ألا أخاف من الخوف، كيف أروِّضه، وأقبل به ضيفًا في بيتي من وقت لآخر، كيف أخرج من عزلتي لأواجه الحياة الحقيقية بالخارج كي أحافظ على بيتي نظيفًا من الدنس، وكيف أفرِّق بين العدو والصديق، ستساعدينني كي لا أتحول إلى طائر دودو آخر، ستفعلين كل ذلك بأن تروي لي الكثير من الحكايات عن البلاد التي زُرتِها. فلْتبدئي بحكاية البلد الذي لأهله وجوه الجراد، أو البلد الذي يأكل الخميس أو الأفضل، حدثيني عن البلد الذي يمنع النطق بالحاء.

لا تخافي، لن أتهمكِ بالجنون مثلهم، أعدكِ، هذه المرة سأفهمكِ وأتقبَّل اختلافكِ كما لم يفعل أحدٌ من قبل، الآن، في هذه اللحظة، تُصغي إليكِ كل آذان قلبي، قلبكِ، قلبَينا».

تمت بحمد الله.

